

الحروب العالمية وما نتج عنها من علاقات
اجتماعية واقتصادية وثقافية بين الحرب والافرنج

تأليف
زكري النفاش

١٩٤٦ م ١٣٦٥ هـ

مقدمة الكتاب

لقد جاءت دراستي لهذا الموضوع تحقيقاً لرغبتين ، الأولى منهما قديمة وهي أمنية عزيزة عليّ أن أجمع تاريخاً جامعاً لما كان يُعرف حتى امد غير بعيد "بشيرة الكبرى" وقد طالما دغدغتنى هذه الأمنية وطالما حلت بها في البقعة والنام وأما الثانية فجديدة إذ اتخذته موضوعاً لاطروحتي في سبيل نيل شهادة أستاذ في الآداب M.A. أما اختياري له فيجمع بين الغائتين إذ هو جزء منم لما سبق لي وأعدته من أجزاء هذا التاريخ الشامل. وهو فوق ذلك تاريخ لحقبة لعلها من أحلك الحقب في تاريخنا أحييت أن أجلوها ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

أما الآن وقد وصلت إلى النهاية أو كدت فباستطاعتي أن اصبح فخوراً بأنني أقدمت على هذا العمل الشاق مع وفرة أعمالى "لأثبت للشباب أن التلمذة لا تعرف سناً وإن الواحد منا طالب علم ما كان في قيد الحياة وإنها فضلاء من ذلك للذة روحية لا يشعر بها إلا من عاناها .

ولا يسعني هنا إلا تقديم الشكر الجزيل لمن كانوا لي خير معوان على تخطي ما اعترضني من صعوبات وأعني بهم أساتذتي الكرام - الدكتور قسطنطين زريق قبل الإطاحة بأعباء منصبه السياسي في الولايات المتحدة . والدكتور غليم . إذ كان لي شرف التلمذة عليه مدة سنة كاملة قبل أن اضطره المرض إلى السفر . أما من كان له الفضل الأوفر في مساعدتي على انتمام الشوط إلى نهايته فهو الدكتور نبيه أمين فارس . وكذا لك أحب أن أسجل كلمة شكر لإدارة المكتبة في الجامعة الأميركية ببيروت وموظفيها إذ كان لي فيهم انصاراً وإي انصار في الوصول إلى بعض المراجع الهامة .

وأخيراً لعني أن يكون في جهدي المتواضع هذا حافظ لبش الشبان والذابات من بني قومي إلى عدم الاكتفاء أبداً بما لديهم من معرفة ضئيلة أو كثيرة فإن العروبة بحاجة ماسة إليهم والانسان بحاجة إلى ولا شك .

(١) في إدارة التعليم والتأنيف المدرسي

(٢) ولأن ذلك في موضوع: "بابه الأوربانية الحديثة: اليهودية والنصرانية واليسوع" من أصول

مستزكرة بيكر

الفصل الأول

- مقدمة تاريخية في ماهية الحروب الصليبية وأسبابها المباشرة
- ادوارها - ضعف الحكومات الإسلامية
 - فوز الافرنج وتأسيس مملكة القدس والامارات الثلاث
 - مظاهر القوة والضعف في الممتلكات الافرنجية
 - دور الانتصار او هجوم المسلمين المعاكس
 - ضعف الدولة مودود - عماد الدين زكي لو استرجاع الرها
 - الحملة الثانية وفشلها في المزة
 - نور الدين زكي وسياسة تطويق الافرنج
 - ضعف الفاطميين ونزاع الوزراء - فوز شيركوه
 - صلاح الدين واعادة الغطبة للمسلمين
 - نور الدين بوجسر خيفة من صلاح الدين
 - وفاة نور الدين وترفع صلاح الدين الى السلطنة
 - الافرنج بين راسي الكفاح - خروجه لهم في حطين
 - تحطم المملكة في القدس وممتلكاتها في فلسطين
 - تجمع الافرنج في صور - انتقالهم بعد وصول المركيس ككونراد المونغراني
 - متاع صلاح الدين - المملكة الثانية وحصار عكا
 - المعاهدة بين رشار وصلاح الدين - وفاة صلاح الدين وتجزؤ السلطنة بعده
 - المالبك وانهم في استرجاع البلاد
 - بينبرس - فلاون - الاشراف - خليل

الفصل الاول

اختلف الناس في نظرهم الى الحروب الصليبية ، فمنهم من رأى فيها حملات دينية صرف دعت اليها البابوية واستجابت لها الشعوب الأوروبية ما بين جرمانية وشمالية وفرنجية وابطالية من اقتناع فحسب بوجوب انتزاع " بيت المقدس " وتخليص " قبر المسيح " والاستيلاء على الاراضى المقدسة في سورية وفلسطين تسهيلا للطريق امام الكهجاج من اهل الغرب ليقدموا شعائر الدين ، ومنهم من رأى فيها حملات هوجاء لحمتها الفظاظة وسداها الوحشية فاعتبروها كائنها بجملتها حدث غريب نبا عن مجموع مظاهر التطور العام .

والحقيقة انها حلقة في سلسلة الاحداث التى بفضلها تمت العلاقات بين الشرق والغرب منذ ايام التاريخ الاولى عندما امتد في مطلع الالف الاولى ق . م . نفوذ الفينيقي والآرامى من قلب عالم البحر المتوسط . شرقا وغربا وسط جناحي حضارتها على جميع بلدانه من ^{صناعات} احضان السند حتى سواحل الاطلسي .

ثم عاد ذلك السلطان فانكسر امام بقظة الفرس واليونان في القرن الخامس ق . م . وما ان استنصر ابناء فارس بقوتهم المادية وتفوقهم العددي على منافسيهم من ابناء هلاس حتى سمعوا الى غزو بلادهم وضمهم في غفر دارهم ولما لم تكن المركبة حاسمة انقلبت الالة واذا بالمكدوني الكبير يقود القوم سنة ٣٣٢ ق . م . ويحملهم شرقا حتى قلب الهند ، وكان ان امتزجت للمرة الاولى في التاريخ الحضارتان الشرقية والغربية وكونتا نواة الحضارة الانسانية الهامة .

ولكن ما ان دار الفلك دورته وعلت سنة التطور عليها حتى دب الضعف من جديد ففى فاصل حكومات السلافيين والبطالقة والفرشيين ^{المدقية} وعلت في الغرب موجة جديدة هي موجة الرومان تحمل جحافلهم الى حيث رفعت اعلامها فوق نخم ايران كما ركزت رايانها فوق جنوبى جرمانية وعلى هضاب بريطانيا .

وأظَلَّ المسكران - الشرق والغرب - متقابلين متنازعين ، بقرب من ٧٠٠ سنة حتى اهترأ الضعف وسادتهم الفوضى فاطلت عندها كتاب العرب سنة ٦٣٠ من بواديهما صارخة مدوية ان منحوا ابناء الآريون " فيها هم الساميون قد عادوا وها هي العروة آنية لتبسط اجنحتها وتبعث في الشرق والغرب حيويتها وكان ما كان من جمعها لثقات العالمين من خضرة سهول الصين الى تلاطم امواج الاطلسي

واذا الحضارة واحدة لا شرقية ولا غربية يعمل الجميع تحت راية الضاد ويستظلون بسلامها وينعمون
بعدلها .

وفيما العالم كذلك اذا بشعوب اوربه قد اهتزت وسرت في سرايها دما الحباة فقامت
تشدتها غارات على العرب في اسبانية وسردبنية وصفلية بغية التقلت من قبضتهم ، غير انه كان عهدود
ظروف قامت البابوية تغتصمها فرصة للتدليل على عظم سلطانها وكبير نفوذها فسعت الى قلبها حروبا
" دينية " كما رغبتها ان تكون . وبقيت هجوما فرنجيا معاكسا كما فهمها على العرب ^{بحسب} ومروهم منذ
ذاك (ابن الانبرج ١٠ ص ١١٢)

فما هي تلك الظروف يا ترى ؟

من تلك الظروف في الشرق ان كانت الخلافة قد دب في جسمها الضعف بعد تلك
السطوة فاسترخت منها الاحصاب ووهنت عندها القوى فذلت امام الانراك وثلاثت امام البويرين (القرن
الخامس الهجري) فلاح في ذلك للمغرب بريق امل خلب ونوهم الروم ان يستعبدوا سطونهم ولكن ما
لبثت الخلافة ان الفت نفسها متجددة الطاقة منبعثة النشاط بظهور السلاجقة على مسرح التاريخ
العام فعاد قلبها ينبض بالقوة وجيوشها تعمل ، بعد امتلاكها لآية مصرى على ازاحة الروم من طريقها
وقد وقفوا على ضفاف البوسفور حاجزا دون اجتياحها لاوروبية من الشرق واذا ببيزنطية تنادى بالويل
والنبور وتلؤل مؤتعدة خائفة فتستغيث بملوك اوروية وامرائها وبابا رومية على اختلاف بينها وبينهم
في المذهب وتنازع في السياسة .

ولكن اتى للملوك والامراء ان يلجوا الطلب والاقطاع ملوثهم في حروب دامية وكيف للبابوية
ان تلبى دعوة القيصرة وهي في خطر من الامبراطورية فكان لا بد وان يدبروا لها اذنا صما تارة ودعواها
بين الباس والرجاء تارة اخرى حتى وانت البابا ظروف اكثر ملامة واستطاع التغلب على مناوئيه من أباطرة
الالمان العتاة في الغرب . هذا وكان ان تحطمت ايضا وحدة الاسلام في الشرق بموت ملكة السلجوقي
سنة ١٠٩٢ فتبعثرت امبراطوريته المتراصة الاطراف اشلاء ونهضت عندها البابوية ممثلة باوربان الثاني
سنة ١٠٩٥ تسعى الى توحيد جهود القوم بالقضاء على فوضى الاقطاع وتعتت الفرسان وتوجههم
نظر الشرق حيث تبسط سلطانها وترفع رايتها فكان دورها في ذلك دور من ينير بالدعايات كوامن النفوس
وموء بالخطب والمختلفات الحقيقة على السذج من الشعب فيدفع بهم الى نخيل ما ليس بالواقع محرقة
فيهم اوتار التعصب الدينى طورا ومثيرة عندهم للاحقاد الجنسية طورا آخر ، مصورة لهم قيام مأس في
الشام قد بولغ في وصفها . فكم اوهمنهم نحاسة الحجاج لسو تصرف الحكام من السلاجقة معهم ولتعسف

الخلافة من الفاطميين بمعاملتهم وكم اظهرت لهم المسلمين قائمين على عبادة الاوثان وهاكفين على السجود امام صنم محمد ومهينين "لقبر المسيح" . غير انها لم تستطع مع هذا ان تخفى الحقيقة كلها فلوحت لهم بما في الشرق من كنوز مدفونة وسهول خيره وممالك عظيمة وتجارات رابحة تنظرهم جميعها .

وهكذا ما زالت بهم حتى اندفعوا فوجات متتالية بين فترات متفاوتة لمدة قرنين كاملين من الزمن تكسرت اخيرا على صخور الوحدة في سورية ومصر وتلاشت ناركة من الانار ما هو باق الى يومنا هذا وما لم بقو على البقاء مع الابرار .

وليس يستغرب ان تلقى تلك الدعاية عند مختلف الطبقات من الشعوب الأوروبية آفاقا صافية وقلوبا واجبة . لم تكن مثل الحياة عندهم دينية تزهدة كما رسمتها لهم الكتب والنقايد وطبعتهم عليها الطقوس والراسم فان لم ينح لافراد الشعب ان يحبوا جميعهم في عزلة الدبارات مع الرهبان والنسك فلا امل من ان يعتاضوا عنها بحمل الصليب وفص الاكف بدما "الوثنيين" فيكفروا بذلك من خطايا ارتكبوها ونالوا رضى الكنيسة ورواسائها . ثم اليس^(١) في استجابة الطبقات الدنيا من الشعب تخفيف من كواهلهم فكم كانوا يلقون في كسب العباك هننا ونصبا . كما انه (٢) كان للفرسان والامراء والملوك فيها سبيل لتحقيق مراميهم في المغامرة وحب الغزو والفتح والسيطرة ولسنا بناسين ذلك الشعب الشمالي "النورمان" وتدفع جماعته من منازلهم في الشمال الى فرنسا وانكلترو وسردينيا وصقلية بعد ما ارتادوا البحار واجتازوا الانهار ثم كيف لا يجيب النداء الابطاليون من بندقية - وجنوبيين وبيزين والكل منعك الى اكتساح الشرق واسواقه واملاك طرق تجارته واخيرا لماذا لا يلبي الفرنسيون من اهل الجنوب الدعوة وفي ذلك متنفر لاحقادهم المتراكمة في الصدور . السبب لهم ان مدوا يد المساعدة الى اخوانهم الاسبان من المسيحيين ضد المراكبيين من العرب المسلمين تلك هي الظروف التي فيها ولدت "الحروب الصليبية" .

ولعلها هي التي جعلت بعضهم يصفونها بالوحشية والفظافة بل والخرابة ايضا متوهمين اسبابها الحقيقية وهي ليست في الواقع بجمعتها من مكوناتها في شيء بل ولا من مميزات البنية . فما هي اذاً الدوافع الحقيقية لها ؟ ان الدوافع الحقيقية لها في اعتقادنا انسان لا ثالث لهما . العامل التاريخي وهو ضعف الشرق بعد المنع والسطوة وشعور الغرب بوجود الثقلت منه واسترجاع اراضيه بل والاخذ منه بالنار . العامل الاقتصادي الذي تنتقل به مرافق الحياة الى ابدى القوم مع انتقال المالك لايديهم بفعل الاول . وهي كما ترى حدث طبيعي منطقي

كان لا بد له من ان يقع ولولم يكن هنالك بابوية او خلافة ولا اسلام او مسيحية ايضا وليس ما بنوه به بعضهم من دور خطير لعبه بطرس الناسك وامثاله في استنارة الفلاحين وقيادتهم لهم في حملات شعواء الا اسطورة الاجبال وبدعة الخيال . هذه هي الحروب الصليبية كما تخيلها بعضهم وكما صورها البعض الاخر وتلك حقيقة امرها واسبابها ومهداتها نرحوان نكون قد وفقنا الى تبيانها وكشف اللثام عن كنهها حتى نتقدم الآن الى درس ادوارها وما تطلبت فيه من ظروف ومناسبات .

مرت الحروب الصليبية في ادوار ثلاثة خلال قرنين كاملين من الزمن اعترض الناني والثالث منها فترة هدوء نسبي جاءت على اثر وفاة السلطان صلاح الدين وقيام النزاع بين خلفائه من اخوته وابنائهم .

وقد امتد الدور الاول نحو من ٤٠ سنة من ١٠٩٧م الى ١١٤٠م امتازت حملاته بالحمة الدينية عند القائمين بها وبكثرة المشاركين بها من الشعوب والافراد . وقد برز بعض القواد من كان لهم اثر بعيد في سير الحرب ونتائجها . اما الشعوب التي استجابت لدعوة البابا اوربان الثاني في مدينة كليرمون من فرنسا سنة ١٠٩٥ فعديدة منها النorman والابطالون والفرنج ، الا ان وفرة عدد هؤلاء من جهة واتراصطدام العرب بهم منذ ٧٣٣م في بوانيه وتوركان ما جعل العرب يطلقون اسمهم على الجميع فيقولون "حروب الفرنج" رغم تعدد العناصر المشتركة فيها من غير هذا الشعب .

ومن ابرز قوادهم الامراء بوهمن سيد او ترانتو وابن اخيه تنكريد وكلاهما من النورمان ثم غودفروا امير بويون في بلجيكا واخوه بولدوين وريمون الطولوزي امير بروفانس في جنوبي فرنسا وغيرهم آخرون ممن كانوا اقل شأنًا واهضع اثرا .

وكان من نتائج هذه الحملة ان تغلب القمم على المسلمين في آسبه الصغرى وامرد قبصر الرم حسب تعهد الفرنج له ^{مضعف} ما كان فقداه من قبل ١٠٩٧ و ١٠٩٨ ثم تقدموا الى سورية واسسوا فيها امارتي الرها وانطاكية ثم "مملكة اللاتين" في القدس وكونينة طرابلس . وليس بمستغرب ان يتسائل الواحد منا متعجبا "كيف استطاع اولئك الفرنج ان يتغلبوا على السلاجقة والفاطميين بتلك السهولة وتلك السرعة مع ما كان بينهم وبينهم من فوارق

٠/٠٠٠

فى العدد والعتاد وفى القوة والاستعداد * الم يكن الفرنج غرباء فى بلاد جهلوا منها دروبها وشعابها كما طالت فيها عليهم طرق مواصلاتهم فتعذرت عليهم منها سبل التموين والإعاضة * اما كان عليهم ان يهاجموا الحصون والقلاع ليدكوا منها الاسوار ويحرقوا الابراج ثم لئن ربطت راية الصليب بدم وحدانهم الم تكن الاحقاد القومية قد باعدت بين قلوبهم كما انهم وان انفقوا على الفتح وكسب المغلن فقد اختلفوا على اقتسام الاسلاب وتوزع المقاطعات فلا عجب وحالتهم ما وصفنا ان يفقد حملتهم طابع الوحدة فى الغاية والقيادة ومع ذلك فقد فازت وكان من نتائجها السريعة ما اسلفنا ذكره فما هو تعليل ذلك ؟

الحالة

ليس تعليل ذلك بعسير منى تفهنا للطفة فى الشرق والى رب وربابنا ما كانت عليه من ظروف قاهرة ساعدت على ظهور تلك النتيجة المستغربة .

كان سبق للمسلمين فى الشرق ان شهدوا فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشرم) وحدة فى صفوفهم بم قامت اولى امبراطوريات الاتراك على سواعد السلاجقة وامتدت اطرافها حتى ضمت مع ممتلكاتها اراضى الخلافة ايضا وقد رفع قواعدها السلطان طفول بك سنة ٤٢٥ - ٤٥٥ هـ . ١٠٢٣ - ١٠٦٣ م . فاستولى فى سنة ٤٢٥ هـ و ١٠٢٣ م على خراسان وفرمن العمال وخطب له فى نيسابور . وما زال امره فى علو حتى هابه ملك الروم وهاداه ثم انفذ رسوله الى الخليفة القائم بامر الله * بالهدايا وسار يريد بغداد فدخلها لخمسين بقين من رمضان سنة ٤٤٧ هـ . و ١٠٥٥ م . ولقب بالسلطان ركن الدين وقضى على الملك الرحيم ابي نصر وعلى قواده وازال دولة بني بويه واخبر مات بالرى سنة ٤٥٥ هـ و ١٠٦٣ م . وقام بعده بالامراة ابي اخيه عضد الدولة ابن سنجاع محمد البارسلان فسار الى حلب واقترع عليها صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ولقى ملك الروم وهزمه فى معركة ملازكرد الفاصلة سنة ١٠٧٠ م . و ٤٦٣ - ٤٦٤ هـ واستولى عندها على جنوبى الاناضول وشمالى سورية ثم تقدمت جيوشه جنوبا ففتحت القدس والرملة وحضرت دمشق غير انه مات فى ربيع الاول من سنة ٤٦٥ هـ و ١٠٧٢ م . وقام بالامر بعده ابنه ملكشاه فاستولت جيوشه بقيادة اصغر اخوته تنهض على دمشق كما فتح آفسترا الموصل ثم قدم ملكشاه بنفسه الى حلب وسلمها الى هذا الاخبر وهاد هو الى بغداد فامتد حكمه سبع عشرة سنة وشهرا وكان بخطبه له من اقصى بلاد الترك فى الصين الى بلاد اليمن بيد انه ما كاد يلقى حتفه سنة ٤٨٥ هـ و ١٠٩٢ م . حتى تغير الموقف فى الشرق وتبدلت الطل غير الحال اذ قامت المنازعات بين اخوته وابنائهم فتمزقت وحدتهم وانقسمت الاسرة الى فروع ثلاثة - واحد فى بلاد العجم جت تبلى افرادهم واستجموا وآخر فى الاناضول

حيث رسخت قدمهم وثبت لغنهم اما الثالث فكانوا في سورية حيث استعربوا وتوطنوا . وكان القوام
تتد سبد سورية فقام بحاول بسط نفوذ على جميع الامراء وقد بلغ في حملته سنة ٤٨٢ هـ و ١٠٩٤ م .
شرقا مركز السلطنة نفسه غير ان السلطان بركيارق رده من حيث اتى واستخلص السلطنة لنفسه واحتفظ
تتد عندئذ بدمشق وحلب وحمص نائباً عنه في الرها ورواس الارمنى كما قب سلبمان بن ارشق على القدس
وهكذا قامت دولته حاجزاً بين السلاجقة في مدينة ^{قونية} الاناضول وبين الفاطميين في القاهرة من مصر .

وما ان توفي الله نبيته سنة ٤٨٨ هـ و ١٠٩٥ م . حتى خلفه ولداه رضوان ودقاق
في كل من حلب ودمشق اما في الجنوب فتقدم جنود الملك الافضل شاهنشاه وزير الفاطميين وطرد
الارمنيين من القدس سنة ٤٨٩ هـ و ١٠٩٦ م . وقد تم ذلك كله دون ان يعبره بركيارق اقل عنابة
او اهتمام بل اكتفى بان يعترف له ابناؤه نبيته بشي من النفوذ الاسوي غير انه ساند الامبريوطيا
في انتزاع الموصل من بني عقيل العرب ثم اقامه نائباً عنه في الغرب .

تلك كانت حالة المسلمين في الشرق خلال القرن الخامس الهجري او الحادي هو
الميلادي اما حالتهم في الغرب فلم تكن خيراً منها . اذ كانت خلافة الامويين في الاندلس قد هال مال
نجمها الى الافول وشرع النصارى الاسبان يزحفون من الشمال لاسترداد اراضيهم واخراج المسلمين
منها كما ان النورمان كانوا ايضا قد اخذوا في ١٠١٨ يزحفون الى كاتالونية لمظاهرة الاسبان هناك .
هذا فضلا عن ان كفة النصارى من الغرب ^{الفرنجة} في قلب البحر الايبي المتوسط اخذت ايضا في الرجحان
وجعلوا يستردون الجزر القريبة من ايطاليا فاستولى البيزنطيون على ^{كردية} مدينة في ١٠١٦ وبعد حرب امتدت
ثلاثين سنة ١٠٦٠ الى ١٠٩٠ استخلص النورمان من العرب صقلية . فليس عجبا ان يكون هذا وذاك
من مشجعات بوهمند وهو سليل هثولا لان بطمح الى تاسيس ملك له في الشرق او الغرب على حد
سواء . ولذلك نقرر ان حملات الفرنج على الشرق انما جاءت متممة لتلك التي سبقتها في الغرب وهذا
نفسه ما يقول به المؤرخ ابن الاثير صاحب الكامل . المرجع [ج ٢ ص ٨٨٢]

في تلك الآونة العصيبة من تاريخ المسلمين في آسيا واوروپا وصلت جموع الفرنج الزاحفة
من الغرب عن طريق البر والبحر الى القسطنطينية ولكن كان عليهم قبل ان يجتازوا المضيق الى الاناضول
ان يبعدوا شكوكا قامت في نفس الكسبر لدى رؤيته اباهم اذ وجد نفسه بين امرين اما ان يعثرهم
حلفاء قد توافدوا للتحاقد معه على قهر العدو المشترك ثم اقتسام ما ينتزعونهم بينهم بالسوية واما
ان يعتبرهم اتباعا فيكون له وحده الحق فيما يفتحون من ممتلكات العدو وعلى هذا الراس الاخير

استدرجهم الى ان يتعهدوا له بان كل ما يفتحونه من قديم مستلكاته فهو له وكل ما يسمح به لهم بملكوته باسمه فعادوا كانت النتيجة عندها نفتت في الصدور احقاد قديمة زادت في توسيع شدة الخلاف بين الكيسيين ان الشرق ظهر بمظهر المستبد فلا الامراء اصابوا ما كانوا يتوقعون ولا الابطاليون - ما عدا البندقية لما كان بينها وبين القسطنطينية من قبل - كانوا راضين عن سياسة التبصر الاحتكارية ، اضاف الى ذلك ان بقاء القوم في مستلكاتهم الجديدة كان في خطر ان ملوك الروم كانوا ينظرون الى اماره انطاكية مثلا التي اختص بوهمند نفسه بها رغم تعهده لأكسيوس - بعين الحسد ولم يتورعوا عن نُفْرة المسلمين في استردادهم اماره الرها من الفرنج فيما بعد ولعل الكسيوس كان مغدورا فيما ذهب اليه وذلك بسبب سوء تصرف القوم الى حد لم يستطع معه ان يرى فيهم شركاء له في حمل السلاح وهكذا نرى ان الروم والفرنج لم يكونوا على وفاق رغم ما كان يبدو عندهم من وحدة دنية وان اختلفوا مذ هبا وما ان تم الاتفاق بينهم وبين الكسيوس ولو ظاهرا حتى مشت طلائعهم في شهر ايار من سنة ١٠٩٧ الى الاناضول في مستلكات قلع ارسلان السلجوقي وفي اقل من شهر استطاعوا انتزاع نبقية من حاميبتها فتقدموا عندئذ الى سهل بوريلام *Burilam* حيث قضوا على جيش قلع ارسلان في واحد نموز فاسترد الكسيوس نصف ما كان قد انتزعه السلاجقة منه من قبل . ان كان عليه ان يواجههم ويصد اليهم وحده دون ما محونه بلقاها من حلاجقة الرواق او سورية .

فما كان من الفرنج الآن الا ان تركوا قلع ارسلان بطمئن الى عاصمته قونية في موقفها الحصين ونهبوا مرقا بجنوب الى كيليكيا حيث بقوم الارمن والرم على حراسة بعض المدن الامر الذي سهل مهمتهم فانتزعه " تنكرد " طرسوس ثم فيما كان الجيش الرئيسي يسير جنوبا الى انطاكية وعلى راسه بوهمند كان بوغدوين يسير شمالا بشرق ثم اتجه عند مرده الى الرها فلم يجد كبير عناء في فتحها وعليها كما راينا ذلك الارمني نوروز وفي اواخر تشرين الاول سنة ١٠٩٧ كانت جموع الفرنج قد وصلت الى جوار انطاكية وكان باعسيان صاحبها عندئذ على طريقة للاشتراك مع رضوان صاحب حلب بمباغنة جناح الدولة امير حمص وذلك لمناداته بنفسه مستقلا عن حلب فما ان سمع باعسيان باقترب الفرنج من اراضيه حتى عاد مسرعا الى مدينته التي كانوا قد سبقوه اليها واقاموا الحصار عليها من ١٢ تشرين الاول سنة ١٠٩٧ الى ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ذاق الفرنج خلالها الامرين ان ما كاد الشتاء يحل حتى فرسهم البرد وانتشرت بينهم الامراض وهضم الجوع بالرغم من تامين المراكب الراسية في السويدية ، مرقا ، انطاكية ، لاهاتنهم ومن مساعدة الارمن لهم ايضا . اما السلاجقة فبالرغم من تنازعههم المحلي قد ثابروا الى رشدهم واتفق كل من جناح الدولة وُقُفُاق على مظاهرة

بأغسيان لا سيما وقد علموا بان الفاطميين شرعوا بفاوضون الفرنج طمعا باستخلاص فلسطين منهم فهاجم الحلفاء موقعة الجيذ الفرنجو عند بلدة البارة فاجروا بذلك الزحف المبائر على المدينة وان لم يردوهم عنها نهائيا . بومعد اسبوعين او اكثر وصلت من احلب النجدات فصدّهم الفرنج عند بذرار وصارم . غير انه بعد اربعة اشهر اخرى من ذلك الحين غدر احد الارمن بأغسيان ودلّ بوهمند على منفذ سرى الى المدينة فدخلها رحاله في ٣ حزيران سنة ١٠٩٨ ومات بأغسيان فيما كان بطالب النحلة لدى علمه بسقوط المدينة . ولكن الفرنج ما اعتنوا ان راوا كربوغا ابر الموصال وقد وصل بغتة على رأس حيد كبير مقبم الدمار على انطاكية واستمر على ذلك لمدة ٢٥ يوما سقطت المدينة بعدها وبقيت الحامية في القلعة صامدة حتى اوشك القوم ان يصلوا الى اتفاق مع كربوغا غير ان هذا كان مكروها عند بعض فرقه كما ان الخلاف كان قد دب بين الرب والتوك في جيشه بسبب مكابد رضوان فاخذ الكثيرون يغادرون فرقههم . واما الفرنج فعادوهم الامل على اثر انه تورع على " الحرة المقدسة " وصدوا فسر مواضعهم مستبسلين حتى تمت لهم الكلبة . الخلبة

فلما استسلمت لهم الحامية بعد اسبوع ارتار القوتنا ببر الزحف على القدس حتى شهر تشرين الثاني علمهم يستريحون من طول ما احاسهم من الهناء ويستقلون مددا جديدا يخذون به صفوفهم بعد ما نزل فيها من الخسارة في الارواح بين الفرسان على الاخص . هذا مع ما قام بينهم من نزاع على قضبة انطاكية وما اذا كانوا يتخللون عنها للقبض على بيقونيا في عهد بوهمند . وفيما هم فسر نزاعهم ونرددهم كان بوهمند وتشارك به ملان على تقوية مراكزهما في كل من كملكية وانطاكية كما ان ريمون تقدم من البارة وانتزعهما اما غودفريد فكان يسعى الى تاسيس مركز اخره يخذون في منطقة تارباة رحيب قنبر كرجا من النصارى راخا غاديا بينها وبين انطاكية حسبما كانت تقتضيه الدار والمملكة

ولكن ما لبث القامران دب في القوم للتأخر عن الزحف على القدس مما جعل المتنازعين ينشق على صاغية امارة وبعد شهر من الحصار سقطت المدينة وكان في ذلك حل لمشكلة اجتمعت كلمة الاكثية على المسرح جنوبا فما كان من ريمون الا ان رشح وساروا جمعهم ما عدا بوهمند ان عاد هو الى انطاكية حيث ثبت قدمه .

وما ان سار ريمون مصعبا في وادي العاصر حتى وجد نفسه اما مقاومة ضعيفة ان فضل العرب في تلك المدن تقديم الموت لهم وروئسهم يسترون في زحفهم جنوبا على ان يفاوضوا او يردوا اراضيهم تتخرب .

فتقدمت اليهم وفود حمص وطرابلس وهم قد ساءلوا حصن الاكراد فكان في ذلك ما اوصى اليهم ناسيس كونيبة له تجاور انطاكية وتغوثها ولعل هذا الامر نفسه ^{او} اليه ان يحاصر عزة القائمة على طريق لبنان الشمالية على مسافة قليلة من الوادي الواصل بين حمص وحماة والساحل فغضب فيه ريمون حياهم في ١٤ شباط بعد مغادرته حصر الاكراد وما ان تقدم من طرطوس حتى غادرتها حاميتها مما جعل الفرنج يتخلون من جديد بالاساطيل البحرية ويتمنون فضلا عن انضمام قوى جديدة اليهم ثم اتخذوا السير على طول الساحل وحاصروا حيلة في طريقهم وهكذا اجتازوا سهل طرابلس ومضيق نهر الكلب دون اقل مقاومة وهكذا ظلوا حتى وصلوا الى فلسطين حيث مروا بعكا وحيفا وقسارية وارسون وما ان توغلوا قليلا ففسى الداخل حتى وصلوا الى مدينة الرملة فوجدوها وقد غادرتها الحامية فكانت هذه اولى ممتلكاتهم ففسى فلسطين فاقاموا فيها حامية وفي صباح ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ املت عليهم المدينة المقدسة وكانت حاميتها من الفاطميين تقدر بـ ١٠٠٠ رجل اما الفرنج فكانوا يتقدمون بما يقرب من ٤٠ الفا منهم عشرون الف مقاتل وبعد حصار دام اكثر من شهر سلمت الحامية في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ على ان يسمح لهم بالالتحاق بمسقلان سالين .

غير ان القوم نكثوا العهد واعملوا السيئ في رقاب المسلمين في مذبحه فظيعة جرت فيها الدماء في الدوار بل "خاضت فيها النخول حتى ركب الفرسان" وعند الذروب كان الفرنج قد نفقوا غل صدورهم فذهبوا يرفعون اكلهم الملطخة بالدماء في الصلاة الى الله شكرا على ما اولاهم من نعمة النصر على "الكفار" غير انهم ظلوا في خوف من الحيف المربط في مسقلان فما ان علموا ان المصريين يستعقون للكرة عليهم باغتوهم في الغرب من مسقلان وفازوا عليهم في ١٢ آب سنة ١٠٩٩ ثم كادوا بدخول المدينة لولا ان الخلاف بين ريمون وفود فريوا مما جعل المسلمين يتقون ويرفضون التسليم .

وما ان تسلم القوم "القدس" حتى اغرضتهم قضايا جديدة منها - الحكومة وشكلها ان برز عندئذ حزب الكنيسة بدعم ريمون لاقامة حكومة اميركية . ولما رفض هذا ترشيحهم له بدعوى انه لا ينيل تاحا في مدينة نالم فيها "السيد المسيح" تقدم للمنتصف غودفريد مونرا لقب "حامي القبر المقدس" على لقب "صاحب التاج" وبعد ايام شغلها احد ورع الدارين منصب نائب البابا فكان النائب الاول المنوفى .

غير ان هذه القضية عادت الى الظهور لنداء وفاة غودفريد ان ان يوهنند سيد انطاكية قد رشحه للتعصب حزبه وكان حزب الكنيسة هذا يفوز بامنيته لولا ان وصل بنديوس اخو غودفريد من الرها وتدخل مع حزبه في الامر وفاز بالتاج في سنة ١١٠٠ وعلى هذه الصورة تم تأسيس "ملكة القدس"

ولكن استمر النزاع بين الفكرتين (العلمانية والاكليركية) حتى سنة ١١٠٣ عندما فاز بغداديين بعزل نائب البابا ومع ان الخلاف بعث في عهد بغداديين الثاني (١١٢٨ - ١١٣٠) غير انه ختم بموت النائب البابوي الثالث وانتهت القضية بتغلب العلمانية على الاكليركية .

وهكذا دلت هذه القضية على مدى الخلاف في الحقيقة رغم دعوى قيام الوحدة الدينية . الا ان فوز الملكية لم يكن ضربة على الكنيسة فحسب بل كان كذلك على حزب بوهمند النورمانوي ايضا انه ان انطاكية لم تكن انا حسدا للقدس من الاكليركيين للعلمانيين . الم يكن بوهمند اكثر نفرا من غودفريد كما ان انطاكية اكثر خضيا من القدس نفسها ، لكن القدس بمركزها الديني كانت تجعل قلوب الآلاف تهوى اليها سنويا ثم وان لم يستنقروا جميعهم فيها فقد كان الكثيرون منهم يبقون وكان في ذلك مسيل دائم من الواقدين الذين كانوا يذرون جيوشها ويقدمون بحديد دهم فحموه الفرنج . ولا بد من الاشارة الى ان قضية العلمانيين والاكليركيين تدل على صحة ما ذهبا اليه سابقا من ان " الحروب الصليبية " كانت تنسبر بالصيغة الدينية فقط .

واما القضية الثانية فكان السحر وراء حماية " الملكة الجديدة " من الفاطميين مع العمل على توسيع رقعتها على حساب ما يحيا ورحل المدن والقرى وهذا هو ما اضطلم بسبه غودفريد وبعض خلفائه .

هذا مع العلم ان ذلك التوسع لم يكن الى الداخل لقلعة المحاربين من الفرنج ولتو دمنة وضعف القاهرة من جهة ثانية . ثم لو راء ان القدس ان تلتفت شرقا لتعذر عليها التوسيع لذلك كانت مضطرة لان تلتفت دائما الى الغرب وعلمه فيكون الفضل في توسعها يرجع الى الايطاليين واساطيلهم بينما الفرنج الواقدون عن طرفة آسية الصاري كانوا قلما يستطعون الوصول الى سورية بسبب قوة الملاحة ولاستكاف الروم من متابعة الحرب والقتال ايضا .

وكان بين الايطاليين الجنوبيين والبيزنطيين والبندقيين غير ان الجنوبيين كانوا اكثرهم اثرا في حياة " مملكة القدس " ولا عجب انه كان قد سبق للقسطنطينية ان منحت البندقيين بعض الامتيازات منذ سنة ١٠٨٠ م . هذا مع العلم ايضا ان البيزنطيين كانوا اشد انا انطاكية

بينما كان الجنوبيون حلفاء القدس وبموافقتهم استطاع بنغدوين الاول ان يقهزوا ارسون وقيسارية وعكا . لكن الجنوبيين قد ساعدوا ريمون في فتح حيفا سنة ١١٠٤ كما ساعدوا خلفه في فتح طرابلس سنة ١١٠٩ وكذلك فقد شدد ازر بنغدوين في سنة ١١١٠ ملك النوروج في فتح صيدا ولو ايام بنغدوين الثاني ظهرت البندقية القدس وذلك عندما رأت ان جمهورية البيزين في سنة ١١١١ قد نالت بعض الحقوق دونها من القسطنطينية وفي سنة ١١١٨ اضطرت ايضا الى ان تومي وحملها شطر القدس فقدم اسطول لها مؤلف من ١٢٠ مركبا في سنة ١١٢٣ وحّد هجوما للمصريين كما ساعد في فتح صور سنة ١١٢٤ . وكان ذلك مقابل السماح لها بالدخول الى فلسطين والتمتع بامتيازات وملاحيات عديدة ومع ان الامور اختلفت بينها ومن الزعم فقد حافظت على امتيازاتها في القدس وفي القسطنطينية ايضا .

وهكذا فقد اتسعت " مملكة القدس " حتى امتدت على طول الساحل من بيروت (١١١٠) الى الحريث على الحدود المصرية ومع هذا الامتداد جنوبا شمالا فلم تكن لتتسع شرقا الى ابعد من مقاطعة الاردن . اما في الشمال فكانت تحدها اماره دمشق .

لكن بنغدوين الاول استطاع ان يمتد في الجنوب الشرقي حتى ابلة على البحر الاحمر وصدا للمصريين في تلك الجهة انضم في سنة ١١١٦ قلعة الشويخ في مضيق الطريق بين ابلة والبحر الميت وفي سنة ١١٤٠ ايام الملك فلك قد اسبغ الى ذلك كله الاراسى الواقعة شرق البحر الميت حيث اقاموا قلعة الكرك .

وكان لهذه الفتوحات عوامل تجارية ان كانت تقع على الطريق العام للتجارة البحرية والبرية بين دمشق والقاهرة فيكون العاملان الاقتصادي والاستراتيجي قد تضافا على رفع " مملكة الفرنج " الى مركز السيادة في فلسطين .

غير ان القدس وممتلكاتها لم تكن في الحقيقة سوى النواة التي عليها مدار الامور في المقاطعات الفرنجية الثلاث - الرها وانطاكية وطرابلس - ان الاولى منها وقد تأسست سنة ١٠٩٨ من بلدوين الاول نفسه كانت بحكم الواقع تامة للقدس وقد حكمها بنغدوين الثاني قبل حكمه على القدس كتابه لبلدوين الاول من سنة ١١٠٠ - ١١١٨ ثم بعد ذلك تعاقبت على حكمها اميراتا باشر من اسرة جوسلان حتى فتحها زنكي سنة ١١٤٤ ولما كانت تقع الى الشرق

من الفرات مع انتمائها ببلاد الارمن وبالطرفة التجارية العام الممتد على مجرى الفرات حتى الرقة والمنحدر من ثم الى الاناكة ودمشق نقلا ولما كانت مقاطعة الرها تقوم في هذا الموقع كانت حباتنا قصيرة الامد .

اما المقاطعة الثانية - كونتين طرابلس - فقد وقعت تحت نفوذ القدس في عهد مسكر من تاريخها ومع انها قد اسسها رمعون ما بين ١١٠٢ - ١١٠٥ بمذاهرة الكبوس والانتفاخ مع الجنوبيين فانها لم تشمل على العاصمة حتى سنة ١١٠٩ وحتى قبل هذا الفتح اندلعت سبب ما قام فيها من نزاع بين ابن ريموند وابن اخيه على ورايتها - الو مساندة القدس لها ومساعدة الملك بن دوين الاول - فقام لها فتح العاصمة . وهكذا نرى ان كونتية طرابلس ايضا قد وقعت تحت نفوذ القدس منذ بدء تاريخها .

وفي تلك الاثناء - ايام حكم بلدوين الاول - كانت امارة انطكية - وعلى ادارتها اولا تنكرد ثم روجير بعد سفر بوهمند - مشغولة المدين بالمنازعات مع جيرانها المسيحيين في كل من طرابلس والرها ومع امراء ماردين والموصل من المسلمين . غير انها عند وفاة روجير سنة ١١١٩ دخلت تحت وصاية بلدوين الثاني ملك القدس حتى سنة ١١٢٦ عندما بلغ بوهمند الثاني من الزمان وكان بوهمند قد تزوج باحدى بنات بلدوين ولدى وفاته سنة ١١٣٠ غدا بلدوين الثاني للمرة الثالثة الوصي على السلطنة . فبمك اعدار الاناكة منذ ذلك الوقت مقاطعة تابعة للقدس . وعلى هذا استلزاما ان تعتبر عهد بلدوين الثاني في سنة ١١٣١ الوقت الذي فيه تم نشوء " المملكة اللاتينية " بحدودها الممتدة من بيروت في الشمال الى العريش وابلة في الجنوب وبضمها لمعاناتها الشمالية الثلاثة . وعندئذ قد تسيد امورها .

الا ان العوامل التي ساعدت الفرنج على تاسيس هذه المملكة بحدودها وملحقاتها فترجع بالدرجة الاولى الى ما اهدناه في سورية من نوع مباحية ومنازعات اقطاعية واختلافات جنسية ودينية . اضف الى كل ذلك ما كان السوريون انفسهم قد قدوع من شعور بالكرامة القومية لتعدد الحكام عليهم وكثرة ما لاقوه من عنف وعسف . هذا مع مساندة الروم والارمن للفرنج . اما القول بيسالنتهم فلا نستطيع رده اذ شهد لهم بذلك خصومهم انفسهم غير ان ما بدعيه سيقنع من تفوقهم بفنون الحرب والقتال . فنسبح لانفسنا ان نفقه منه موقف المردد بقوله ان صح الاخذ به بالاضافة الى الفاطميين وهم في اياك شيوخهم فضلا

نستطيع الاخذ به بالاغانة الى السلاجقة وقد كانوا في اوج مجدهم العسكري . وان ننسوا
فلسنا بتاسير ما قدم الابطاليون من مساعدات قيمة بفضل اساطيلهم بنقلها الحجاج والحنود
وتزويدهم بالاعانة والمؤن وغيرها من آلات الحصار ومواد البناء . واني لأرى من وحيى هذا
ان انقي من مجموع النصارى الوطنيين مهمة مهم جداً، اذ كثيراً ما انهمم بعض المعرضين بانهم
مدوا يد المساعدة للفرنج ضد مواليهم من المسلمين منذ ان اطا القوم على البلاد وانهم
فعلوا ذلك تحسباً للروابط الدينية . اما الحقيقة التي لا بد من ثباتها ان الارض - وهم من
النصارى كانوا اولا من طاهر الفرنج ولكنهم فعلوا ذلك بدافع قومي وحباً ببناء الاستقلال
لا بدافع التعصب الدينى وكذلك لم اقتضي مطالباتى على ما يبرهن لى ان مجموع طائفة من
الطاوائف في لبنان قد انضمت الى حموى الفرنج وان اكن قد وفقت على ما بوضوح بصراحة ان بعضا
من الموارنة والمسلمين قد انضموا الى القوم بعد تغلبهم به امل الارتزاق ليس الا . كما ان
الفرنج قد استطاعوا في ابان سلطانهم ان يخربوا البعض للتحند عندهم وتاليف ما قرؤوه بالفرق
الحليفة حتى تسير تلك الفرق في القتال على النظام المعروف اذ ذاك في البلاد .

تلك كانت كثرة العوامل التي مكنت الفرنج من التغلب على اهل البلاد
والفوز بتاسير ملك لهم في تلك السرعة وذلك بسر . ولير في اعتقادنا من الاهمية بمكان
ان يستطيع القوم ذلك فحسب بل ما هو اهم منه قدرتهم على المحافظة عليه والاستمرار فيه
طويلا . وهذا ما نحس ان ندرسه ونضع بين يدي القارى ما توصلنا اليه من نتائج .

لا بد لكل دولة تأسست من طرية النزوالفهم ورفعت في الاحتفاظ بكيانها
فضلا من توسعها وتقدمها مهما اتسعت رفعتها او ضاقت نفول لا بد لنا هذه الدولة مسن
انظمة داخلية تدعيمها بمؤسسات مدعية تشد اجزاها وتربط اقسامها بعضها ببعض بل ومن
قوة مسلحة تدعيمها من غارات الغير وتعد عنها المعددين .

فلنتنظر كم استطاء الفرنج - وقد اناموا لانفسهم في حزم من سوربة خلال
ثلاثين سنة او اقل " دولة لانيبة " تكونت من " مملكة القدس " ومقاطعة الرها " وامارة انطاكية
وكونقة طرابلس حتى شملت اراضيها الساحل السوري باجمعه مع تبسط قلبا الى الداخل في الشمال
والجنوب - ان يحتفظوا بها . ولكي نقتطع على الحقيقة قبل ان نفرها بجدر بنا ان ندرسه اولا

حالتها الداخلية في انتمائها الادارية والقضائية والمالية وثانيا مكانتها الخارجية في قوة جيشها ومختلف فرقها .

واذا توجهنا الى التاريخ بهذا السؤال " الى اى حد استطاع الفرنج الاحتفاظ بدولتهم في الشرق خلافا " الحروب الصليبية " الفناء بحبيتنا على الفور بقوله " الى امد قصير " وذلك لاسباب داخلية وعوامل خارجية تضافرت معا على اهلاكها قبل ان تفرغت للعمل على توسعها والاخذ باسباب التقدم .

اما الاسباب الداخلية لذلك فتتلخص فيما يلي -

(١) - ان انقسام الدولة الى اربع وحدات سياسية هي - مملكة القدس ومقاطعة

الرها ، وامارة انطاكية وكونتة طرابلس كان وحده عائقا هاما ، طرقة تقدمها ودد اجزائها وربط اقسامها ببعضها ببعض . واذا ما ذكرنا ان هذه الوحدات كانت تتألف ايضا من عناصر مختلفة وان امورها كانت في ابدى زعما متنازعين ، ادركنا كم كان في هذا وذاك من اسباب ناعية للتناحر والتباغض . الم تكن الرها والقدس تمان بالنسب الى البوغنديين بينما كانت انطاكية نورمانية الاصل وطرابلس بروفسية الدم . ثم ان الخلاف الذي نشب بين الزعما المؤسسين قد انحل بعدهم بالخلفاء ايضا كان ذلك سببا رئيسا في فشلهم وعدم تعاونهم وهم في ارجح الاوقات من تاريخهم فضلا عن انشغال بعضهم الحسام احبانا وقتالهم بعضهم بعضا بل وقد اشد الآخرين مع المسلمين احبانا اخرى .

(٢) ثم ان قلة عدد المقيمين من الفرنج في سورية بالاضافة الى سكانها من المسلمين

وغیرهم مع ما كان بين اولئك من الخلاف والفرقة وهشولا من الولاة والوحدات كان عاملا هاما اخر في هدم تلك الدولة . فان عدد الوافدين منهم قد بالغ المؤرخون الاوان فيه كثيرا مع ان الذين غادر منهم اوطانهم فعلا لم يصل منهم الا عدد ضئيل الى سورية ولقدلوا منهم نواتوا في الدرة جدا . وعليه فيكون سكان " الدولة اللاتينية " من الفرنج مع من كان بينهم من الزرباء ومن المسلمين اقل من القوى المهاجمة لهم والتي كانت اكثر منهم تماسكا واتحادا .

(٣) - واذا ما اشرقنا الى هذا اوناك ما كان منهم ومن الروم من مشايخنا - احبانا

ندرا مبلغ ما كان لذلك من بعد الانرؤسوا العاقبة . لهذه الاسباب عقب الوقت القصير الذي فيه

أحرزوا ذلك الفوز السريع وقت أطول اضاعوه في المشاحنات والمنازعات بينما استفاد منه المسلمون باستعادة نشاطهم واسترداد وحدتهم .

(١) - ولم يكن ذلك وحده من عوامل "فتحت في عضو" الدولة اللاتينية " من الداخل بل كان هناك ما هو شر منه ومعنى به حالة كل من تلك الوحدات الأربع نفسها فلو أخذنا "ملكة القدير" ودرسنا مكانة الملك فيها من اتباعه "البارونات" لوحدناه بحكم القانون كأحد هم وان من "سوء" كان يميزه عنهم فهو اجتماعهم على اختياره رئيسا عليهم كما كان الحال مع غوفريد وبنودون الأول لكن اعتلاء الدوق ما لبث ان أصبح وراثيا فكان للمسلم الأعلى ان يتدخل فيما كان يفر من اختلاف على وراثته . ولرب هذا فقام ما كان هذا النظام بسوء للورث اذا كان انشئ ان تنال الثا لزوجها وفي ذلك ايضا من اسباب الخلاف ما زاد في حالة الدولة سوءا علم سوء . لذلك نقرر مع *Barrow* ان الاسباب لانحلال الدولة سنة ١١٨٧ لا يبعد ان تكون قد تسبعت بسبب تلك الحفنة وما نجم عنها من الاختلافات والمنازعات " (ص ٣٩) *The Conquest* وإذا الكفينا الي النظام العسكري في "الدولة اللاتينية" راسنا حظ الملك منه كحظه من نظام الحكم ان كان عليه ان يدفع للمتجندين من اعداء الاقليات حولا وان يقدم لهم الخيل ايضا والا استنكفوا من القتال واخرى عن الحاجة به في الغارات والمعارك وهناك غير هؤلاء من الفرقة كجماعة المرتزقة هم لم يكن لهم قطائع ارضية يستلمونها من الما ما يتقاضون من الملك اعطيات معينة . وكذلك فرق "الفرسان" الخفيفة المؤلفة من النورمن والمسلمين وكانت في قتالها تسمى على الدوام الدروب في الكر والفر كما ان "الفاة" كانوا من الارما اما رماة النشاب فكانوا من "الموارنة" .

انتم الى تلك الفرقة منظمين "الستارية" "والداوية" وفرسانهم وكانوا جميعهم يرحلون الى رؤسائهم المستقلين بامورهم كاستقلال أميرى انطاكية وماربلس ثم ان مجموع هذه الفرقة كلها لم يكن يزيد عن ٢٥,٠٠٠ بل لعل قوة المملكة كانت تستند في الدفاء عن المدن الى الحصون والقلاع التي بناها "الستارية" "والداوية" انتم من الى قوة الجيش وقرته . ولا محب فان بقايا تلك الحصون والقلاع ما زالت ماثلة وهي ما اهد على ما كان لها من اثر في الذود عن المملكة .

ثم ان الكبرخلاف في نظام الدولة كان الملك والحكومة يعانسان من جرائم الامرين فقد انها نظاما ماليا ثانيا . اذ مع ان دخل الملك - من الضرائب المفروضة على القوافل التجارية والمكوير الجمركية في المرافىء ومن ارباحه من الاحتكارات ورسم المحاكم وضريبة الراس (الحزبة) على اليهود والمسلمين والتعويضات الحربية من الدول الاسلامية - كان ضخما . غير ان مصاريفه كانت ايضا ضخمة الى حد يمزج معه تحت عبثها بالرغم مما كان يتناوله من مساعدات مالية يقدمها له ملوك اوربية بدلا من اشتراكهم في " الصليبيات " وما كان يغمه هو من الغزوات التي كان يقفها على البلاد الاسبوية المجاورة . وقد كان دائما في اضطراب مالي اذ كان ينقصه نظام للضرائب الوطنية كالتي حاولوا فرضها فقط في سنة ١١٨٣ والتي كان يحاول دون ولا حبايتها امتيازات التجار والكهنة . وبقيت الكنيسة تملك الاراضي الجديدة مع رفضها المساهمة في الدفاع عن المملكة مع انها كانت تنفاسي حصتها كاملة من العشر على كل فرع من ايراداتها ولو كان ذلك من غنائم الحرب . وبالرغم من انها كانت اغنى المؤسسات في الدولة فقد كانت ماعفائها من الرسم تساهم بطريقة غير مبادرة في تفويت دوائرها . ولعل من المثلثي " المشاركة " و " الداية " التابعة لها كاننا من اخطر شي على حياة المملكة .

وكذلك لم يكن النظام القضائي في " الدولة اللاتينية " باقل تعقدا وباتناثا واضرا في الدولة من الانظمة السابقة الذكر اذ كان في القدير محكمان اثنين - الاولى المحكمة العليا تقضى بين المتنازعين من الاشراف او بينهم وبين الملك ، والثانية تقضى بين المتخاصمين من عامة الفرنج المدنيين وكان من صلاحياتها النظر في الحرائم ايضا . الا ان كلنا المحكمين كاننا نعتد ان في حكمها على الحرف اذ لم تكن الشريعة مدونة . ولم يكن ضرر التنازاع من ضرر الاشراف ورجال الدين في هذا النظام اذ كانوا على الاغلب عديدين وانتماء مما جعلهم في حسم الدولة وحدة قوية مستقلة بامورها الاجتماعية والسياسية بل والقضائية وفي ذلك ما فيه من عرقلة لسير الدولة وتقدمها .

وما كان يسود في " مملكة القدير " من المحاكم بفضل هذا النظام كان يسود مثله في

في كات. مقاطعة ايضا - فمحكمة للاشراف واخرى للمدنيين النصارى فضلا عن محكمين آخرين احداها في المدن التجارية الكبرى وتابعتها محكمة " السلسلة " في المرافى . وكانت الاولى تنال من اربعة سوريين واثنين من الفرنج وكانت تنظر في القضايا التجارية المتعلقة بالسوريين والثانية (من ايام الملوك سنة ١١٦٢ - ١١٧٤) كانت تنظر في قضايا التجارة وكانت كسابقتها تنال من رئيس ومعاونيه . وكان هناك محكمة اخرى مستقلة عن كل ما ذكر ونعني بالابطاليين في كل مدينة تحت ادارة قناصلهم وكان من حقها النظر في جميع القضايا العادية عدا ما كان منها يتعد بحريمة القتل والسرقة او الاحتيا . ولما كانت هذه المحاكم تدخل في دائرة الاعفاء من الرسوم والواجبات المالية كان ذلك مضرًا بمصلحة الدولة . وكان للكنيسة ايضا محاكمها الخاصة لتتألف في جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية وباملاكها وكانت هي ايضا تعفى من جميع الرسوم والواجبات .

ولعله من المفيد ان نذكر هنا ايضا ان " الدولة اللاتينية " لم تكن لتشكل النقص في التجهاز الحكومي فحسب بل كانت تعاني تدهورا في الاخلاق ايضا مما حمل محمود القوة الحاكمة بالانحفاة الى الحكومتين فتمثال ميمرا فديشا حتى عززت عن الشؤون نفسها .

تلك بعض العواما الداخلية التي كانت تنخر في جسم " الدولة اللاتينية " فما كانت الاسباب الخارجية تنضاف للقضا عليها نهائيا . اما هذه الاسباب فتتمثل في هجوم المسلمين المعاكرو **وَقَدْ** بدأ فعلا بامتلاك عماد الدين زنكي للموصل سنة ١١٢٧ . غير ان عام سنة ١١١٠ يشكل في الحقيقة نقطة التحول في تاريخ هذه الحروب او دور الانتكاس بالانحفاة الى الفرنج والانتماعش باعتبار المسلمين انه فيه سرع هتولا في الشاسك والارتباط حتى استعادوا وحدتهم من جديد .

وكان مصدر تلك البقطة في الجزيرة العليا من ارغما بين النهرين حيث تبلورت فكرة الجهاد والاستشهاد في سبيل استرجاع البلاد الدامية من مغتصبها واجلائهم عنها نهائيا .

(١) كلمة الفقه كلاً ما نوا يسمى

ولعل الفضل في ذلك يعود الى حد بعيد لمدينة طرابلس ان صعدت
طويلا وصبرت صبرا جميلا ولا تعجب فقد كانت من " اعظم بلاد الاسلام واكثرها تحملا
وثروة (الكامل ج ١٠ ص ١٢٢) ويعود شيء من ذلك الفضل لصاحبها فخر الملك
ابي علي بن عامر الذي " ظهر منه صبر عظيم وشجاعة وراى سديد " (نفسه ص ١٢٣)
في الدفاع عنها حتى اذا كان عام ١١٠٨ وقد شعر بما لم يعد له به احتمال
توجه الى بغداد يستنجد بالسلطان فوعده خيرا لكنه عاد في سنة ١١٠٩
عندما سقطت المدينة فحدد طلبه للنجدة وحدف ان استقرت اماره الموصل
لشرف الدولة مودود سنة ٥٠١ هـ . رحل الساعة ان ذلك فاستطاع بموافقة
اخيه السلطان محمد بن ملكشاه وتشجيعه ان يبعث في نفوس المسلمين الحماسة
الدينية ويهيب بهم الى الجهاد . وظل مدة اربع سنين لا تفتر له همة عن
التبليغ بما ندب نفسه له حتى توفاه الله بعد ان ترك من بعده وصفا لخلفائه
بوجود المناورة على الجهاد ، وان ما عرف عن خلفائه من عزم اكيد في الاستمرار على
القتال قد دفع بامراء الجزيرة الفراتية لان يتابعوا عملا بداء مودود ونحو عليه
الامير الغازي بن ارتق صاحب ماردين حتى كانت نتيجة حملاته باين سنة ١١٨ -
١١٢٣ ان ضم الى ممتلكاته مدينة حلب ومكانها . وهكذا فان الحركة التي
احمزت على " دولة اللاتين " كان مبعثها من الموصل وماردين .

وكان في ^{بشيء} حقيق مودود تركي آخر من فرسانهم المعدودين والشهود لهم
بالشجاعة وجودة الراي وحسن القيادة كما عرف فيما بعد بغبط ما ولبه ايضا بحنكة
وكفاءة ونعني به عماد الدين زنكي فقد ارتفع له صيت في ارض الجزيرة وهلا له
فيها قدر حتى اذا ما كانت سنة ٥٢١ هـ و ١١٢٧ م . وقد شمرت آفئدة اماره
الموصل من سيد بدير امرها بوفاء صاحبها ابن آسنغر البرسنق وورثته لم يكن
خيرا من عماد الدين لها فولاه السلطان البلاد كلها وكان لزنكي هذا في الدولة
راى حصف دل على مبلغ تفهمه بلامور تفهما صحيحا ان كان يقول - " ان البلاد
كبستان عليه سباج ، فمن هو خارج السباج بهاب الدخول ، فاذا خرج منها من
بدل على عودنها ويطمع العدو فيها زالت الهبة ونطرق الخصم اليها " . ولما

كانت بلاده * بحد : بها الاعداء وكلهم يقصدوا ويريدون اخذها واختلطت
ولاباتهم بولابته من كل جهاتها * لم يكن لبقته بحفظها بل كان لا ينقض عليه
عام حتى يفتح من بلادهم وظل يقصد هذا مرة وذاك مرة اخرى وباخذ من هذا وبصانع
ذاك الى ان ملك من كل من يليه طرفا من بلاده . ولما رأى ان بلاده قد اصبحت
كبستان عليه سباح وان كل من هو خارج السباح هاب الدخول ادرك ان الوقت
قد خان للانقضاض على فرسته * الرها * فاخذ يوم القوم من الفرنج افضه لا يقصدهم
وانه في شغل * اغل عنهم في ديار بكر حتى اذا أكد له عيونهم ان جوسلان امير
الرها قد جازت عليه الحيلة واعلم ان حتى قارة المدينة وهير الفرات غربا بلغت
القوم في ٦ جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ و ٢٣ كانون الاول سنة ١١٤٤ م . وقاتلها
ثمانية وعشرين يوما وما زالا يضيق عليها الخناق حتى اخذها * عنوة وقهرا * ثم
تسلم مدينة سروج وسائر ما كان من البلاد بيد الفرنج شرقى الفرات ما عدا
البيرة . وبذلك يكون قد سدد غزوة من اولى الغزوات التي قضت على دولة اللاتين
في بلادنا .

ويرجع بعثر الفضل في ذلك الفوز الى تفكك الفرنج وعدم الاتفاق بينهم
اذ كان جوسلان في نزاع مع انطاكية كما كانت القدس بعيدة عن مركز القتال ومع
انها ارسلت المدد فلم يصل الا بعد فوات الوقت (ستافانسون^{من} ص ١٤٩ - ١٥٠)
وبهذا الفتح تم الاتصال بين حلب والجزيرة العليا كما اصبحت هذه تواجه عدوها
مع اطمئنانها الى موخرتها وسرعت حلب فوق ذلك تحديق بارانسي اللاتين بعد ان
كانت هي معهم في حصار دائم تقريبا (ص ١٥٣) .

اما قول بعضهم ان عماد الدين لم يكن ليهتم لامر الجهاد قدر اهتمامه
لتوسيع رقعة ولايته فمردود اذ انه كان يرمى من كل غزواته وفتوحاته الى جمع
ولايته * بلادا كبستان عليه سباح * وما ثبت ما نوافق ابن الانبر على
تقريره ويدحض دعوى غروسيه وسواه من مؤرخي الغرب امثال ستافانسون قوله^{من} :
* . . . * واما انا فاذا اخذت الثلثين كان قليلا لما انا بعدده من قصد اعداء الجهاد
وزولواي لطال عليك ان تشرب الماء آمنا في مارددين ولكان الفرنج ملكوها * ص ١١٤ (الترجمة)

فبران سقوط " الرها " قد انار في اوربة موجة من الغضب مشوب
بغزوهم مما اهاب ببعبر رجالهم الى القيام بدعوة الى " صليبية جديدة " .
ولكن هيبات ابن القوم اليوم منهم بالامر ، فلم يكن لدعوتهم الا القليل من الصدى
وبالرغم من ذلك التحول فقد استطاع هؤلاء اخراج ملك فرنسة لويس السابع
وامبراطور الجرمان كونراد الثالث .

الا ان وصولهما الى بلاد الشام كان في ربيع سنة ٥٤٣ هـ و ١١٤٨ م .
في حين كان التفاهم بينهم معدوما كما كان الامر بين الفرنج الشام ايضا . لذلك
اخذا بنساء لان ابن بجبان نجه حملتهما الى نور الدين بن زنكي وخليفته
في حلب الى ان روي دمشق . ولكن القدس ما عنت ان اوقعتهما اذ اتعنهما
بوجوب العمل ضد دمشق . وهكذا ظلت طرابلس وانطاكية بعيدتين من ضم
جهودهما الى الحملة .

وما ان نوافدت قوى الالمان والفرنسيين الى طبرية حيث اجتمعوا بفرنج
الشام حتى اتجهوا جميعهم نحو دمشق واقاموا عليها الحصار في صفر ربيع الاول
سنة ٥٤٣ هـ و ٢٤ تموز سنة ١١٤٨ م . فخرج اليهم اهل المدينة والعسكر
فقاتلهم وصبروا لهم في معركة البترب على نحو نصف فرسخ من دمشق فقوى الفرنج
وضعف المسلمون . عندها تقدم الاميلوالامرا طور حتى نزل في الميدان الاخضر
فخسر الفاران بطل المدينة غيران معين الدين كان قد ارسل الى سيف
الدين غازي بن زنكي بدعوه الى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فما كان من
هذا الا ان قدم الى الشام مستحيا معه اخاه نور الدين محمودا من حلب
فنزلوا في حمص وارسل الى معين الدين بخبره بحضوره مع كل من يقوى على
حمل السلاح من بلاده ويطلب اليه ان يسهل لنوابه دخول المدينة حتى اذا
انهزم دخلها هو وهكرو واجتمعوا بها وقد أكد له انه ليس له في ذلك اي
مطمح اقليمي . ثم ارسل الى الفرنج بنهدهم ان لم يرحلوا عن المدينة فلم يطل بهم
الامر حتى كفوا عن القتال خوفا من الهزيمة اولا ومن ان يضطروا الى قتال سيف الدين
ثانيا . فابقوا على انفسهم وقوى بذلك اهل دمشق على حفظها واستراحوا من متاعه
القتال غير ان معين الدين آنر لم يكن لبضع الفرصة فقام بدوره بفاوض الفرنج الغرابة

بخوفهم بسيف الدين وعلمهم بحضوره لتحدثه . وانه ان لم يرحلوا عن دمشق
انظر هو الى تسليمها اليه . حينئذ يندمون ولا تساعة مندم . ثم ارسل السور
فرنج الشام بعدهم ويتوعددهم ان هم استمروا في مساعدة هؤلاء . ويقوا لهم . انكم
لتعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بآيديكم من البلاد الساحلية وانه ان شعر هو
بآء عجزهم حفظها سلمها الى سيف الدين . وعندئذ لا يبقى لهم معه مقام في الشام .
فاحابوه الى التخلي عن الاوروبيين واجتمعوا الى الامبراطور والملك وخوفوهم من
سيف الدين وكثرة عساكره مع تنابح الامداد اليه . وانهم ربما ملئوا دمشق وضعفوا هم
عن مقاومتها . وما زالوا بهما حتى رحلوا بعساكرهم عن المدينة فتسلموا هم قلعة بايناس
من أثر كما كان وعدهم وارتدوا من حيث اتوا . (الكامل ج ١١ ص ٥٨-٥٩)

وهكذا انكفت الغمة عن الدمشقيين ونجت مدينتهم من خطر تهديدها
مدة من الزمن . وكاد الحظ بخونها فكان في ذلك فوز كبير للبلاد واهلها اذ انهم اى
المسلمين تقوا وضعف مركز الفرنج لا سيما بعد ان تعلم الاوروبيون وجوب نزع ثقتهم
من الفرنج المقيمين وعدم المبالاة بهم . واذا ذكرنا ان الفوز لم يكن فوزا عسكريا بقدر ما
ما كان فوزا سياسيا ادركنا ان اوروبا لم بعد نرى . ولو ان حين . ان تمد يد المساعدة
لهم . وبهذا اصبح المسلمون وليس لهم من خصم سوى فرنج الشام وقد ظهر ذلك
حالا فلا حنود حضرت ولا مساعدات مالية وصلت با ولا حجاج وفدت واصبحت العرب مع
نور الدين دون ان يلقى القوم نجدة ما من الخارج .

ولئن كانت ضربة زلزال في الرها موجعة فان لعبة معين الدين
في دمشق لم تكن اقل انرا طبيا من هذه الوجهة . ومن نتائجها انها فتحت المجال
امام نور الدين لان بهاجم انطاكية وينفره بعدها الي انعام الفتح في مقاطعة الرها وحلى
القو عنها . ففتح كل ما وقع منها في الغرب كتل با . سنة ٥٤٥ هـ . و ١١٥٠ م . كما انه
كان قد هزم ريموند سيد انطاكية وقتله سنة ٥٤٤ هـ . و ١١٤٩ م . بعد ان تسلم
عدة مدن في شرق امارته . اما بغدوين الثالث ملك القدر فقد حاول ان يستفيد من
تلك الحال فسعى الى التقرب تارة من دمشق واخرى من القسطنطينية وبالفعل فقد ساد
حسن التفاهم بين القدر والقسطنطينية طوال عهدي بغدوين واخيه امري بفضل ما

تبادل البشتان من النساء عن طريق الزواج الامر الذى جعل الفرنج يصعدون فى وجه نور الدين . الا ان النزاع الداخلى بين افراد الاسرة المالكة من الفرنج ظل سائدا بينما كان المسلمون يشددون الخناق تدريجيا عليهم من الشمال والجنوب اذ ان نور الدين كان يسعى — شأن من شأنه من ابطال المسلمين — الى الاحاطة ببلاد الافرنج ووضعها بين راسى الكمان . وبالفعل فقد سقطت دمشق سنة ٥٤٩ هـ و ١١٥٤ م . فى يده وانضمت بذلك الى بقية البلاد وخسرت عندها مملكة القدس اكبر صديق لها كما فتحت الطريق الى مصر .

الا ان بلدوين كان قد سبق له ان انتزع من الفاطميين عسقلان سنة ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م . بعد ان صمدت فى وجه الافرنج خمسين سنة وهكذا نوهم انه قد اصبح الطريق مفتوحا امامه الى القاهرة .

اما الحالة الداخلية فى مصر فكانت من الفلق والاضطراب بحيث طمع بها كل من دمشق والقدس اذ ما كاد طلائع بن رزك وزير العاصم فيها يقضى نحبه فى ايلول سنة ٥٥٧ هـ و ١١٦١ م . حتى خلفه ابنه الملك العادل وارسل بعزل شاور امير الصعيد بالرغم من كفايته ومكانته . فما كان من هذا الا ان زحف على القاهرة فانهمز الملك العادل منها ونسب اورمائه فى صفر سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٦ م . غير ان طامعا حديدا باسم خروغام جمع جموعا ونازع شاور الامر فانهمز منه الى الشام حيث اتحا الى نور الدين فى دمشق فى ربيع الاول سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . وطلب اليه ان يحجزه بالعساكر ليسترحم منصبه على ان يكون له ثلث دخل مصر عدا ارزاق العساكر ويبقى له نائب يقيم بحنوده فى مصر . فانتدب نور الدين لذلك اسد الدين شيركوه منحجز وسار معه شاور فى حمادى الاولى سنة ٥٥٩ هـ و ١١٦٣ م . بينما اتجه نور الدين الى اطراف بلاد الفرنج مما ملو دمشق بعساكره منعا للقوم من التعمد لاسد الدين وحملته .

ولما وصل اسد الدين الى مدينة بلبيس من ارض مصر انهمز امامه ناصر الدين اخو خروغام فنقدم الى القاهرة ودخلها فخانرا فخلع على شاور ^{الزكي} واعيد الى الوزارة واقام اسد الدين بظاهر القاهرة غير ان شاور غدر به ونكث عهده وارسل اليه بامر بالعودة الى الشام فامتنع وطلبه بتنفيذ ما كان استقر بينهما من شروط فلم يحبه شاور الى ذلك

هندها امر نوابه تسلم مدينة بليسر والقنصر على ائمة الامور في البلاد الشرقية فارسل
شاور الي الفرنج يستمد هم ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر فكان لهم في ذلك
ما لم يحتسبوه وسار امرى الى تلبية الدعوة .

وكان قد وصل آنشد الى الساحل الشامى جمع غفير من نصارى الفرنج
لزبارة القدس لاستئذان بهم الفرنج الساحلية فاعانوه ونوجه بعضهم معهم واقام الآخرون
في البلاد لحفلها . فلما قارب القوم مصر قصد اسد الدين بليسر واقام بها هو
وعسكره وجعلها له ظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوه ببليسر
وحصروه بها ثلاثة اشهر وهو ممتنع بها يقاتلهم القتال ويروحهم فلم يبلغوا منه وطرا .
وفيما هم كذلك اناهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وتملك نور الدين لها ومسيره الي
بانياس فاستطاع في ايديهم فراسلوا اسد الدين بالصلح وطلبوا اليه مفارقة مصر وتسليم
ما بيده منها الي المصريين فاحابهم الي ذلك انه لم يكن قد علم بفهر نور الدين
للفرنج في الشام واستغلائه علو حارم فضلا عن ان الاتوا والذخائر قلت لديه
فخرج في ذي الحجة سنة ٥٥٣ هـ و ١١٦٣ م وعادوا هم الي الشام ليدركوا بانياس
فلم يملوا الا وقد ملكها نور الدين وعاد منها الي دمشق .

غير ان اسد الدين ظل بعد رجوعه الي الشام يتحدث عن مصر
ونفسه تستحقه السبا فاقب نور الدين براه فحجزه في سنة ٥٦٢ هـ و ١١٦٧ م .
بحيد قوي وسير معه جماعة من الامراء بينهم ابن اخيه صلاح الدين بلغت عدتهم الفى
قارب . فلما احتمه العسكر سار الي مصر برا فوصلها وعبر النما الي الجانب الغربي
ونزل بالبحيزة مناما القاهرة ونصرا في البلاد الغربية وحكم عليها واقام ثغرا وخمسين يوما .
اما شاور فلما بلغه دخول اسد الدين الي مصر ارسل الي الفرنج
بستحثهم فوافوه على " الصعب والذلول " طمعا في ملكها وخوفا عليها من اسد الدين .
غير ان هذا عاجلهم وهزمهم مع المصريين وتقدم بدها الي ثغرا الاسكندرية فتسلمها
مساعدة من اهلها واستجاب بها صلاح الدين وعاد هذا الي الصعب . ولكن المصريين
والفرنج عادوا فاجتمعوا علو القاهرة واصلحوا حال عسكرهم وساروا الي اسكندرية فحاصروا
صلاح الدين بها غير ان اهلها سبوا حتى عاد اسد الدين من الصعب اليهم فاعلم

القوم به حتى خافوا وارسلوا يطلبون الصلح فاحاسهم اليه وشرط على الفرنج ان لا يقيموا بالبلاد ولا يملكوا فيها قرية واحدة فاذعنوا واسطلحوا وعادوا الى الشام ونسلم المصريون الاسكندرية في نصف شوال ورحل مبركوه الى دمشق في الثامن عشر من ذي القعدة . غير ان الفرنج كان قد استقر بينهم وبين المصريين ان يكون لهم حصنة في القاهرة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من اغتاز عسكر اليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار . هذا كله استقر مع ماور اما العاخذ فلم يكن له معه حكم وعاد الفرنج الى بلادهم في الساحل الشام وتروكوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم .

وفي ربيع سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٨ م . زاد طمع من كان منهم في مصر فراوا ان ليس في البلاد من يرددهم عنها فارسلوا الى امري ، ملكهم في القدر يستدعون له لملكها وقد هونوا عليه امرها وحملوه على السير اليهم . فلما سمع نور الدين بالخبر رآه هو ايضا بحمى عساكره وامرهم بالقدوم عليه فجدد الفرنج في السير الى مصر خو قدموها ونازلوا بلبس وملكوا قهرا بمسحتها صفر سنة ٥٦٣ هـ و ١١٦٧ م . ثم ساروا منها الى القاهرة وحاصروها فخاض النام منهم ان يفعلوا بهم ما فعلوه باهل بلبس فحملهم ذلك على الامتناء فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في شططه حتى خاض بهم الامر وارسل الخليفة العاخذ الى نور الدين يستغيث . فامر اسد الدين ان يسر الى القاهرة فوصلها في ٧ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ م . فوجد الفرنج وقد رحلوا عنها الى بلادهم خائبين مما املوه فاحتنع بالعاخذ لدين الله فدخل عليه وفر به الى مصر . غير ان اسد الدين لم يظا به الامر حتى توفاه الله في ٢٢ من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ و ١١٦٩ فكانه ولايته شهرين وخمسة ايام فارسا العاخذ الى صلاح الدين وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وتبين قدمه وهونائس من نور الدين فاستمال قلوب الناس وبذا الاموال فمالوا اليه واحبوه وضعف امر العاخذ ثم ارسل بطل من نور الدين ان يرسل اليه اخوته واهله ففعل وشرط عليهم طاعته والقيام بامره ومساعدته فاخذ اقطاعات الامراء المصريين فاعطاها اهلهم وامراءه الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطلاقة غير ان هذه السياسة منه قد استفزت

المصريين وراحوا يناوضون الفرنج باستعدادهم للقيام بنصرة بمساعدتهم غير ان صلاح الدين علم بامر وقضى على الفكرة في مهدها واهمل امر العاصد حتى اصبح وليس له من الامر شيء .

هذا وان الفرنج لما ابغضوا بالهلال لدى تلك شبركوه مصر راحوا يستنفزون حمية الروم عليهم يتعاونون معا على انتزاعها من الانراة فلبى هؤلاء انداءهم وجهزوا اسطولا من مائتي سفينة وواضعوا للنزول على دمياط فارسا صلاح الدين العساكر في النبل وكتب الى نور الدين بالامر فسير هذا بدوره الجموع كما توجه هو ايضا الى ديار الفرنج فلما غار عليها واستباحها ووصلت الغارات اليه ما لم تكن تبلغه من قبل لخلو البلاد من مانع يمنعها فلما ايقن الفرنج انهم اصبحوا بين نارين رجعوا خائبين كما وجدوا بلادهم خرابا واهلها بين ثيل واسير وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما اظهر فيها صلاح الدين من حسن القيادة والدراسة ما سجله له التاريخ بالحمد والتناء كما اخرج العاصد من المال ما لا يعد ولا يحصى . ورأى الفرنج والروم يتناوون فاندلج امرى بعدها الى الاكتفاء بالمحافظة على ما تبقى له من بلاده في الشام ونشئت قدم صلاح الدين في مصر فقام عندها بعمل على تاسيس ملك سبقي فو اعقابيه من بعده ولعل هذا ما شغله عن مجاهدة الفرنج بالسرعة المتوقعة ونحت امره سيده نور الدين . اما العاصد فانفى صلاح الدين له لقبه اسير لمدة سنتين اخرين ان لم يجد من الحكمة خلعه توالى لثلا بشير عليه الرأي العام الدنيو والقوي في مصر بل اثر ان تفعل الابام فعلها . غير ان نور الدين خرج اخيرا من صمته وامر بقطع الخاية للعاصد واثامتها للعاسي في بغداد (المستنق) ولما تردد صلاح الدين في استحابة الاموال عليه * والزمه الزاما لا فسحة له في مخالفته * ان كان على الحقيقة نائبا له وافق ان مر العاصد واثمته عليه الالم فاقدم عنده صلاح الدين وحل العقدة فقطع الخطبة في اول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ او ايلول سنة ١١٧١ م . ولم ينتطح فيها هنزان * ثم كتب فليس بذلك الى سائر البلاد المصرية ففعلوا ثم ما لبث العاصد ان توفاه الله في ١٠ محرم ففلى صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه من كنوز وتحف .

عندئذ لم يبق امام صلاح الدين لتحقيق حلمه سوى سيده الاسمي نور الدين غير انه هنا ايضا فضل التريث والاناة على العجلة والندامة وترك الافذار

تحل المدركة الباقية كما حلت غيرها من المشاكل السابقة وراح يتجنب حتى الاجتماع مع نور الدين كما فعل. عندما سمع نور الدين بخزونه لحصن الثوبت دون ان يكون له بها علم ورغب في الاحتيا به فوجد صلاح الدين الى مصر عائدا من الثوبت وكتب بعنذر بأفلا^ه البلاد غير ان نور الدين لم يقبل منه وتخبر عليه وعزم على قصد مصر واخراجها منها . الا ان القضاء جاء بفصل بين السيد ونائبه بالموت اذ توفي الله نور الدين في مال سنة ٥٦٩ وتوز سنة ١١٧٤ م . في د سنة عن ٥٦ سنة قضى اكثرها فيما قتل الفرنج . فخلفه في د سنة ابنه صالح اما عيل وله من العمر ١١ سنة فاطلع الفارس في الشام وصلاح الدين في مصر وخطب له فيها وشرى السكة باسمه غير ان الملك الصلي ما لبث ان لعبت به الا هواه فنفقته الى حلب فكان في ذلك لصلاح الدين فرصة اذ اشار الى دمشق في ٥٧٠ هـ . ١١٧٤ م فملكها كما ملك بعدها حمص وحماة ومن ثم اتجه الى حلب وحاصرها وفيها الملك الصالح ولما ضيق عليها الخناء استنجد خشمه بالاسماعيليه وصاحب طرابلس ريموند الثالث الجور على هو القدس . (اذ كان في نفس الوقت من وفاة نور الدين قد مات ملكها امره ابلها وخلفه ابن له حفيد السن محزون) . فما ان علم السلطان بضم الفرنج على السمرنحو حلب حتى رحل عنها فارند واهم ابلها وتسلم في طرقة بعلي^ه وصار اكثر بلاد الشام بيده . غير ان العداوة بينه وبين رجال الملك الصالح استمرت عدة سنين اخرى استولى خلال^ه على قلعة بعرين وبزافه ومنبع واعزاز وحاول ان ياخذ حلب فعجز عنها وتم الصلح بينه وبينهم فارند عنها وقصد بلاد الاسماعيليه فذهب بلدهم مصاف واخره واحرقه وما زال بهم حتى طلبوا الصلح فاحابهم اليه ورحل عنهم في سنة ٥٧٢ هـ و ١١٧٦ م . ثم التفت الى مدن الشمال كآمد وعنتاب وما زال ينتقل بين الشمال والجنوب فيقاتل الفرنج نارة ويضم من مدن الشمال تبعضا نارة اخرى حتى كانت سنة ٥٧٩ هـ و ١١٨٣ م . فدار من عنتاب الى حلب ونزل عليها في المحرم وكان صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي فاستقر بينهما ما السلام وتسلم صلاح الدين حلب وعوضه عنها بسنحار ونصيبين والخابر والرقه وسروج واقام السلطان فيها الى ان غفيرة من تقرير قواعد ما ود بوانها واقطع اعمالها وبذل^ه قد تم له ان يجمع بين وادي النيل وبلاد الشام وحما^ه الفرنج بذلك بين تكي الاسد

فلم يجد السلطان الآن بدا من قنات الفرنج اكنوة نعدبهم على قوافل المسلمين فو طاريتها بين القاهرة ودمشق ولما أُظهِرَ ما أثار من مظنة البربر ارناء صاحب الكرك وكان من اعام الفرنج واخبينهم واعداهم عداوة للمسلمين ان لم يكف بصلب القوافل التجارية واعترا الحجاج فو طاريتها الى مكة والمدينة - رغم ما كان بين الفرنج والسلطان من مهادنة - حتى قام في ١١٨٢ - ١١٨٣ م بعدما لغزو الحجاز بحرراً الامر الذي اخرج صلاح الدين عن حليمه وحما يندره ان يقتله ان اقربيه ، فراء عندها يستغفر الناس للجهاد ويحثهم عليه وسعت الى بلاد الشام ومصر وسائر بلاد الشام مدعوهم الى الجهاد وبامرهم بالتجهز له ثم خرج من دمشق في اواخر المحرم من سنة ٥٨٣ هـ و ١١٨٢ م في عسارها وسار الى رابر الملك فو حوران حيث تلاحقت به العساكر المملاة الكاينة ، فلما اجتمعوا حما عليهم ولده الملك الافضا عليا وسار هو الى بصرى ليمتد البربر ارناء من طلب الحجاج ، وليجعل يلم بلده خوفا عليه فلما سمع ارناء اقرب صلاح الدين من بلده لم يثاومه وانفذه عما لحقه فيه ، فومما الحجاج صالحين عندها سار السلطان الى الكرك وش مراباه من هنا على ولاية الكرك والذوب وبغيرهما فذهبوا وخرابوا واحرقوا والبربر محجورون وكرو لا يتقدم على الدفاع عن بلده وكذلك فعا سائر الفرنج فلزموا طرة بلادهم خوفا من العسكر الكاين كان مع ولده الملك الافضا (الكاين ج ١١ ص ٢٢٩) .

وفيما كان صلاح الدين حيث رابناه كان ابنه الافضا قد ارسل من رجاله من يتعدى للفرنج في صفورية فتخرج السهم الفرنج فو جمع من الدولة والاصحابية وبغيرهما فالتقوا هنا وحررت بينهم حرب شديدة لها المنارة السود فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة واسر الباقون .

ولما انت صلاح الدين البشائر بذلك الفصر المبين على الاستتارية والدعوة عاد عن الكرك وقد تلاحقت به سائر الامراء والعساكر وانبع بهم وساروا حتى نزلوا بالاقعوانة قرب طبرية . عندئذ اتفقت كلمة الفرنج بعد فرقتهم وجمعوا فارسلهم وراح لهم وساروا ٢٠٠٠٠٠ من عكا الى صفورية فتقدم المسلمون حتى خلفوا طبرية وراهم ظهورهم وصعدوا جبلها ، ولما حنهم الليل قاتلوا المدينة ونقبوا بعد ابراجها واخذوها عنوة .

فلما علم الفرنج بالخبر اجتمعوا للمبادرة وبعد اخذ ورد قراربهم على قتال المسلمين ، وكان صلاح الدين قد عاد من طبرية الى عسكره ونزلوا على الماء والزمان قبض شديد الحرفاجهد العطش الفرنج ولم يتمكنوا من الوصول الى ذلك الماء اذ كانوا قد استهلكوا ما هنا من ماء الصحاري ولم يستطيعوا الرجوع خوفا من المسلمين فتقوا على حالهم الى الدند وهو يوم السبت في ٤ تموز سنة ١١٨٧ م وقد اخذ العطش منهم ماخذة فركب المسلمون في الصباح وتقدموا الى الفرنج فاقتتل الفريقان قتالا شديدا حتى انتهزم الفرنج وكان بعد المتلوعة قد القى في تلك الارض نارا وكان الدويش كثيرا فاحترق وكانت الرياح شديدة فحملت النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال وحسبوا انهم لا ينحسب من الموت الا الاقدام فحملوا حملات متدائرة مات جميعها بالفتا لو هتوا لذلك ومنا عاليا . عندها احاط بهم المسلمون احاطة السوار بالمعصم فارتفع من بني منهم الى تلك ناحية فليس وارادوا ان ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم فاندب القتال عليهم من سائر الجهات ومنعهم مما ارادوا ولم يتمكنوا من ان ينصبوا غير خيمة الملك . فلما صار الملك على التل في مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين حملوا حملة مبادقة على مر بازائهم من المسلمين غير ان هؤلاء سمعوا انهم كروا عليهم فالتفوا خيمة الملك واسروه عن كفة ايهم . وبينهم الملك واخوه البرسر ارناط وصاحب حسا وابن هنفري ، ومقدم الداوية وجماعة من الاستنارية والداوية ايضا . وما استب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة ٩١٤ هـ و ١٠٩٧ م . الى الان يمثل هذه الواقعة (في ٤ تموز سنة ١١٨٧ يوم السبت ٥ ربيع الاول سنة ٥٠٣ هـ) التي فانت الصبا ما تركته فيهم معركة الزها على يد عماد الدين زنكي . ٤٣ سنة خلت ، كما انها تارنهم تارندادهم عن دمشق . فو معركة المزة ايام كوهنراد الثالث ولوسر السايه وتاكد لديهم انهم لا بقاء لهم في الشام بعدها .

ولما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته ^{واحيض اليه ملك} الفرنج — ومعه البرسر ارناط — وقد اهلكه العطش فسقاه ماء منلوحا فشرب واعطوا فضل ارناط فشرب ايضا فقال صلاح الدين : ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني

فبنال امانى * ثم كلم البربر وقرعه بذنوبه وعدد عليه عوراته ثم قام اليه بنفسه
فصرعته وقال = * لقد كنت نذرت دفعتين ان اقتله ان ظفرت به * فلما قتله
وسحب واخرج ارتعدت فرائص الملك فسكن السلطان حاشه وامنه واما الفهم صاحب
طرابلس ، فانه كان قد انهزم فى وسط المعركة وبجا ورحل الى صور ثم قصد طرابلس
ولم يلبث الا اباما فلا تل حتى * مات غبظا وحنقا لما جرى على الفرنج ٠ ٨ (الكامل
ج ١١ ص ٢٤١ - ٢٤٢) .

لقد كان للضربة النجلاء التى سدها صلاح الدين الى قلب
* الدولة اللاتينية * سهل حطين فى ٥ ربيع الاول سنة ٥٨٣ من الانار والنتائج
ما جعلها غرة فى حيين التاريخ ومن آثارهم انها مزقتهم شرمزى وقلبت معنوياتهم
راسا على عقب حتى تركتهم لا يلبون على شئ * ولا يدرون ما يفعلون فاخذوا بشارهون
الى ملاحظتهم تسارء الحيوانات الى اوكارها وقد احست بهزة ارضية او بتفسير فحاشى
فى العوامل الطبيعية .

ومع هذا كله فلم تفارء صلاح الدين الرافة ولا الرحمة بل راح فى
نصره وفوزه يكتنوعلى فقيرهم ويحن على ضعيفهم ويؤمنهم على ارواحهم فيسمع لهم
بالرحيل الى حيث شاءوا ، فلم يجدوا من ذلك المصاب مهريا ولا منه ملحا غير
التجمع فى مدينة صور ، علمهم باستعدادتهم وعيهم بقدرهم على التفكير فى الامر
فيندبرون مصيرهم قبل ان يوجههم صلاح الدين برحاله وينفيهم عن بكرة ابيهم
بعد ان امنهم وهو فى نشوة النصر وطمانتهم وهم فى غمرة الهزيمة .

هذا ما كان من اثر ذلك فى نفوس القوم اما ما كان من النتائج
الطبية التى جناها المسلمون = ان السلطان لم يدع خمرة الفوز تلعب فى اعصابه
ولا فرصة النصر تؤنرفو تفكيره بل راح من وقته يفكر وسعمل على مطاردة القوم فى
كل مدينة وبلد وكا قلعة وحصن حتى لا يبدء لهم فرصة الهدوء او اللحوء الى التفكير

بأمرهم فما ان فرغ من امر حطين حتى توزع هو واخوه الملك العادل وبقية الامراء
العمال فراحوا جميعهم يتلفون قلول الفرنج وسهاجمون مدنتهم ويحاصرون قلاعهم في
الشمال والجنوب والوسط حتى جنوا ما استطاعوا ان يحنوه من النار الشبهة بعد
ذلك الظفر المين - ففتت العادل على حدود مصر محدا بابا ومدينة باقا كما تسلم
صلاه الدين مدبنتى طبرية وعكا ودخل امراؤه بعساكرهم الناصرة وقبسارية وحيفا
وصفورية والقلعة وغيرها من المدن والحصون والقلاع في البلاد المحاورة كسنبين
وصيدا وجبلا وسروت ثم ملكوا نالمر وسبسطه حتى لم يبق امام صلاح الدين اهم من
عسقلان والقدر لاسباب عديدة منها - انها على طريق الى مصر يقطع بينهما وبين
الشام وكان قوة ذلك يريد ان تنصل الولايات ليسهل خروج المعسكر منها ودخولهم
اليها ثم لما في فتح البيت المقدس من الذكر الحميل والصبب العظيم الى غير
ذلك من الاغراء - فسار من بيروت نحو عسقلان "عروس الشام" التي صدت الفرنج
عنها خمسين سنة وصدت في وجههم سبعة اشهر في سنة ١١٥٣ فاجتمع الى اخيه
الملك العادل والى من معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الاحد في سادس عشر
جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ و ٢٩ تشرين الاول سنة ١١٨٧ م . وكان سبق للسلطان
ان احضر من دمشق ملك الفرنج ومقدم الداوية وقال لهما - "ان سلمنا البلاد الى
فلانك الامان" غير انه اخطر الى قتال المدينة ونصب المنجنقات عليها وضرب الحصار
حولها لمدة ١٤ يوما فلما راوا انهم كل يوم يزدادون ضعة فاوهنا راسلوه في
تسليم البلد على شروط اقترحوها فاجابهم اليها وسلموا المدينة سلم جمادى الآخرة
سنة ٥٨٣ هـ و ٤ ايلول سنة ١١٨٧ .

وبعد ان فرغ من امر عسقلان وما جاورها من البلاد امتلأ الرملة
والزورم وغزة والخليل وبيت لحم وبيت جبريل والنبلون وكل ما كان للداوية في اطراف
البلاد المجاورة امر باسطول مصر ان يخرج ويقطع الطريق على الفرنج ثم سار هو الى
البيت المقدس فنزل عليه في ١٥ رجب سنة ٥٨٣ هـ و ٢٠ ايلول سنة ١١٨٧ واقام
الحصار عليه وما زال يضيق عليه الخناق حتى دخله المسلمون يوم الجمعة السابع
والعشرين من رجب و ٢ تشرين الاول . وكان يوما مشهودا وقد اظهر فيه صلاح الدين

من الاربحية والشهامة ومن الرافة والانسانية ما سجله له التاريخ بالغفر والاعجاب .
وانا لنكتفى بالاشارة اليه والتنويه به هنا لتتوسع في ذلك بمكانه . واذا ما ذكرنا
انه لم يكن بين سقوط القدير ومعركة حطين سوى اربعة اشهر وتذكرنا ما تم خلالها
من فتح ونصر ادر كنا ان صلاح الدين لم يترك دقيقة دون ان يستفيد منها في محاربة
الفرنج ومصابرتهم والعمل على استرجاع البلاد والتخلص منهم .

وها هو وقد فرغ من امر القدير بفادرها في ٢٥ شعبان فاصدا
الى صور وقد تفرغ لها بعد ان كان توقف عن فتحها قبلا لحمايتها وامتناعها . لكنه
وجد انه قد اخطأ فقد جاءها بحرا بعد فتح عكا وغيرها من المدن الساحلية بقليل ،
المركب "كونراد صاحب مونقرا" للزيارة والتجارة قد دخلها وقد اصبح فيها خلق كثير
ممن قصدوا من فلول الفرنج ومشرديهم بعد معركة حطين ، وقد ظلوا وليس لهم راس يجمعهم
ولا قائد يقاتل بهم ، وفيما هم يفكرون في مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد اليه ،
اناهم المركب ، وهم على ذلك الحزن ، فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة
وبدل ما معه من الاموال وشرط عليهم ان تكون المدينة واعمالها له دون سواء فاحابوه
الى ذلك واقام عندهم ودير احوالهم " وكان حسن التدبير " شجاعا فشرع في تحصينها
بتجديده حفر خنادقها وعمل اسوارها حتى زاد في حصانتها .

تلك كانت حالة صور واهلها لما وصل اليها صلاح الدين في ٢٢
رمضان من السنة نفسها واما مقاتلتها في البر ولكنه وجد ذلك قليل الجدوى لضيق
المجاا بين المدينة والبر فرحما عنها وقد ادرك انه باهماله لها من قبل قد جعلها
تقوى عليه الان لا سيما وقد تعب هو ومن اصحابه القتال ونبت معهم النفقات واصبح
الثناء على الابواب فاذن العساكر جميعا بالعودة الى اوطانهم والاستراحة والرجوع
اليه في الربيع المقبل .

ولم تكن صور وحدها هي التي اقلقت السلطان بل كان هناك ايضا
قلاع كوكب وصفد والكرك ، اذ كانت البلاد الساحلية من عكا حتى جبيل قد اصبحت جميعها
في قبضة يده ، ما عدا هذه الحصون وكان يود لو لم يبق في الداخل ما يشغل قلبه ويقسم
همه ويحتاج الى حفظه ، لئلا يقع منها ضرر على الرعايا والمجتازين لها فلم يبردا

وقد امتنعت عليه قلعة كوكب من الذهاب الى دمشق بعد ان ترك عليها من يقيم
محاصرتها حتى ولى الشتاء بيرده ووصله وهاد الربيع بصحوة ونواره فاخذت
العساكر تنوافد عليه حتى اجتمعت وكثرت عنده فتوجه الى الشمال ونزل تحت
حصن الاكراد وجعل يخبر منه حتى فتح صافينا والمرسة وبحر و غيرها
من البلاد والولايات ووصل الى قرب طرابلس لايصر البلاد وتعرف الى مسالكها
ثم هاد الى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف انواعها ما لا
حده واقام تحت حصن الاكراد الى آخر الربيع سنة ٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م ثم
اتجه شمالا وراح ينتقل من فتح الى آخر حتى دخل حيلة واللاذقية وصهيون
وملك خمسون بئاس والشفرو ودرسات وغيرها وكلها من ايلات صاحب انطاكية .
فلما سمع هذا بكل ذلك خافه واشفق منه فارسل يطلب الهدنة وبذا اطلاق كل
اسير عنده من المسلمين فاحابه السلطان الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر
اولها تشرين الاول واحرها آخر ايار سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ وكان صاحب انطاكية
في هذا الوقت اعظم الفرنج ثمانا واكثرهم ملكا فانه كان تسلم طرابلس بعد موت القمص
من غير ولد يخلفه فيها .

وهاد صلاح الدين الان الى حلب حيث فرق السكراك رتبة وسار
هو منها الى دمشق ودخلها في اول رمضان فاسر عليه بتفريق العساكر فقال =
" ان العمر قصير والاحل غير مأمون ، وقد نفو بيد الفرنج هذه الحصون - كوكب
وصدد والكرك وغيرها . ولا بد من الفراء منها فانها وسط بلاد الاسلام ولا يؤمن
شرا هلهما وان اغفلناهم ندمنا فيما بعد . "

وهذا برهان على شدة قلق السلطان من جهة وعلى عزمه ان
لا يقع فيما وقع فيه مع صور من قبل فراح ينتقل الى الجنوب وكان قد جعل على الكرك -
اثناء غيابه في الشمال - عسكرا يحصروه ، فلازموا الحصار نحو لم يبق للاسيرة عند الفرنج
محال فراسلوا الملك المادل فتسلم منهم القلعة وامنهم وملك ايضا ما بقاره من
الحصون كالشوف والدعيرة والساغ ، فاطمان الى ذلك صلاح الدين كما امتد قلوب
من في ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيرها ، فقام عندئذ السلطان بفقد دمشق

الى قلعتي صفد وكوك وملكهما عنوة فاجتمع المسلمين بفتحهما من حد ابله الى اقصى اعمال بيروت لا يفصل بينه غير مدينة صور وجميع اعمال انطاكية .

عندها رآه صلاح الدين يتفقد المدن وتحصيناتها فزار القدم

وقيد فيها عبد الاخر ثم سار منها الى عكا فاقام فيها حتى انسلخت السنة ٥٨٤ هـ

ولما حلت سنة ٥٨٥ هـ وشاء انهاء ما كان بدا به من فتح ما بقي من الحصون

والقلاع طرد الفرنج سارفي ربيع الاول سنة ٥٨٥ هـ و ٥ مايو سنة ١١٩٩ من عكا الى

مقبة ارنون ليحمره فنزل في مرج عيون حيث حاصه ارناط صاحب صيدا فدخا اليه

واحتض به واظهر له الطاعة والمودة وطلب اليه ان يمهله ليعلمه الشريف حتى يكون

قد احضر اولاده من صور لثلاث بناتهم من صاحبتها الذي ، فخدع صلاح الدين واحابه الى

ما ساء فاستقر الامر بينهما على ان يتسلم صلاح الدين الشريف في حماد ، الآخرة

من السنة وثلاث ينتظر في مرج عيون وهو علم ثلث لأمري هما (١) قر - انقضاء مدة

الهدنة بينه وبين بوهمند صاحب انطاكية فما كان منه الا ان ارسل من يكون مقابلها

لثلاث بنات صاحبها على بلاد الاسلام عند انقضاء الهدنة (٢) لما بلغه من احتواء

الفرنج بمدينة صور وما يتصا بهم من الامداد في البحر وان ملك الفرنج "غنى اللوزيناني"

الذي كان قد اسره السلطان واطلقه سراجه بعد فتح عسقلان قد اصطلح هو والمركب

بعد اختلاف كان بينهما وانهم اجتمعوا في خلق كثير وخرجوا من مدينة صور الى

ظاهرها . فكان هذا واقعا به ما يزعمه ويخاف من ترك الشريف وراء ظهره

والتقدم الى صور وسها الحموء المتوافرة فتتظم الجبهة عنه . واخبرا عندما كلم صلاح

الدين ارناط ادره مكره وخداعه فاخذوه وحبسوه ، وفي اثناء ذلك جاءته الاخبار

بخروج الفرنج من صور لحصار صيدا فبرأ حساكره اعزوهم عن الوصول اليها فعادوا

الى مكانهم . ولكن صلاح الدين ادره انه قد اصبح عليه ان يتخذ خطة الدفاع

كما وانه بعد ان كانت المبادرة في يده كل تلك المدة واذ انشأ تنقلا الى العدو .

وكان صلاح الدين - وهو في عسقلان - قد احضر من دمشق الملك

غنى "واطلعه بعد تسليم عسقلان ، كما راينا واخذ عليه عهدا بانه يتنادر البلاد

ولكنه ما لبث ان بنده على عقبيه في صيف سنة ١١٨٩ م و ٥٨٥ هـ ويثيره بالزحف

على عكا رغبة منه في استرجاع ما كان الفرنج قد فقدوه بعد هزيمة حطين . وما

البت كونراد صاحب صوران وقد ايضا بحساره ، كما انضمت اليهم جموع الوافدين من اوربة .

وكان ذلك في ٥ شعبان سنة ٥٨٥ هـ و ١١٨٩ م واستمر الحصار على اشد ما يكون بين الفرنج من قتال حتى استنفد كل منهم ما لديه من جهد وفن وذخائر وآلات حصار في البر والبحر ما لم تشهد مثله في جميع ادوار هذه "الحروب الصليبية" واستمرت الحال على هذا المنوال حتى كان ربيع سنة ٥٨٧ هـ و ١١٩١ م حين وصلت امداد الفرنج من البحر الى من كان منهم على عكا وكان اول من وصل الملك فيليب اوست في ١٢ ربيع الاول سنة ٥٨٧ هـ و ٢٠ نيسان سنة ١١٩١ م فقوت بذلك نفوس القوم والحوار في قتال المسلمين ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) .

وكان فبين خرج من ملوك الفرنج في هذه الحملة ملك الالمان ساررحاله وارينه علي القدسانية حتى ^{عسكر} حاربها وعار على ارض بلاد الاسلام فاهلكهم البرد والحر والتركمان ، ولما تاروا مدينة نونسة تزودوا وساروا حتى اتوا بلاد الارمن فامدهم ملكهم بالانقوات والعلوفات ثم اتجهوا نحو الاناكية وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليفتضا فزرقه . فصار ولده ملكا بعده غير انه اختلف عليه اصحابه وما كاد يسير بهم حتى وقع فمهم الوباء والموت وما ارسلوا الى انطاكية حتى نسم بهم صاحبها فداروا حتى طار اليهم ولم يبق منهم الا القليل فركبوا البحر الى عكا ولما راوا ما نالهم في الطريق من جهد ونصب عادوا الى بلادهم وكان هذا آخر العهد بهم (الكامل ج ١٢ ص ٢٣ - ٢٤)

ثم وصل ملك الانكلتار (الانكليز) في حمادى الاولى سنة ٥٨٧ هـ و ٨ حزيران سنة ١١٩١ م وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص واخذها من الروم غدرا ولما فرغ منها سار الى عكا فوصل اليها في ٢٥ قطعة كبار مملوءة رجالا واموالا فعظم به اهل الفرنج واشتدت نكايتهم بالمسلمين وضائق بهم ولا اله الحيل فارسلوا الى صلاح الدين يعرفونه - اليهم فلم يقدر لهم على نفع فعزموا على تسليم البلد يوم الجمعة في ١٧ حمادى الآخرة و ١٢ تموز على الروط الآتية (١) بذلك مائتي الف دينار وخمسمائة اسير من المروفين ~~مبشرين~~ (٢) اعادة الصليب . (٣) دفع ١٢ الف دينار للمكرم صاحب صور فقبل الفرنج ان يؤدوا ~~التمويل~~ مقابل ذلك (١) خروج من في البلد باموالهم وانفسهم

على ان ينفذ صلاح الدين تلك الشروط . فاجابوه الى ذلك وحلفوا له عليه وان يكون مدة تحصيل المال والاسرى الى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد اليهم ودخلوه سلمًا . فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى اموالهم وجبسهم واظهروا انهم انما يفعلون ذلك رغبة منهم في ان يبروا شروط الصلح في حيز التنفيذ وراسلوا صلاح الدين في ارسال المال والاسرى والصلب حتى يطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال فلما احتجم عنده من مائة الف دينار راسلهم اليها اليهم ان يحلفوا اليه على اطلاق الاسرى وان يضمن الداوية ذلك . لانهم اهل دين يرون الدقا . فكان جواب الداوية انهم لا يحلفون ولا يضمنون لانهم يحامون غدر من عندهم وانا ملوكهم . - اذا سلمتم الينا المال والاسرى والصلب فلنا الخبر فبمس عندنا فحينئذ نلم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل اليهم شيئًا واعاد الرسالة اليهم وقال . نحن نسلم اليكم هذا المال والاسرى والصلب ونعطىكم رهنا على الباقى وبالنسبة لانا ونضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا . - لا نحلف انما نرسل الينا المائة الف دينار التي حملت والاسرى والصلب ونحن نعطىكم من نريد ونترك من نريد حتى يجي . باقوا المال فعلم الناس حينئذ غدرهم فلم يجيبهم السلطان الى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء في ٢٧ رجب سنة ٥٨٧ هـ و ٢٠ آب سنة ١١٩١ ركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر البلد بالفاريز والراجل وركب المسلمون اليهم وقصدوهم وحماوا عليهم فانكروا من موافقهم واذا اكثر من كان عندهم من المسلمين قتلوا قد وضعوا فيهم السيف واستنفوا الامراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من بواهم من سوادهم واصطلم بهم ومن لا مال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف في المال الذي كان حقه واعاد الاسرى والصلب الى دمشق .

وعلى كل حال فليس امتلاك الفرنج لعكا بالشئ العظيم ان انهم قضوا

فوق ذلك سنتين من الزمن وكان الاجدر بهم ان يبذلوا ما بذلوه من مال وجهد ورجال في مقاومة صلاح الدين نفسه وكمر موكبه ان ربما كانوا قد استطاعوا ان يحموا شوك المسلمين وان يستردوا ما خسروه به معركة حطين وهكذا يكون الفرنج قد ربحوا مدينة واحدة وابقوا على قوة صلاح الدين كاملة هذا فضلا عن ان حيد الفرنج كان مؤلفا من جنسيات عديدة

كان معها الحسد والنزاهة والفرقة اغلب عليهم من الاتحاد والتعاون الوثيق . وقد كان وجود
فيليب ورثا رافو نفس المعسكر كقبلا سوفوا مثا ذلك ان كان كل منهما قد حمل معه
حقده على الآخر وكان تفاخر كل منهما على الآخر بكم لا يثاء الدفان والفرقة بينهما
وبين قواها هذا ولم يكن كونراد وهو يجيز منهما ان كان الاخران يتافخروا كل منهما
صاحبه . وبعد حصارها بقليل وقع بينهما الخلاف على ناح القدس ان كونراد تزوج
بابزابل ابنة زوج سبيل في اواخر سنة ١١٩٠ م وبذلك يكون قد نال الحق الذي
في عز القدس لان سبيل كانت الان قد توفيت فتام فيليب بسانده في دعواه فما كان
من في الا ان تنفي على ريشارد ان يدعه هو ايضا في قضيته ولعل هذا ما كان
رثا اريستطليه . وهكذا تشابكت منافسة فيليب لريشارد منازعة كونراد لغنى واخذوا
يشتملون بهذا وذاك معا كان من فيليب الا ان استعد للرحول الى قرصة بآبحرم عا
في اليوم الاخير من تموز سنة ١١٩١ م مدعيا ان السبب لذلك حاله الصحية ولعل
الحقيقة ان لم ترقه الطل في فلسطين ان مصالح ^{فريضة} انتضت وجوده هناك .
على كل حال فقد وصه الانكليز بذلك بالفدر والامانة للقطعة الكبرى . غير ان
من ادركه للفلسطين لم تحسن الطلة فيها ان بقيت اكثرية الصليبيين من الفرنسيين
بقيادة امير برغانديه وملت القيادة العامة كريشارد وان كانت سلطته قد حدد منها
كثيرا ان لم يترك معه في مذارعه احد من كانوا يساندون كونراد الذي بقى في
صور يترقب الفرص لمزيد في رقة املاكه وما لبت ان دخل في مفاوضات مع صلاح الدين .
واصب الممرا/ الان في تحسين عمالة الفرنج في الطام خاصة (١٥١)
وحالة الحملة الثالثة عام ١١٩١ م ببرهن ريشارد في حملاته من سياسة وحسن قيادة
ان لم ببرهن انه فهم مقدار اهمية القضاء على قوة صلاح الدين واكفى بالعمل على استرجاع
القدس غير انكم تردده في العمل ايضا قد زاد في سوء الطل حتى كان سفره الى
انكلترة ثالثا الاسافى . ثا

ولما فرغ الفرنج من اصلاح امرها برزوا منها في ٢٨ رجب و ٢٥ آب
وساروا مستهل شعبان نحو حيفا فنزلوها ثم منها الى فيسارية فارسوف فبانا فنزلوها
ولم يكن فيها احد من المسلمين فملكوها ولما هزم المسلمون بارسون سار صلاح الدين

الى الرملة وامر بتخريب عسقلان فخرت في ١٩ شعبان والقيت حجارتها في البحر وهلك فيها من الاموال والذخائر التي للسلطان والرعية ما لا يقي تحت حصره فماتوا حتى لا يبقى للفرنج في قصدها مطمع ولما سمع القوم بتخريبها اقاموا مكانهم ولم يسهروا اليها .

هذا ما كان من امر ريشار بعد اخذهم هناك اما المركيز كونراد صاحب صور فلما رأى ما رأى من من ملك الانكليز وغدره به عاد الى صور ولما سمع بتخريب عسقلان ارسل الى ريشار ينحو عليه بالائمة ويقره قائلا = " لو كنت مكانك لارسلت كهف اسرع الى المدينة فاحتلها هنوء قبل ان ادية للسلطان فرصة ليفعل بها ما فعل . "

وعندما فرغ صلاح الدين من عسقلان رجع الى الرملة فغرب حصارها ومنها دخل القدس وبعد ان تفقدتها واطمان الى حالها توجه الى الشطرون في الثالث عشر من رمضان والاربع من تشرين الاو فراسله جيفر ملك " انكلتار " يطلب المهادنة اذ لم يعد بعد من اى الفرنج ملازمته في حروبه المشوقة . فالت الرسل تنرد الى الملك العادل اخى صلاح الدين حتى استقرت القاعدة = (١) ان ريشار يزوج اخته من العادل (٢) ويكون القدس وما يابدى المسلمين من بلاد الساحل للعدل (٣) وتكون هناك وما بعد الفرنج من البلاد لاخت ملك " انكلتار " مضافا الى مملكة كانت لها داخا البحر قد ورثتها من زوجها (٤) وان رضى الداوية ما يقع الاتفاق عليه . فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فاجابهم انه . لكن رجال الدين كانوا الحائل دون تلك الامنية التي لو تمت لكان للفرنج . ان غير هذا الشأن ولكن

وهكذا لم يتم الصلح وراح ريشار يهجم صلاح الدين بعزمه على قصد القدس وظل يهاطل وينتدد حتى كان الشتاء وحالت الاحوال والامطار بينهما . وكان ريشار اراد ان يبرر عجزه عن مهاجمة القدس فطلب الى من كان معه من الفرنج " الداميين " ان يصوروا له مدينة القدس ولما فعلوا ذلك قال = " هذه مدينة لا يمكن حصرها لك طالما صلاح الدين حى وكلمة المسلمين مجمعة " فلما قال لهم ذلك علموا رايه وراوا قلة الميرة عندهم فاضاروا عليه بالعودة الى الرملة فعادوا حائبين حاسرين . ولما حصر الفرنج عن القدس رحلوا في المحرم سنة ٥٨٨ هـ و ١١٩٢ م الى عسقلان ودخلوها ثم سرقوا في عمارتها لكن صلاح الدين لم يدهم بذوق طعم

الراحة بل ظا، بواضا ارساا سراما فتارة نواقه طائفة منهم وتارة تقطم المسرة عنهم دون ان يكون له فيها ملامع .

وفي خلال ذلك راسل صلاح الدين مقدم الاسماعيليه وهوسنان بوجوب العما بواسطة رجاله على قتل المركب صاحب صور فكان ذلك في ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٨ هـ و ١٢ ايلول سنة ١١٩٢ م ونسب الفرنج قتله الى تدبير من ريشار ليفورد بطلان الساحل الدامي . اما الملك "غوي" فكان قد اتى من ريشار حاضرة قبرص وذهب ليلبسملها . فقام على حكم الفرنج كمكان المركب المعتنق الكونى عنرى ابن اخت ريشار وزوج ابزابيا ارملة المركب وعا حتى سنة ٥٩٤ هـ و ١١٩٢ م .

فى تلك الاثناء علم ريشار على مفادرة البلاد ان راي احتياط عساكر المسلمين وحجزه هو عن مفارقة ساحل البحر وقد التفتعنه عن بلاده فراء براسل السلطان فى الصلة فتروا السلطان بالاحاطة خوفا من ان يكون ريشار اسما بفعل ذلك حديده وكررا وارسا بطلب من المصافيه والحرب فاعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة الى الملك الدادل فى تقرير الملك فاجاب راسل الدين سبندش مندرا الى الصلح فحضر رسا الفرنج وعقدوا الهدنة لمدة ثلاث سنوات وثمانية اشهر ٥٩٢ هـ بان ٥٨٨ هـ و ١١ ايلول سنة ١١٩٢ م . وتحالفوا على هذه القاعدة - (١) تبقوا البلاد الساحلية للفرنج والداخلية للمسلمين (٢) تنقى القدمى هو القدمى المسلمين ويسمح للحجاج الفرنج بدخولها من بقاء كمسة القامة فى حوزتهم . (٣) اما عسقا ن فتحرب ولا تكون لاي من الفرنجين وبذلك انتهت الحملة الثالثة بالفضل الذرية ان كان حبيها بدون قيادة موحدة ففلا من الخافات التي كانت مستحكمة بين الزعماء من الفرنج الوافدين منهم والمنبذين منها كان المسلمون على الشد من ذلك موحدة القيادة بزعامة رجال الساعة صلاح الدين هذا مع وحدة فى الهدنة ورفقة اكيدة فى العمل لتخليع البلاد .

اما صلاح الدين فسار عندئذ الى القدر وتنفذ مشورته وتحصناته ثم توجه الى دمشق وحدا اربعة على الشاور الاسلمة كماله ولجيرة وصغد ونين وبيروت وتعهده هذه كلها وامر ما كامها وفيما كان ببيروت اتاه بوهند صاحب انطاكية وافعالها واجنصره وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد الى بلده ورجل صلاح الدين الى دمشق بدخلها بن الاربعاء فى ٢٥ شوالا وكان دخولها اليها يوما مشهودا وفرح

الناس فرحاً عظمياً لطوا، فبينه ولذ هاب العدو .

وفي هذه السنة ٥٨٩ هـ في صفر توفي صلاح الدين بدمشق في ٣ اذار سنة ١١٩٣ بعد حمى اعابته في ١٦ صفر - نبي ٢٧ منه ٥٨٩ هـ ورمه ٥٧ سنة .
لقد طوى القرن الثالث عشر (١١٩١ - ١٢٩١) آخر صفحة من تاريخ الحروب الصليبية وكان السبب الاكبر في ذلك ان الامدادات التي كانت اوروبية توافل بها الفرنج في بلادنا قد خفت الى حد لم يعودوا يستطيعون معه الدفاع عن انفسهم فضلاً عن هجوم جديد يقومون به .

ولم يكن مرد ذلك في اعتقادنا ، الى ان حشية القو الدينية قد خدمت
اذ انها وامانها من " من القصور بسيد فذل " الحملة الثالثة * بل على الضد من ذلك
فقد ظلت تلك الحشية تلهم قلوبهم ببلادنا ان البابا لم ين من دعوة الاوروبيين الى
استرداد فلسطين كما ان الامراء والملوك يستمرون ذلك من اقدار واحباتهم ، غير ان
هواما جديدة تحمعت للحيلولة دون ما كانوا يستهدفونه ، فمن ذلك حملات تادسية
(عرفوها بالصليبية تجوراً) حملتهم الى نواحي عديدة من اوروبا نفسها ومطلة من بلادهم
وحال ذلك دون القصد الى ديارنا ولوت الصليبيين عنها الى المائدة واسبانية وسواهما .
ففيما كانت الحملة من افوا الحملات (الرابعة) تعد للنزوح الى بلاد الشام في ١٢٠٢
اذ بها تحووا الى القسطنطينية (١٢٠٢ - ١٢٠٢) فكان في ذلك لغت لانظار القوم
الى بلاد الروم لعدة سنين سنة وبعد وتحويلهم عن اولئك نحو ان مرقه الفرسان
التفوقون التوا اسد حوالي ١١٩٨ لنعم في الشام قد صرفت جهودها في خدمة الكنيسة
والامة في جرمانية نفسها .

ولم يكن مثل هذه الحالات لمعيق وحده القوم من مد يد المعونة
الى الفرنج في بلادنا بل كان هناك ايضا ما تدخل البابا والاميرالطور عن ازعاج المسلمين
في الشام وذلك ما كانا فيه من نزاع مبيت آنذا . ولعل فردريك الثاني كان يستلجم
ان يسترد ما كان انتزعه صلاح الدين لولم يبق لوال حكمه مشغول بالدين في نزاعه
مع البابا (١٢٢٠ - ١٢٥٠) وقد بلغ ذلك النزاع بين الكنيسة والاسرانية الذروة
بعد موت فردريك في حين كان الفرنج في بلادنا يائس الحاجة الى مدد اذ كانت
- بانهم - أصبحت تنوء ، حقا على مقدار ما كان يصلهم او يمكن ان يصلهم من المدد عن

من طريق أوروبا . انخف الى كل ذلك ان اعظم ملوك أوروبا في اواخر القرن الثالث عشر
عشر (١٢٦٢ - ١٢٨٥) ونعني به شارل انجولمك صقلية) قد شغلته القضية القديمة
القائمة على النزاع بين النورمان والروم من اجل املاك القسطنطينية من كل اهتمام
وعناية بامر الشام وغابا الفرنج فيها ، حتى انه نوى حملة صليبية منها الى ~~مصر~~ ^{القدس}
ولم يلبثت في كل حياته الى التفكير بها او بمن فيها من الفرنج .

ولم يكن ما سلفنا ذكره هو كل شيء بل ان الفرنج انفسهم في
بلادنا لم يكونوا خيرا من في أوروبا اذ كانت المنازعات بينهم ايضا قائمة قاعدة الى
حد لم يعد استنجادهم بأوروبا ليعترك في نفوس القوم اقل اثر .

ثم ان ما كان ينصف به صلاح الدين من الحمية الدينية والرغبة
الشديدة في جهاد القوم ، لم يكن احد من ورثته وخلفائه قد ورث شيئا منه ،
فقد كان اخوه العادل وكذلك الكامل (ابن العادل) تسيرهما عوامل اخرى ،

فشغلتهما المنازعات المحلية والمناسبات على الملك فكان ان استطاع الفرنج استرداد

بعض ما كان انتزعه منهم صلاح الدين كبروت والقدس وطبرية وعسقلان مع ان ذلك لم يهيئ مقتضىهم ^{بمقتضى} ^{بمقتضى} العادل او ابنه الكامل او اسماعيل واسوب وذلك في السنوات (١١٩٨ - ١٢٠٤ - ١٢٢٩

١٢٤٠ - ١٢٤١) وما بلغت النظر آنذا ان الصليبيين الذين انفسهم لم يحرزوا
انتصارا عظيما بذكر فضلا عن انهم لم يفتحوا بلدة واحدة عنوة واستبقوها في ايديهم .
فحملنا (١٢١٢ - ١٢١١) و (١٢٤٩ - ١٢٥٠) ، كانتا اكثر الحملات عددا وخطورة
ومع ذلك فكلتاها تلاشت في مياه النسيان دون ان تثبت لهم قدما فيها .

ولقد لاف سياسة المناشرين من الامويين المسلمة هوى في

نفس فردريك الثاني امبراطور حرمانية وملك صقلية ، فكان على ^{وفاء} ^{وفاء} تام مع الملك الكامل .

اما السلطان ابوب ، فعلى قصر عهده في السلطنة = ١٢٤٠ - ١٢٤٩ قد شغل

ايامه في الحروب الداخلية . وظلت الحال كذلك حتى وفد ^{الحجازيون} ^{الحجازيون} (١) لترك ^{الحجازيون} ^{الحجازيون}

واستتركوا معه في طرد الفرنج ثانية من القدس وجعلهم يفتحون اعينهم على ما قد خبا لهم

المستقبل القريب من المفاجآت . وهكذا انقضى عهد المهادنة والتساهل معهم

(١) الحجازيون القادمون من مصر (١)

وكان آخر الالبوين توران شاه بن ابوبفا ان استدعمر المالبين بشعفه حتى اغتالوه وانتخبوا من بينهم من خلفه في ١٢٥٠ .

وكان لا بد لموسى الاسرة الجديدة من ان يشغلوا موقنا في حروب اقتضاها انقراض سلالة وقيام اخرى ، فضلا عما اعترض طريقهم من عزوة التتر وقتل للدمار الشامية . وقد كان ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) اول من تصدى بوقف زحفهم وجهاد الفرنج بعد صلاح الدين ولا عجب ان تشابه انتصاراته بانتصارات سلفه العظيم ، فقد اكسبه باقا وارسون وقبصارية في الجنوب كما احتل حصن الاكراد وحاصبنا وحصونا اخرى في مقاطعة طرابلس فضلا عن فتحه لانتطاكية واكثر ملحقاتها في الشمال . ثم جاء بعده في الامة السلطان قلاوون وما لبث ، بعد هدنة مع الفرنج عما خلالها على تقوية نفسه ان كثر على طرابلس وانتزعا ما تبقى منها . وفيما كان يعد العدة للانتصار على هكاذبا بالوفاة تحول بينه وبين مبعثه ، لكن امانيه قد حققها بعده خلفه واسمه الملك الاشرف خليل اذ ما كاد يتسلم زمام السلطنة حتى سار الى تسديد الضريرة الفاضية في ١٢٩١ الى الفرنج في عكا فاخذ على اثرها المدن نسلم واحدة بعد الاخرى فكانت النهاية كيم من الورى او خبط من المنكوب . وهكذا اسدل الستار على آخر فصل من ماساة قام ودارها الغريبون باسم الدين ظاهرا وباسم الاستعمار باطنا

تلك نظرة خاطفة في تاريخ الحروب الصليبية كان لا بد منها قبل الخوض في موضوعنا الاصيل وهو العلاقات الاجتماعية والثقافية بين الفرنج والعرب في الشام خالها وما تم من تبادل بينهم في هذه النواحي وغيرها وما كان له من اثر في نهضة اوربية وتخلف السلام .

الفصل الثاني

- ١- المجتمع الثامى فى القرن الخامس الهجرى الموافق للقرن الحادى عشر الميلادى
- الحالة السياسية - السكان وكثرة اجناسهم - حالهم الاجتماعية -
- الحالة الدينية عندهم - تصامح العرب فى حكمهم - تعليل بعض الشذوذ -
- الحالة الفكرية - الحالة الاقتصادية - الفنون الحيلسية

الفصل التاسع - ١ - المحتجم الدامي في القرن الخامس الهجري

الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي .

الحالة : ان ما نصيبه الخلافة في القرن الثالث الهجري من ضعف وامتهان على يد ممالكها الاثراك تداع الفوضى في ممتلكاتها ونشر الذعر والفلس في امصارها حتى طمع القواد والامراء في القرن الرابع من مختلف العناصر والقوميات في الاستئثار عنها وتاسيس الحكومات هنا وهناك فعدت الامبراطورية العربية كرقعة الشطرنج اجزاء والوانا .

وكان للديار الشامية من ذلك نصيب كبير ان توالى عليها الدولات ، ففيها قواد اثراك مستبدون او زعماء عرب متالمون ، فكانت الدولتان الطولونية والافقيمية التركبتان ثم الحكومتان الحمدانية والفاطمية العربيتان ، فما كان من الروم الا ان ادلوا دلوهم وسط تلك الفوضى عليهم بفوزون ببعض الغنمة او كلها . واذا بهم ، وقد عجزوا عنها جميعها ، ينتحمون حلب ويخربون قصر الامير سيف الدولة الحمداني فيها سنة ٣٥٠ هـ و ٦٦١ م ، ثم عادوا مرة اخرى ونزلوا في كهلبيكة عام ٣٥٩ هـ و ٩٦٩ م . فتفتحت امامهم ابواب الشام وتقدمت جيوشهم حتى انطاكية التي ظلت في ايديهم الى عام ٤٢٧ هـ و ١٠٨٤ م .

ثم بعدها بقليل طمعوا ببيت المقدس فجاسوا خلال الديار حتى دخلوا دمشق ونقضوها الحزبة ، لكنهم فشلوا في الدخول الى فلسطين وقد تحدث ابن الفلاس عن توافد القوم في البلاد حتى بلغوا الواحات حيث اقتحموا بيروت وحملوا على اهلها عبيدا وكذلك فعلوا بحلب ، لكن اربابهم صمدت لهم اربعين يوما فاضطروا بعدها الى رفع الحصار .

وفيما كان سيف الدولة في كروفر مع الروم اذا بالفاطمين يزيدون طينة البلاد بلنة وسباحمونهم من الجنوب كان ما حل بها لم يكن كافيا ليمهز عليها حتى اتوا برهقونها فتزداد ضيقا على ضعف وفوضى على فوضى .

ثم لما انكشف عنها الروم وتغلب الفاطميون ظهر المرداسيون فسي
اوائل القرن الخامس الهجري في حلب وما زالوا في قتال مع الفاطميين
حتى ضعفوا وزالت امارتهم عام ٤٧٣ هـ . و ١٠٨٠ م .

في تلك الاثناء كان السلاجقة قد ثبت ملكهم في العراق وانبسط
نفوذهم على بلاد الروم عامة وعلى الشام خاصة سنة ٤٦٣ هـ و ١٠٧١ م .

وليس غريبا ان يتساءل الواحد منا فيقول = " وماذا كان موقف
الساميين انفسهم من تلك الحال التي تروى بلادهم تتخبط فيها كالاكرة بين ابدى
صفار اللاعبين وارجلهم " . فالجواب على ذلك = " ان المصائب التي نالت
عليهم منذ سقوط الامويين وعلى البلاد كانت على ما يظهر قد اوهنت منهم
العزائم واضعفت فيهم العزة القوية فجعلتهم يسكنون الى كل غاز ويعنون الى
كل فاتح فيفتنون من كل ذلك موقفا سلبيا غريبا كان ما يحدث عندهم لا يحثهم
منه شيء ولا يتاثرون منه بامر " .

الحالة المذكورة وحسن بنا الان ان نلقى نظرة على السكان فتحللم الى عناصرهم
وادبانهم لتنظم مجتمعهم في تلك الفترة من تاريخهم .

ان اقدم من عرف التاريخ من اهل الشام يتكون من الساميين
(١) الآراميين (٢) والعبرانيين (٣) العرب . اما قبل نزول هؤلاء فكانت البلاد
مقاما لفئات لا يعرف اصلها . وكان الساميون اقوى منهم فتغلبوا على بلادهم
واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهكذا تمت
الغلبة للساميين ولآدابهم وادبانهم (زيدان النعدن الاسلامي ج ٥ ص ١٠)

على ان موقع الشام الجغرافي جعلها عرضة لطامع الفاتحين من الامم
القديمة كالمصريين والحثيين والاشوريين والفرس . وتناطرت شعوبهم اليها ، ولكن
الامر لم يستقم لامة من هذه الامم في الشام كما اسقام للسلوقيين من خلفاء
الاسكندر ، فتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واخذوا يادلبها لا سيما بعد ظهور
النصرانية وهي في سلطة الرومان غير انه طال العنصر اليوناني متغلبا عليها في مواعيل
البلاد كما بقي يضعف في الداخل تدريجيا .

ومع ذلك الاختلاط بقيت الشعوب السامية محافظة على آدابها
ولغاتها وعاداتها وخاصة اليهود منهم في الجنوب ، واما الاراميون فسي
الداخل فتتصروا وانفردوا بأدابهم وعاداتهم .

وعلى هذه الصورة كانت حدود النمام الغربية على الساحل
بغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية ما يلي البادية
بغلب عليها العنصر اليوناني وعلى حدودها الشرقية ما يلي البادية
سكنت عليها العنصر العربي . وكان ، منذ القرن الرابع قبل الميلاد ،
امة عربية عرفت بالانباط ، تنزل وراء فلسطين غربا بجنوب في بقعة تمتد
من شبه جزيرة سينا الى حوران تعرف ببلاد العربية الصخرية ولا تزال
آثار عاصمتها سلم (البنرا Palmyra) باقية الى الآن . وكذلك في القرن الثاني
قبل الميلاد بسط الايطوريون وهلم جبل من العرب نفوذهم على الجهات
الشمالية من جبل لبنان (الكورة وكسروان) وعلى الساحل ما بين طرابلس
وبيروت وظلوا حتى الفتح الروماني ، ولسنا بناميين ايضا ملكة تدمر
العربية باكثرية سكانها والدور الهام الذي لعبته ايام القرن الثالث
الميلادي في تاريخ البلاد وحضارتها . وما ان طلع القرن الرابع
الميلادي حتى كان "ملوك الشام" من النمام في الحولان وحوران .

فسكان الشام عند الفتح العربي إذا كان معظمهم من بني
الاراميين الاصليين وبني الانباط والايطوريين والتدمريين والفساسنة
وبتخللهم جميعهم هناك من ام اخرى غير سامية كالجرجانية في حبل الشام
واخلاط من مولى اليونان والرومان في الساحل ومولى الفرس والاكرا
في الشمال .

على انه لا يعرف على التحقيق عدد القبائل النازحة من
جزيرة العرب ابان الفتح^{العربي} ولكن المؤكد ان اكثرهم لم تكن مما بقى
ان يكونوا السواد الاعظم في البلاد التي نزلوها آنذاك بل كانوا
في كل منفع حفنة صغيرة اذ ما تكون بالخميرة في مجن العمان .

صنع

ذلك لان القبائل التي هاجرت منهم الى البلاد المملوكة لم يكن عددها ليزيد عن نصف المليون من النصارى فى الخمسين سنة الاولى وقد قدر بعضهم من نزلوا الشام مائتين وخمسين الفا ، والشام اقرب الاقطار الى الاختلاط بحزيرة العرب ، ومع هذا فظل عدد العرب فى الشام الى قلة ، ثم حدث فى اثنا الفتنج الاموية والحروب الداخلية ان انتقل بعض الطوائف والجماعات كالنسطالى الساحل فى ايام معاوية والحراجلة الى ادياخر ايام عبد الملك وذلك لباخذوا مكان الرعم الذين نزحوا عن البلاد اذ ذاك .

وهكذا فى اواخر القرن الاول من الهجرة اخذت قبائل جديدة تغد على البلاد فكانوا النواة مع من سبقهم اليها فى تعمير سبب البلاد واهلها ثم اتى اهل الذمة يتعلمون اللغة العربية بحك الطبيعة اذ فتح لهم العرب باب الخدمة فى الدولة ولم يضر القرن الثانى الهجرى حتى غدت الاكثية الساحقة فى القرنين التاليين من العرب وان لم نقل فى الدم والجنس ففى اللسان والثقافة .

غير ان المرأة فى تلك الاثناء كانت قد فقدت كثيرا مما نعمت به فى العهد الاول من احترام وكرامة ، يوم كانت تشارك الرجل على عادة العرب ، فى نضاله ونشاطه العزة فى فخاره ، اذ انزل سبق الرجل ، بعد ذلك ، الى مهاو سحيقة من الانحلال الخلقي بسبب الحوارى والقيان وما تبعهما من نخف وامنياء ، نارت على اثر ذلك المرأة العربية عن العيان وانحذت مكانها فى المؤخرة نهتم بعد الاهتمام بالآداب والعلم وتعنى بشئ غير يسير من التنسك والتصون .

وهكذا بعد ان كانت رهبة الدين وهبة الخلافة فى عصر الراشدين تحولان دون تروى العرب فى مهاوى الشهوات والميلذات حامت دولة الامويين ، واذا بهم ينفعون فى العرب روح العصبية فيحسرونهم بذلك عن مخالطة من يملون امورهم من الامم الا مخالطة الحذر المترفع .

غير ان بعضا من وسائل اللهو ما لبث ان جلب الى الامصار ومنها الى دمشق فتذوقه الخوام من سادات العرب حين اطمان بهم الملك وانقطعت اواصر الفن ، ومن هذه الملهيات الغناء . على ان ذلك لم يستمر بعد ذلك القليبا من ذوى الجاه ^{منه} ، بسهمون في كثير من النجمل والاعتدال وما زالت تلك حالهم حتى كان خليفهم الوليد بن يزيد فانحرف عن سبيل آيائه واجداده الى اللهو والخلاعة والتبذل .

ولم يكن للجوارى في ذلك العهد شان ولا حظ ان لم يتخذن الا قهرا للخدمة او سرارى للاستيلاء وقد كانوا مع ذلك ينكرون على الهجاء - ابنا الاما - ان يطلبوا الخلافة ولو كانوا من بيت النبوة . وهذا ما صرح به هشام بن عبد الملك زيد بن علي بقوله - " بلغنى انك تطالب بالخلافة ولست نعلم لها لائق ابن امة " .

^{بما} فظلت المرأة العربية بفضل تلك العصبية في الذروة والسمام من الاكرام والاحترام ولم يؤثر فيها ^{اشبه} احسنه من مظاهر النعيم ومجالي الترف في شيء من نفاق فطرتها ولا قوة نفسها ولا توفرها على تربية ابنائها لان العصبية استبقت للرجل حمية وحفظت عليه غبرته وعفته والرجل مرآة المرأة

ولكن لم تلبث ان اضطرت احوال الامويين ^{والنات} صفوفهم وتبددت جماعتهم فقامت خلافة العباسيين وقام ^{زير وطبقه الجمع اسير} الفرس ^{مختصون} آخر جذوة من الحمية العربية ونقطمون آخر عقدة من العصبية العربية فاجلبوا عليها بكل ما بوهن النفوس وبصبي القلوب من سماع وشراب وكواكب انراب واغرتوهم في بحر طام من الترف والاسراف ، وما ان انساق الرجل الى الزهو واللهو حتى تبعته المرأة .

فكان للرجل العربي في حياته الجديدة امور صرفته عن تعهده الافضل من بنى قومه ثم ما زالت الصلة بينهما نهن والعقد تحل حتى استنحا هو عدوا لها باخذ عليها مدايح انفاسها ويخصي عليها لحظات عينيها وتبرأت صوتها وخطرات نفسها .

ولعل أوضح مظاهر انحطاط المرأة العربية في العصر العباسي
تحتوي الشعراء عليها واغراؤهم الرجل بها حتى مرتت الالسنه واطمات
الاسماء الى مقالة السوء واشاعة الفاحشة بين الناس ونتمثل هذا في
اقوال الشعراء واذا رحنا نوازن بينها وبين ما كان يقال بها في العهد
الحاهلي وصدر ا سلام والعهد الاموي عندها ادركنا ما وصلت اليه
المرأة من الانحطاط في نظر الرجل وفي نفسها من ذلك الى قول احدهم
في العهد العباسي -

لا بُؤْسُكَ من مخدرة
قول تغلظه وان جرحا
عُسرُ النماء الى مباسرة
والشيء يسهل بعدما جمعا

وقول الآخر -

كان الشباب مطية الجها
ومحسن الضحكات والهزل
والباعث والناس قد رقدوا
حتى ازور حليلة البعل
اما في المهود السابقة فدونك ما يمثل راي الشعراء - وهم
المعبرون عن الراي العام - بالمرأة اذ ذاك -

قالت - ولت تخرجي وصلى
حبل امرئ يوصالك صب
صاحب اذاً بعلى - فقلت لها
القدرئى - ليس من ضربى
نمتان لا ادنو لوصلها
هريس الخليل وجارة الجنب

اما الخليل فلست غادره

والجار اوصاني به ربي

كما ان في صدر الاسلام كان الشاعر بقوا .

ما ضر جاري اذ يجاورني

ألا يكون لبيته ستر

وكذلك كان الشاعر في الجاهلية يقول -

واغتر طرفي ان بدت لي جارني

حتى يوارى جارني ماواها .

وهكذا ما زالت حالة المرأة في تفهف وانزلاق حتى جاء ابو العلاء في القرن

الخامس وراح ينهضها في ذمتها وامانتها ودينها وخلقتها . ولم يدع لها

لمحة من الخير ولا حجب عنها لفحة من الشر وهو الى كل ذلك لم يعد

ما بقوله فيها اهل عصره .

ولم يكف الرجل ان يقصها عن منال العيون وسدل دونها

الاستار حتى راح يتاوا فيما اباح الدين رُوحَةً منها وباله في ذلك المتأخرون

من فقهاء الحنفية . ولم يلبثوا ان تناولوا ايضا في صوتها فقالوا - لا يجوز

لها ان تلبى جبهة . هذا فضلا عن الحيلولة بينها وبين تادية الصلاة جماعة

كل ذلك مما ناوله فقهاء القرن الخامس باسم الدين -

والدين منه براء - ورأى للفتنة وحسما للداء الويل على رايهم .

ولقد افرق الناس في حجاب المرأة حتى قُبِ علىهم ان يذكروا

اسمها . وبعد ان كان معاوية يتحدث عن نفسه الى مجلس خلافته فبدأ

يحدثه بقوله - " انا ابن هند " . وبعد ان جاء شاعر بنو امية بمدح فحل

أَجْمَسَهُم عبد الملك بن مروان بقوله -

انت بن عائشة النسي فَضَلْتُ اَرومَ بنسائسها

بعد كل هذا وذاك اصبح اسم المرأة بعاب ذكره وتخلص

وجوه الكتابة عنه حتى لقد اراد ابو الطيب المتنبي ان يرنى خولة بنت

حمدان اخت الامير سيف الدولة فسماها فعلة -

كَأَنَّ فعلةً لم تملأ مواكبها دبار بكر ولم تخلع ولم نهيب

الحالة الرئيسة الى هذه الحالة كانت قد وصلت المرأة في المجتمع العربي ومنه
الدوامي في القرن الخامس . وكما تعددت عناصر السكان واختلقت اجناسهم
كذلك تنوعت ادبياتهم وتفرقت مذاهبهم فكانت العربية اولا والموسوية
والنصرانية . كما جاء الفتح العربي فاضاف اليهما الاسلام وقد كان ما لبث
هذا ان اتخذ طريقة بينهما وهذا دين الاكثرية من السكان في القرن
الرابع الهجري .

ما لا شك فيه ان العهد العربي في الشام قد امتاز بروح التسامح
التي عمت البلاد ونعمت بها جميع ^{الدينية} ^{الزمنية} من يهود ونصارى .

وكان للموسوية فرقتان - اليهودية والسامرية كما كان للنصارى
فرقتهم وطوائفهم - النساطرة والبعاثية والملكية ثم الموارنة وطالما قامت فيها
المشاحنات والمنازعات والمناحرات حتى كان العهد العربي فاقتر الخلفاء الكنيست
الارثوذكسية وعاشت بغير الطوائف النصرانية التي حكمت عليها الكنيسة قبلها .

واذا رحنا نقابل بين ما كانت الحال بين اهل تلك المعتقدات
من مجادلات ومشاحنات في عهد الروم وبين ما آل اليه امرهم ايام العرب
من تسامح ، رابنا الفرق عظيما واليون شامعا ولا غرابة في ذلك فان الاسلام
قد اقر ما سبقه من ادبان سماوية ووصى باهلها خيرا وترك الخلافات
لهم الحرية الدينية تامة غير منقوصة ، بشرط ان يؤدوا ما عليهم من جزية
طفيفة مفروضة لقاء حمايتهم من العدو وقعودهم عن حمل السلاح بل انها
تركهم وديانهم في احوالهم الشخصية وحاكمهم الدينية وراحت تستعين بهم
في الادارة والكتابة والمالية .

اما ما قبل من عمر بن عبد العزيز من اصداره عيدا لاهل الذبيحة
بخرج به عن تلك الخطة الحميدة وينحرف عن سياسة اسلافه من الخلفاء
فلا نعتقد صحته ونشجبه بشدة انه لم يذكره سوى المتأخرين من المؤرخين
فضلا عن اضطراب في طريقة ابراده . اصف الى هذا وذاك بعده من روح
الرجل وصره (زيدان - التمدن ٤ ص ١١)

لكننا نفر ونعترف بسوء ما اتاه المتوكل والرئيد من قبله والحاكم
من بعدهما غيران لذلك نعللنا بروع الشيعة فيه عن العرب عامة والاسلام
خاصة . ومرد ذلك عندهم الى (١) خلق الرجل منهم خاصة او (٢)
الى احوال طارئة جعلتهم يتخذون ذلك الموقف من المؤمنين .

اما المتوكل فقد كان شديد الوطاة على النصارى ولا نستغرب منه
ذلك اذ لم يكن اقل وطاة على غيرهم ايضا فلقد شدد التكبر على الشيعة
واهلك العلماء والكتاب . على انه لم يرتكب هذا الشطط لغبر داع البسه
فقد حملة على ركوبه انتصار بعض النصارى لاعداء الدولة . وذلك ان
المسلمين من اهل حمص قد ونبوا بعاملهم فلعانهم النصارى عليه فكان
هذا داعيا الى النفقة عليهم (ابن الانبرج ٢ ص ٢٩)

واما ما يقال عما حدث في ايام الرئيد من الضيق عليهم
(ابن الانبرج ٦ ص ٨٢) بالرغم مما عرف عنه من اعتدال ونساج فمرجه
الى ان النصارى قد ساعدوا الروم في الثور)

وكذلك يقال في اضطهاد الحاكم الفاطمي لاهل الذمة من يهود
ونصارى فانه يرجع الى خلفه الخاس وعقله المضطرب والى قيام حرب بين
الروم وبينه يومئذ فتبادل الروم وللعرب تخريب المعابد هنا وهناك فكان
ان امر الحاكم بهدم كنيسة القيامة بالقدس تشبها لما كان فعله الروم من
تخريب جامع كان في القسطنطينية . واذا ما ذكرنا انه قد انزل الحاكم
مثل ذلك في المسلمين انفسهم علنا مبلغ تعصيه وحقه .

وما يشهد بتسامح بعض الخلفاء مع اهل الذمة وتركهم لهم الحرية

الدينية تامة غير منقوصة ما جاء في " الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري "

تأليف الاستاذ آدم قر استاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسرة وقد نقله
الى العربية محمد عبد الهادي ابو زائدة بكلية الآداب الشرقية قد ذهبت الدولة الرومانية

في معاداتها للمسيحيين الذين يخالفون رجالها في التفكير ابعد مما ذهب

اليه الاسلام بالتحية الى اهل الذمة . فلما اعاد الامبراطور نفقور افتتاح

بلاد الشام كان ما وعد به اهل الشام وامهم به ان يحبيبهم من مضايقة

كنيسة الدولة ولكنه رغم هذا الايمان لم يال جهدا في مضايقة البعقوبيين ،
فاضطروهم مثلا الى الخروج من انطاكية " هـ . وقد جاء في نفس المصدر
٦٩٠ = " وكثيرا ما كان رجال الشرطة المسلمون يتدخلون بين الفسوق
النصرانية لمنعهم من المشاحرات ، حتى عين حاكم انطاكية في القرن
الثالث الهجرى رجلا يتقاضي ثلاثين دينارا من النصارى في الشهر
وكان مثروه قرب المذبح . وعمله ان يمنع المتخاصمين من قتل بعضهم
بعضا " هـ . وما يجدر التنويه به في هذا الصدد ما جاء لنفس المؤلف
ايضا ص ٨٧ " لا نجد المؤرخين حتى المسيحيين منهم يذكرونه الا قليلا
من المشاغبات بين المسلمين واهل الذمة في القرن الرابع الهجرى " هـ .
هذا فيما يتعلق باهل الذمة فلنر ما كانت عليه الفرق الاسلامية نفسها .

اما الفرق الاسلامية فكانت في القرن الرابع الهجرى
كما يلي = (١) السنة (٢) والشيعة ولاكثر ما كان بينهما من نضال وقتال
مرده السياسة حتى كتب للشيعة ناسير دولة الفاطميين فنبت التشيع
الذهني رسما . ثم كان ان انقسم الفوم بالاضافة الى سوو الامانة
في ابناء علي بن ابي طالب فكان الاثنى عشريون وكان الاسماعليون وما
ليث هؤلاء ان نفروا مبعدا فكان منهم في الشام الحشاشون والنصيريون
كما كان من الفاطمية الدرزية .

الحالفة الفكرية

بم فتح العرب الشام ولم تكن اللغة العربية جديدة على
اهلها . ولا غريبة عن اسماع ذويها اذ كان الفلاسفة في الحولان وحران
كما كان التنوخيون في الشمال . هذا فضلا عن كان ينزلها من القبائل
والبطون في ارجاء تدمر والفرات وسبنا .
فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر وتبذت الرومية
والارامية . ولم يمض القرن الاول حتى اصبحت اللغة العامة في النظر كله
تقريبا اللهم ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الارامية تستعمل في مخاطبتها
وطوقسها الدينية .

فما ان تم الفتح حتى اخذت العربية تنتشر ونبتت الرومية والارامية ولم يضر القرن الاول حتى اصبحت اللغة العامة في القطر كله تقريبا اللهم ما عدا بعض القرى النائية حيث ظلت الارامية تستعمل في مخاطبتها واطوسها الدينية .

وقد علل ابن خلدون انتشار اللغة العربية بقوله = " لما كان لسان النواة عربيا ، اقبل الناس عليه يتعلمونه لان الناس تبع للسلطان فصار استعماله من طاعة العرب ومار اللسان العربي لسانهم حتى رسم ذلك لغة في البلاد وصارت الالسنه الاعجمية دخلة فيها وغريبة " (الاسلام والحضارة العربية - لكردي علي ج ١ ص ١٧١)

ويرى الاستاذ العلامة فليب حتى " ان هذا الغزو اللغوي كان اعسر عمليات الغزو الاخرى لدى العرب وقد يكون ذلك صحيحا بالاضافة الى فارس واسبانية ابلاد الآرية . اما الاملا الشام بوصفها سامية فلم تبد مقاومة في هذا المردد . اما ما ظل سائرا من اللغة السريانية في بعض القرى في جبل لبنان مثلا - فمردء الى البعد عن مراكز السامية من جهة والحركة الفكرية من جهة ثانية .

ونحسن الملاحظة في ان العربية كلغة تدوين وتالف قد سبقت اللسان في التخاطب .

وقد احتفظت الشام بعد انتقالها الى بني العباس بصفتها العربية واخذت اللغة نحل محل اللغتين اليونانية والارامية حتى غدت لغة العلم ولغة التخاطب العامة ، وعظم حظ البلاد في الادب واشتهر فيها شعراء كبار منهم ديبك الجن الحمصي وابو تمام البحتري وتمثل الحركة الفكرية ابان القرن الهجري الثالث في اتساع حركة النقل من الرومية والفارسية والهندية الى العربية وقد قامت الشام بنسطها منها وقدمت لها نفرا من النافلين نذكر منهم فستان لوقا البعلبكي وحبيب بن الحسن الاغمي الدمشقي وعبد المسيح بن عبد الله الناعمي الحمصي فقد نقل هؤلاء كتبا لافلاخون وارسطو في الفلسفة ولجالينوس وابقراط في الطب كما نقلوا كتباً غيرها .

(١) قدم ابن خلدون ص ٣٢١ - الجزء الرومي في بيروت ١٨٧٨

اللسان السامية المحلقة في سورته ولسانها - حتى فيليب

أما في القرن الرابع للهجرة فمع ما شهدته البلاد من فوضى في السياسة واضطراب في الاحتواء فلم يقو لا هذا ولا ذا على وقف النهضة الفكرية فيها فتملا عن الخلفاء حذوتها بالثبات ناز الفكر مضطربة موقدة . وما إن انتصف هذا القرن حتى ظهر فيه الأدب في مظهر عظيم لم يسبق له عهد بمثله إلا في عهد الأمويين ، ويكفي أن نستشهد على ذلك بما كان يتجلى ما مآبهم في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب حين قصد نواحي الشعراء والأدباء حتى قيل - " أن لم يجتمع بباب أحد من الملوك ، بعد الخلفاء ، ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعراء وأما النثر - " ولا عجب فالسلطان سوق بجلالها ما ينفع لديه " وقد كان رب القصر نفسه أدبياً فاعرا محبا لجيد الشعر فردد الاهتزاز لما يسمع منه .

هذا في الأدب ، أما العلم الدينية فقد ظهر فيها نقى ففى
المائة الرابعة بعد الهجرة على قوا السيوطى وغير أن العلم المادية كالطب والهندسة والفلك فقد تبحر فيها فحول وظهرت بها نجوم تذكر منهم أبا الحسن كسكرابا الطائيب العالم وعيسى الرقى المنجم (١) وأما القاسم علو بن أحمد الانطاكي وكان رياضياً مهندساً . ومن المهندسين الرياضيين المحبوس الانطاكي كما أن نبيه في الحفرافنة والتاريخ محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المعروف ببالعندس ، صاحب كتاب " أحمد القاسم " وكان لقبه الماروني كتاب حسن في التاريخ (٢) ومن ازداد بهم بلاط سيف الدولة وعقدوا مجالس العلم والمناظرة فيه ثم انتفا معه الم دمشقي المعلم الثاني فيلسوف العرب أبو نصر محمد الفارابي .

أما القرن الخامس للهجرة فقد امتاز بان نشأت فيه طائفة من الرجال الذين عنوا بالفلك ، والعلم الرياضي والطب فكان من نشأ منهم في الدبار الكاشية أبو الفنا الحارثي الدمشقي المهندس الرياضي العالم بالحساب والطب ، ومحمد النيسراني الدمشقي العالم بالحساب والنجوم وعلو المصلحة والطب وجورجر بن يوحنا البرودي العالم بالطب .

(١) وكان عيسى بنقل من السريانية الى العربية (٢) الخططح ٤ ص ٢٥

ولعلم اعظم ما يفاخر به هذا القرن نبوغ ابي العلا احمد بن
سليمان المعري التنوخي حكيم العرب واديبهم الاكبر .

ومما يحسن التنويه به في هذا الصدد ان القاضي جلال الملك
ابا الحسن علو بن محمد بن احمد بن عمار قد جدد في طرابلس دار العلم
في سنة ٤٧٢ هـ . فشرع التعليم والاداب وامسك الراس بفصلها مائة علم
ودرس ومباراة في التعلم .

ولقد استلزم تلك النهضة الادبية العلمية جمع الكتب وتأسيس
المكتبات حتى صار في كل جامع كسر مكتبة واحد السلاطين وامراء بنسابقين
في ذلك .

ولعل اول خزانة للكتب العربية في الشام قد انشئت في دمشق
ان شاء الله تعالى " مروان " خالد بن يزيد الاموي المنوف سنة ٨٥ هـ . وان لم
يصح البناء فهو كثير من اخبارها ، فانها كانت تحوى بعض الكتب التي نقلت
الى عن النجاشية والسجستاني (الروية) والسرياني في الكيمياء والنجوم والطب
ولربما كان فيها بعض من كتب الجغرافية لانه ثبت ما قاله ابن المنبدي
عندما زار خزانة الكتب في القاهرة في سنة ٤٥٣ هـ . انه كان فيها كوة من
نحاس من عمل بطليموس وقد كتب عليها حملت هذه الثروة من الاثر خالد
بن يزيد بن معاوية (المهدية في ذلك كله على الجماعة محمد كرد علي
في حططه ج ٦ ص ١٨٩)

وجاء القرن الثاني للهجرة والشام تنقى باعظم فاجعة سياسية
في تاريخها وذلك بسقوط دولة بني امية وقيام بني العباس فلم يوتر عنها
انه كان فيها خزانة كتب كانت الكتب تحبب ان ذاب في السوامع او
في بعض الدور الخاصة (نقر المؤلف) .

ثم ان الشام لم تعرف دار حكمة مع دار للكتب كالتي انشأها
المامون في بغداد او دارا للعلم مع خزانة للكتب كالتي انشأها الحاكم ابو
القاهرة الا في القرن الخامس عندما انشأ منسجما بنو عمار في طرابلس وكذلك
كان في كل من تفرط والمعدة في زمن حكمها خزانة للكتب وقد زارها كما
زار خزانة طرابلس . وهذه كانت قبل بنو عمار بمدة لابن الفضا بنو عمار

لم يستولوا على طرابلس الا بعد الاربعين واربعمائة ٤٤٠ هـ . وكان ابو العلا قد زار طرابلس قبل هذا التاريخ وانتفع بخزائنها وكتبها الموفرة .

وكان ابننا في جامع حلب الخزانة كتب مهمة في زمن ابو العلا المعري وقد ظلت هذه الخزانة عامرة الى القرن السابع ولم يعلم ما اذا كانت الخزانة الكبرى التي انشاها في حلب الامير علي سيف الدولة الحمداني وجمع فيها من الكتب الامهات كانت عامة للناس اينك كخزانة الصوفية ام كانت خاصة به بجماعته في قصره وكذا اشتهر عنه ولع بالكتب عظيم . وربما ذهبت هذه الخزانة وغيرها في هجمة الررم على حلب وتخريبهم قصر سيف الدولة .

وقد قلت عنابة الملوك بخزائن الكتب عندما كثرت المدارس في هذه الديار في القرن الخامس كثفا بخزائن الكتب في المدارس التي انبتوها من حيث انها بذلك امر . ولم تكن لتخلو مدرسة من المدارس في الشام من خزانة كتب . وكان لحلب ودمشق والقدر وهي من حواضر العلم الحظ الانوفر من ذلك . غير ان طرابلس نازعتها هذه المكانة لوجود معمار للوزة الجيد فيها (الخطط ج ٦ ص ١٩٠) وهذا بقودنا بطبيعة الحال الى درر المدارس .

لم تكن المدارس في الشام من ابتداء الحرب بل كان سبب لهذه البلاد ان عرفت المدارس من قبل بدليل ان المسلمين كانوا في دمشق يشاركون النصارى في مدرستها التي كانت تخرج رجالا في الدين والعلم والادب ويظهر ان المساجد ظلت للعبادة وتلقى القرآن وعلومه والحديث وفنونه وعلم اللغة وتفرعاته وما ينشك بذلك كله من المطالب التي فيها فبام امرهم حتى منتصف القرن الخامس الهجري يوم انشا في دمشق رابن نايض بن نما شاء الله ابو الحسين الدمشقي مدرسته المعروفة بالزانية سنة ٤٤٢ هـ . وكان الحسن بن عمار قاضي طرابلس للفاطميين قد سبى له ان اسر فيها دار حكمة او ديه مدرسة جامعة علو نحو دار الحكمة التي انشاها الحاكم في مصر سنة ٤٠٠ هـ . وقد غدت طرابلس في النصف الاخير من ذلك القرن بفضل دار

الحكمة ديبها ، كعبه المتعلمين كما كانت حلب في القرن الرابع على عهد
سيف الدولة كعبه المتأدبين .

ويجب ان ندرك ان هذه المدارس كثيرا ما كانت لتلقى
العلوم الدينية وما تستلزمه من فنون لسانية . اما الطب والفلك والهندسة
فكان لها جميعها جامعات خاصة بها . وهكذا نرى ان المدارس في الشام
لم تعرف على سورتها الحاضرة الا على يد ملوك الطوائف فيها من اترك
واكراد وان بدأت في القرن الخامس وكثرت وتعددت في القرون التي
تلت ودراستنا لها تتعلق في غير ما نحن بصدد الان .

الحالة الاقتصادية - ومن مميزات الذهب الثامي انه مهما نالت عليه المصائب
وتخللت في بلاده فوضى الادارة وارهقه حكامه بالضرائب فانه يبقسى
مالكا لا لنشاطه ، جادا في العمل ليكسب عيشا رغيدا ويحيا حياة طيبة سعيدة .
فلعل الفضل في ذلك يرجع الى خصب اراضيه وعتدال
مناخ بلاده ، ووفرة الانهار فيه وتدفق مياه بنائمه . وقد عرفنا فيه تلك
الحبوبة وذلك النشاط منذ ابعد عصور تاريخه . عرفنا فيه الزارع النشط
والصانع الماهر والتاجر الدائب .

ولما جاء العرب بعد الفتح وظهر ما اظهروا من حب الاستقرار
والاخذ باسباب جاة جديدة يتوفر فيها التعمير ورغد البعث جعلوا قانونهم
من احيا ارضا مواتا كانت له . . واطرد ذلك عندهم ان اغتسلوا بها وحدوه
من الخصب في هذه الربوة بالاضافة الى جذب بلادهم وبواديها المحرقة . فكان
لذلك منهم من الانتر البليغ ما انطق شاعرهم في عمر يوم فتح اسلابة (القدس) بقوله -
والقت اليه الشام افلاذ بطنها وعيشا خصبيا ما تعد ماكله .

وما ان تربعت امة في وسط الحكم واخذ آلهم ورجالهم بقتون
المزارع وبالقرون في اتخاذ القروم والزروع المنمرة حتى جعلوا القرى مستغلات
لهم وتنافسوا في ذلك حتى لا تبقى ارض شاذرة لا تستغل فانزل معاوية
قوما من القروم في طرابلس واتخذ هشام بن عبد الملك السماء والمزارع وهو
اول من اشق انهارا كثيرة عززها منها النهر الذي فوق الرقة وغرس غرسا
كثيرا بالحزيرة والشامات حتى بلغت غلته اكثر من خراج مملكته .

وما زالت غنابة الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء يتمتعون الارض
منقورة حتى اهتزت ريت وقابضت وغلت فافتتو اهلها وانثروا . وآية ذلك
انه بالرغم من كل ما جباه ولاية الفاطميين وعمالهم من الضرائب وما جمعه
من الثروات الضخمة ظل اهلها في بحبوحة ورغد من العبد . ببغتان فسي
النفوس الدهشة والاستغراب (لائفسر ج ١ ص ١٥٠-١٥٨)

وما اشتهر عندهم من اصناف الزروع والاشجار جميع الغلات النفيسة
القطان والسمن والكرم والتين والزيتون والفسطاط والسماة والتخيل وصنوف
الربان وانواع التمور وقد ذكر بعضهم ان التفاح اللبناني موصوف بحسن
اللون وطيب الرائحة ولذة الطعم (الخطاطح ٤ ص ١٦٥)
هذا فضلا عن الحبوب والرباحين كالآرز والورد والفرج و البنفسج
والنسرين .

وما كانت الشام تنعم به في تلك العهود من الاشجار
غير المثمرة = السرو ، والصنوبر والارز والعمر . ومن احراجها (١) غابة
عسقلان (٢) غابة ارسون (٣) ورج القنيطرة (٤) وفي اطراف حلب عدة
غابات يقال لها الزور (٥) غابات لبنان (٦) غابات عكار وجبال النصيرية .

هذا عن الزراعة اما الصناعة فلم تكن اقل حظا من غنابة
القوم بها ومهارتهم فيها وقد عرف الشاميون من اخذوا النام بالصناعات
علي اختلاف اديانها وتبوءاتها لها فاخذوا - معظم المدن والبلدان - فسطحها من
تلك الصناعات = النجارة والحدادة والنسيج فاشتهر القطر منذ القدم ببزده وقماشه
وساحبه وحزوه وبروده وهناك من لصناعات الهامة اولا = الفخانة والحدادة
والنحاسية فاشتهرت كبر من مدن الشام بصناعة القباية او عمل السلاح وذلك
لان الحديد متوفر في حلب ولبنان وسبوف دمشق لا تزال يفاخر بها لفنن
الصباغة فو صنعها وكذلك لصنا ناسين الزراعة وقد عدها التعاليم من حوائج
الام وقال انه يضرب المثال في الرقة والصفاء بزحاحها فيقال "ارق من زحاج اظم"
وقد اشتهرت صور منذ القدم بزحاحها كما كانت مداما الزحاج فو حلب وارناز
مشهورة ، تصدر منه الى العراق وسبهاو به فو قصور الخلفاء وما اشتهرت
بتلك الصناعة الثمينة عكا والخليل والرقة .

ومن الصاعات التي كانت تجود في دمشق وحلب من دون سائر المدن الشام صناعة القيشاني ومنه نمودج في جامع تنكز مكتوب عليه آية التوحيد (الخطاطح ٤ ص ٢٤١)

وفي أيام بني أمية نقلت صناعة الورق الى الشام والغالب من البلاد اخذت فيما بعد في صنعه في دمشق وطبرية وطرابلس وحماه ومنبع وكان ينقل منه الى البلاد الاخرى كبات كسرة من دمشق وطبرية على ما ذكر المقدسي . وكذلك من الصناعات الرفيعة كالصبغة ولعل الشام مدينة بها الى الفاتحين العرب ان هادنهم الملوك في آسية واقريقية واغلب هذاياهم الحواري الكريمة والذهب حتى امتلات منها زائنهم فراح الخلفاء يهدون منها القواد والامراء والاطباء والعلما والشمراء والعقبا فكانت في ايديهم وزادت بطبيعة الحال في ابدى الصاغة . ويمكن ان نعد في جملتها طبع الدراهم وضرب الدنانير فان الشام كانت من اول الافطار التي سككت النقود وكان نسج الحرير من افضا صناعاتها وقد رآي ناصر خسرو الجغرافو الرحالة في القرن الخامس الهجري حصرا من هذه الحصر الطبرانية تستعمل للصلاة عليها وتساوي الواحدة منها خمسة دنانير مربية ونحتوى بهذا القدر عن الصاغة لتتقدم الى التجارة .

ان لبلاد الشام من موقعها الجغرافو بين القارات الثلاث ومن نشاط اهلها في الزراعة ومهارتهم في الصناعة لا عاملا كبيرا في اخذهم بالنجارة واساسها والعمل على توسيعها وتنويعها . ولقد عرفوا بذلك منذ القرون الاولى في تاريخهم .

والعرب كجميع الساميين نجار بالطبع ولضعف زراعتهم اخطروا منذ القدم الى الضرب في الارابيا للرزق فكانوا يوثقون في الشرق والغرب بخدمة الرعي والاثراء .

وما ان تفتحت امامهم ابواب الشام وغيرها في القرن الهجري الاول حتى اتسعت الدنيا لديهم وراح الخلفاء والوزراء ثم الملوك والامراء يشتقون الطيرة ويستنبطون المياه على اوا الطوب الى ام النار تسهيلا لتأدية فريضة الحج ،

ومندوبون الامن والرحمة فيها فكان في ذلك كله افادة للتجارة اى افادة .

ثم ما لبثوا ان ضبطوا حساباتهم بفن مسك الدفاتر وشرحوا
الكفالة وانشأوا المصارف للفقراء وكنت تراهم حينما نزلوا مهدوا السيما وامنوها
وعصروا المرائيم واصبحوا الفر وانشأوا الفنادق والرباطات ورسوا سائر القوافل
فكانت طريقها من الشام الى مصر على الكرك او على غزة ورفح وكانت
دائمة محط رحال القوافل الذاعمة الى بلاد الروم والحزرة الفراتية فسي
طريقها الى مصر او بلاد العرب او العائدة منها .

غير ان الشرمانين الرئيسين للتجارة العالمية في ايام
المقدس كانا دجلة والفرات وكان على شفة الاخضر الزينة منهما قرصتان
مهمتان الرقة والبصرة وبسمر الاسطخر هذه مربا الثوم . وفي هذا برهان
قاطع على ان النجار الثوم كانوا متحصنون هنا عند تخوم بلادهم ففى
القرن الرابع الهجرى ليبحروا سلعمهم اما الى الشرق الاقصى من طريق
بحر الصين كما يسمى المقدس الخليج الفارسى واما الى البحر المتوسط من
طريق حلب مركز تجارة الامال ومنها الى انطاكية ففرصت السويدية .

ولم يكن العرب بالتجارة البرية بل راحوا يعبرون التجارة
البحرية ايضا الشيء السر من هناكهم فرتوا الى ناعا البحرية ووسعوا القوافل
لحقوة الملاحة وانفسوا الموصلة من الصينيين وفتحوا بذلك امام بضائعهم
افاقا جديدة امتدت عبر البحار والمحيطات المعروفة لديهم اذ ذاك .

وقد كانت مراكب صور وطرابلس والسويدية تغلغ بالتجارة الى
سواحل البحر السلطانية وخليج البنادقة ويبحر بنظم (الاسود) وحزائر
قبرص ورودس واتريطر (كروت) .

وكانت صادرات الشام كما يلى = من فلسطين: الزيت والزبيب
والخروب والصابون والحبوب والمرايا وتقدور التناديل والنيل والمبحور^{لحم} والحبوب
والخرقان والعسل والكافور والبنز والارز .

ومن قدس (حمص وحماة) كانت تنقل الثياب والحبوب ومن صور
وطرابلس السكر والخز والزعج .

ومن دمشق الدباج ودهن البنفسج والورق والجوز ومن حلب القطن
والثياب والمغرة ومن بعلبك الملايين .

وما ذكره ابن بطلان من اهل القرن الرابع عن عجائب حلب قوله -
" ان في قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره
الف دينار ، يستمر ذلك منذ عشرين سنة الى الان " هـ .

وكانت التجارة في القرن الخامس زاهرة جدا حتى ان جعفر بن علي
الدمشقي قد قسم النصارى الى ثلاثة اصناف وهم - الخزالي واسيركاهي والسحيزي .

ولكي نتصوركم كانت حركة التجارة بين انطاكية وحلب قبل الحروب
الصليبية نورد ^{هه} تلك الخبر التالي على سبيل المثال - نحن نعلم ان الروم
في اواخر القرن العاشر للميلاد قد تغلبوا على المسلمين وانتزعوا منهم انطاكية
وما حاورها وانهم قد احتدوا بها حتى ١٠١٤ م ولكنهم ما امكنوا استولوا على
ذلك حتى ازاحوا عن حلب سيف الدولة وساعدوا مختصين من الرعية للقبض
على ازمة الامور فيها . وقد حدث لنا كمال الدين مؤرخ حلب البنود الرئيسية
للمعاهدة التي عقدها حكام حلب مع حاكم انطاكية في شهر صفر ٣٥٩ هـ .
وكانت في الاواسنة ٩٦٩ - كانون الثاني ٩٧٠) منها - (١) لا يجوز اعاقسة
القوافل الرومية في طريقها من انطاكية الى حلب بل بحسن حمايتها حتى
تختار طريقها بامان . ثم يذكرون شروطا لتحديد الرسوم الحمركية عن البضائع
فمبيد في هذه القائمة - الذهب والفضة وحرائر الروم والحرير الخام والحجارة
الكريمة والافنسة والكتان .

وفي سنة ١٠١٦ م كانت مراكب باربي تنقل فواكه وبضائع اخرى الى انطاكية

التي كانت قد انتقلت الى ايدى المسلمين . وفي الاربعين سنة التي سبقت

الحروب الصليبية كان بين الشام واماثي علاقات تجارية (٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ١٠٠ هـ)

هذه لحظة موجزة عن اقتصاديات السلم في القرنين السابقين للحروب

الصليبية فمنبين منها مقدار الثروة التي كانت البلاد تنعم بها وسنة الرقي

الاقتصادي الذي وصلت اليه بفضل نشاط اهلها وبذكايمهم . ولكن كيف انفق

الناس تلك الثروات وفي اي وجوه العمل صرفوها **لافتنا** اعتدنا ان نرى الانسان

إذا ما ارتقوا واغتنى ابتدع اجتدع حاجات بنفث في سبيلها ماله واخترع
الوانا من الحياة بحد فيها ذكره فما هو تلك الطرق وما هي تلك الالوان
التي اوحدها الشاميون ان ذاك فانفقوا في سبيلها اموالهم وخلصوا بها
كرم .

لا شك ان الفنون الجميلة من الوسائل التي اتخذها الانسان
للتبرع عن حاجات نفسه وللترفيه عنها وادخال السرور عليها او دفع الحسرة
والهموم عنها . فلنر ما اذا كان ^{انبي} حظ منها .
الطبي

الفنون الجميلة - ان للباء في سبيل الترفيه عن انفسهم لمنا واساليب
تتخذونها بوقعا للهمم او جلبا للغبطة والسرور .
وما هذه وتلك في الحقيقة سوى الفنون الجميلة او الصنائع النفسية
والاداب الرفيعة كما ^{ان} بعضهم ان يسميها . ففنها ما يستعمل الالوان والاوزان
تحفنا لذاته وهذا ما يدرج بالموسيقى والذنا ومنها ما تكون الاشكال والالوان
ادواته في الوصول الى غرضه وهذا هو فن التصوير او النحت او البناء ،
ومنها ابرما ما يتدرج بالكلام الموزون او الدارة النوية للتمسر عن حاجات نفسه
وهذا هو الشعر والفصاحة .

ولم يشد الشاميون في مختلف عهود تاريخهم عن هذه القاعدة
الهامة وان تفاوتت فنونهم قوة ، نفعاً وتقليداً وخلقاً حسب الاروف التي مرت
بهم في ادوار تاريخهم الطويل . فقد عرف عنهم منذ القرون الاولى انهم اهل
المزج وشدة بالذنا والموسيقى ولا عجب فلهم من دقة الاحساس عندهم وجمال
الطبيعة في بلادهم مبرر لذلك ومشجع فيه .

وما ان استقر العرب في هذه الديار بعد الفتح حتى رأيناهم
يقبلون على ما كان عند اهلها من هذين الفنون الساميين وبعد ان اطمأن بنو
امية في الحكم كان في حملة ما دخل عليهم في حمانهم الجديدة الغنا على
صورة كاد لا يغنى ولا ينبدل " حتى ان معاوية كان يستمع ولرب وسحر في
محلسه واذا لفتوا نظره الى فعله قال = " كل كرم طروب " ثم توالى الخلفاء
من بعده بأخذون به حتى ان عمر بن عبد العزيز قد دونت له فيه صنعة
وكذلك كان لبزيد بن عبد الملك .

وهكذا ما فتى الفن يتقدم فى الصنعة ويرتقى حتى ذكروا انه
كان فى سائر اللغات من اهل الرفاهية والسعة ممن كانوا يشتغلون الى سماع
الاغانى ويخلعون على الرجال والنساء من ارباب الموسيقى والغناء .
ومما بدا على مبلغ تقدم الموسيقى فى العلم ايام سيف الدولة
الحمداوى ما يلى = حاشا ابو النصر الفارابى الفيلسوف الى الدائم على عهد
سيف الدولة فادعته ومن عنده من الموسيقيين علو انقائهم لها . وقد وصل
فى علم صناعة الموسيقى وعملها الى غاياتها كما صنع آلة غريبة يسمع عنها الحائى
بدبعة بحر بها الانفعالات .

وقد ذكر المؤرخون من تنافس سيف الدولة مع الوزير المبهلى للاستئثار
بمغنية اديبة مشهورة ما يدل على مدة ولع القوم بالموسيقى .
ولم ترحل الشام تخرج فى فنى الموسيقى والغناء رجالا ونساء كانوا
بهجة عمورهم ومنعة اجبالهم . وكان من البارعين فى هذا الفن من علماء العلم
فسطا بن لوقا البعلبكي وصلى الدين عبد المؤمن .

وكذلك التصوير فن جميل براد به التعبير عما تفعل به نفس
الحماة من احاسيس وقد عرفه الشيخ محمد عبده بقوله = ^{انه} سرب من الثمرى
ولا يسمع .

ولما استقر الفاتحون من العرب فى الشام نهجوا فى التصوير نهج
البيزنطيين والفرس واستمروا على ذلك مدة . واول ما عرفه التصوير به دثد كان فى
زمن الوليد وذلك على الدان ان اكنونة من صوّروا له ما اراد من الحيوان والنبات
والشجر والمدن والاشياء كانوا من الفرس والروم الذين دخلوا فى خدمة الدولة
الجديدة . وقد عثرنا فى قمير عمرة القائم علم سبعة كيلومترا من قصر العشي
(المشقى) فى اللغات على كثير من النقوش الزراعية والنقوش العجيبة التى تاخذ
بالابصار .

وبلاحظ ان العرب لم يخالفوا البيزنطيين فى التصوير الا بعدم تجسيم

الحيوان .

وبعد ان ترجمت لهم كتب الفنون والضاعات من الروم والفرس والقبط
والسرمان والهند منذ اوا النصف الثانى من القرن الهجرى الاول سرعوا بيزنوس

كتبتهم ببعض الصور يتخذونها لتعنيها المسائل العلمية للابصار .

واخذ النعم نفوس الفسيفساء من الرزم وبالفوا فيها ثم جودوا عملها وكانت في الجامع الاموي قبل حريقه الاول في القرن الرابع الهجري ملونة مذهبة تحوي صور اشجار وامصار على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة . وقل منجراو بلد مذكور الا وقد منا على تلك الحيطان (المقدسيه ص ١٥٧)

وكان الحرب في الشام تلامذة الرزم في البناء ايضا اذ كان بين ابنيتهم الاول واخيه النصارى شبه كبير ولكن ما لبثوا ان اندأوا في القرون التالية اذ تدا على ذوق جميل . وكان من مبانيهم ، فضلا عن القصور والحوام والمدارس الكبرى في حلب ودمشق والقنس وغيرها . والقليل الباقى منها السرى الان شاهد على ما كان للمهندسين الشامى من حسن الذوق .

وقد رأى ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس ان البيوت في طرابلس كانت ذات اربع طبقات او خمس واحيانا ست طبقات ، وذلك لعمى ظاهرة فريدة تدا على مبلغ تاور هذا الفن في الدبار العالية وعلى الدرجة الرفيعة التي وصل اليها علماءها من التقدم فيه .

وكان الساميون منذ ابعد عصورهم التاريخية معروفين بنموهم الادبي ، ولذا لما اخرجت مدارسهم القديمة في نصيبين والرها وبيروت وانطاكية ادباء همزوا النجوم بحطيمهم ونمائداهم وقد كنسوا هذه الفئة في عهدوها العربية ولا عجب فان لاسيعة البلاد انرا بينا في الاندهان والقرايح واكثر ما يجيد الشعراء في بلد صح مناخه ، وطابت تربته وكثرت غلاله . وهذا كله موفور في الفطر الشامى . وقد كان شعراء عرب الشام وما يقاربها اشد من شعراء العرب العراق وما يحاورها في الحاهلية والاسلام . هذا ما قال به النعالي وقد علمه بقوله - ترجم ذلك لسلامة السنتهم من الفساد العارض لذيرهم بمحاورة الفرس وانط ، ولما جمع شعراء العصر من اهل اشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكا وامراء من آل حمدان وغيرهم ممن شرفوا بالادب وجمعوا بين آداب السيف والقلم اتبعنا قرائحهم في الاحادة فنادوا ^{محمدا} ^{عليه} السلام كآئين زمام واحسنوا وابدعوا ما شاؤوا " هـ .

وكان أبو بكر الخوارزمي قد دَخَلَ بلاد الشام في صباه وظالما
قال: وهو أحد أفراد الدهر وأمره أنْشُرَ والنَّامُ "ما فتى قلبه ورحد فهمه وصل
ذهنه وأرهف حد لمذنبه. وبلغ هذا المبلغ في الآثام الدلائل الدامية واللوائف
الحليبة التي عكف بحفظها وامتزجت بأجزاء نفس^(١)ه. وكفى بهذا مأمدا على
صحة ما للشاميين من يد تذكرهم فن التصوير باللسان والقلم .

تلك حال المجتمع الشامي غشبة هاجمه جموع الصليبيين فلنرى
ما كانت عليه حال مجتمعاتهم حتى نتبين الفرق بينهما ونستطيع الوقوف على ما
أخذه كل منهما من الآخر .

(١) الخطط ج ٤ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

٢ - المجتمع الغربي عشية الحروب الصليبية

انظر الامبراطورية الرومانية في نشوئها - عجز الامبراطورية من صد القبائل
عن تخومها - الحالة الفكرية - الحالة الدينية - الغزو الحرمانى
- الدولة الفرنجية - النلاء والملكية - حاجب القصر والبلو الكسالى -
بيسمن وانتر حكمه - شارلمان والبابوية - الانظام والمنازعات - الالبام الحرم-
شارلمان والحركة الفكرية - الفروسية ومشائها . -

٢ - المجتمع الغربي عشية الحروب الصليبية

ليس من السهل ان نتفهم حالة المجتمع الغربي عشية الحروب الصليبية
ما لم نتغلغل في اصوله البعيدة ومن ثم نتقدم في دراسته حتى ند الفترة التي
سبقت بقليل الحروب الصليبية .

ونحن مضطرون الى مراجعة تاريخ الامبراطورية الرومانية في اواخر ابامها
يوم اقام الحرمان ولا سيما الفرنج منهم ممالكهم على انقاضها .

ففي مطلع القرن الخامس الميلادى لم يكن في غربي اوروبا من دولة
بالمعنى الصحيح بل كانت البلاد التي تشمل اليوم انكلترة وفرنسة واسانية وإيطالية
تشكل آنذاك رفعة واحدة يحكمها الاسراخور وعماله ومولفوم . اما حرمانية فكانت
ما تزال اقلما تغلبه الذات وتقيم فيه قبائل حرمانية من انصار المتوحدين .
وقد حاول الرومان عبثا ان يفتحوا هذا الحز من اوروبا فاساروا الى الاكتفاء بان
يقيموا تلك الحمى الحرمانية خارج الحدود الامبراطورية وان يصدوها عنهم بنثر القلاع
والحصون ، يقيمونها على طول مجرى كل من الرين والدانوب .

وقد يتساءل البعض منا فيقول * وكيف تعطل اذا ضعف الحكومة الرومانية
وعجزها عن صد القبائل الحرمانية عن حدودها مع تفرقهم وانعدام الوحدة في
صفوفهم ، بعد تلك السلاوة التي كانت لها حتى كاد بعض النابر يتوهمون انها
باقية ابد الدهر . * حقا انه من الصعوبة بمكان ان يلقى هذا السؤال جوابا
شافيا . غير انه يظهر ان للام كما للانفراد معدلا من الحر اذا ما بلغته كان لا
بد وان تعمل عوامل الهرم في جسم الامة فتهدمه . وهذا ما حصل للحكومة
الرومانية ان سكان الامبراطورية كانوا قد اخذوا يفقدون بالتدريج حيويتهم بل

والثقة بانفسهم والثالي رفاهينهم ورخاؤهم وذلك منذ القرن الثالث بعد الميلاد
مؤ ومرّد ذلك الى الاسباب التالية = (١) نظام الضرائب الجائر الذي كان
يتمتع مالبة التاجر والصانع والمزارع حتى افقدهم كل ثقة وانزل في اكثرية
الحايفات الغنية المنتحة الدمار . (٢) انتشار الوباء وكثرة الرقيق الامر الذي
حط كثيرا من قيمة العما مهما كان ثريفا ثم هدم عند لعامل معنوياته .
(٣) التناقص في السكان الناتج عن قلة المواليد وكثرة الوفيات للاسباب النسي
ذكرناها . (٤) تسرب المراهرة الى قلب الاسرطورية وتغلغلهم في انحاءها نسم
تصبيدهم فيما بعد الطريقة بذلك لفتت القسم الذريع منها امام احوانهم الذين
كانوا قد تخلفوا وراءهم .

الحالة الفكرية . تلك كانت الحالة العامة في اوروبا في القرن الخامس غير
ان ذلك لم يكن كما ما بلغته الامبراطورية من الانحلال في القوى والتدهور
في الثروة والثقة في العقيدة بل ان تشاؤل انوار العلوم والآداب والفنون
قد اجد ما بينها آنذاك وبين ما كانت عليه في عصرها الذهبي فان الثروة
امام تسلطها كانت قد فقدت كثيرا مما كان لمتلها من الروعة والحلاا اسام
تراجعا قويا . ولم بعد ينبغي من كبار الشعراء وبيون الادب امثال شيشرون
وتاسيت وغيرهما احد ان انحطت هذه الآداب الى درجة لم يخلوا بعد نجد
بين القراء من يكلف نفسه عنا البحث عن عبون الكتب في الشعراء والنثر
با كما ما كان يصوب اليه نفسه ان يجتري بعض المتفيسات الادبية واما ما كانوا
يسمون علماء فلم يكن في الحقيقة اكثر من بيايا ملخصات وتعليقات ومشروحات
لا تسمن ولا تغني من جوع .

الحالة الدينية = لقد كانت النصرانية منذ القرن الثاني للميلاد في ذلك
العهد قد بدأت تحدد طريقها الى قلوب الغربيين حتى غدت ثقة وحما لوجه
مع الوثنية عندهم وقد شيعها احداهم = "بحيثيين يتفاد في نزاء هضبت هذا
في بادى الامر غير انها ما لبثتا ان اصبحتا كسهرين يلتقيان لكل منهما ما
عنده مع الاخر .

ثم ما عتَمَّ معتنقو الدين الجديد ان اخذوا بشعرون بقيام
كنيسة عامة شاملة (كانولب) بقم فيها رجال الاكليروس بجميع الامور الادارية
المتعلقة بالعلمانيين من الشعب فكان لها في ذلك وفي موقف الاباطرة المتأخرين
منها ما جعلها تعبت وتعبت بعد ما سقطت الامبراطورية وراحت تنوب مناب
الحكومة فيها وتحفظ اللغة اللاتينية بين من لم يكونوا يحسنون سوى لهجسة
همجية من الجرمانية وقد حافظت ايضا علم شس قليا من المالبب التربية والعلم
حتى في احلك ايام العصر .

الذو الجرمانس . وفيما كانت جموع الجرمان تسير جهدها لاقتحام حدود
الاسراورية امان القرن الخامس اذا باليون من المغول تضاعف ضغطها على
القوط الذين منهم وتدفع بهم الى داخل الامبراطورية حيث ينشرون الذعر
في ارجاء غربي اوروبية . غير ان المصيبة ما لبثت ان وُحِدَت بين الجرمان
والرومان وراحوا ينزلون في العدو المشترك هزيمة منكرة في سالون سنة ٤٠١ م .
وبعد ان توهم الناصر ان شعبا جديدا سبخر من اختلاط
الرومان بالجرمان اذا بشيء من هذا لم يكن واذا باوروبية تغرق في ليل بهم
تضائلت فيه انوار الفكر حتى انطفأت حدوتها في القرون التالية فساد غروب
اوربية عصر طويلا من الظلام الحالك اتفق المؤرخون على تسميته "بالعصور المظلمة"
امتد خلال قرون ثلاثة اخرى ما بين السادس والتاسع ^{قليا} برز فيه ادب واحد
او كاتب واحد بولف حتى ولو بلغه ركبة لا تنبه تاريخا للعصر . فقد
غدا كل شيء ان ذاك يعمل على قتل الافكار وما بقي من اساليب التربية
والتعليم ولا عجب فان جميع مراكز الثقافة القديمة من فرائحها الى روميسسة
الى الاسكندرية فبيلانو كانت قد عمت فيها يد الدمار او انفتت فيها اثناء جذوة
ذلك الى حين . وكثيرا ما قضت جموع البرابرة على المكتبات التي كانت قد
نقلت الى المعابد لتحفظ كما تعني ^{ففي} على شعائر الوثنية المنحسرون من النصارى
وقد سرهم ان يروا مخلفات الوثنيين الفكرية شاكلها النار هي وديانهم .

الدولة الفرنجية - وفيما كان غربي اوروبية يعانون تلك الازمة الاجتماعية مشثلة
في انحلال اقتصادي سياسي ونسوب فكري وفوضى شاملة واضطراب عام كان يقوم

في الحزب الرومانية حفة من الحكام في كل من *دارلنده* و*اسكتلنده* و*انكلتره* وويلز، با ان ايطالية نفسها لم تكن اقل تحزوا ولا اقل فوضى مع وجود البابا اقوى حاكم فيها . وكذلك كانت اسبانية قد وقعت فريسة الفتح العربي لما سادها من انقسام سياسي ومنازعات دينية . غير ان العرب ما كادوا يحنازون حال الرانس الى غالبا حتى قابلهم الفرنج وصدوا لهم في سهل *بواتيه* . وكانت تلك الهزيمة التي الحقوها بهم والتي تفهقروا على انرها الى الجنوب ولم يتقدموا بعد ذلك .

وهكذا نرى انه لم ينجح من الشعوب الجرمانية التي عبرت نغم الامبراطورية في الغرب في تأسيس ملك دائم سوى الفرنج منهم اذ ان الدول المختلفة التي اقامها بعضهم لم تلبث ان احتاحتها قبائل اخرى او ازاحتها الامرا اورية البزانية او ابتلعنها حكاما العرب، كما كانت الحال مع القوط الذين في اسبانية . اما الفرنج فقد كتب لهم ان يخضعوا اكثر القبائل الجرمانية الي حكمهم وان يمدوا حدود مملكتهم الى اقالم تنزلها احضانة الصقاليه

واول ما نسمع بالفرنج مقيمين على طول محوى الرين الاسفل ما بين كولوني وبحر الدناب وقد اختلف طريقتهم في التسرب الى داخل الامبراطورية عن غيرها من طرق القبائل الجرمانية الاخرى . مدلا من ان ينفصلوا عن جرمانية ويغرقوا في بحر الامبراطورية ، كانوا يعملون على فتح ما حوالهم من الاراضي بسيرة تدريجية . وكانوا على توسعهم يبقون متصلين بالقبائل الجرمانية المختلفة وراءهم فحافظوا بذلك على الروح العسكرية سيما فقدوا سواهم بفعل المؤثرات الحضارة الرومانية .

وفي مطلع القرن الخامس نراهم يحثلون ما يعرف اليوم ببلجيكة وما انبسط من الاراضي في الدوق منها . ثم ما لبثوا ان وسعوا مملكتهم بمساعدة ملوكهم كلوفس (لوس) جنوبا وفرنسا فوصلوا في غالبا حتى نهر اللوار وفي الدوق حتى الغابة السوداء .

وسما بحسن ذكره ان كلوفيس تنصّر على اثر فوزه في الناحية
الرفقة ودفعته حبيته الدينية ان بهاحم القوط الغربيين وجعلهم ينكفثون
الى ما وراء البرانس كما ان انه ضم البرفنديين الى حكمه .

ولما قضى كلوفيس نحبه سنة ٥١١ م . فو باريس عاصمة مملكته
انقسم اولاده الاربعة المملكة فيما بينهم وراحوا يتنازعون مدة قرن كامل
من الزمن بيد انهم مع كل ما ارتكبوا في ذلك من فظائع وما وقعوا فيه من
تفرقة في الكلمة واخلوا بنجوة عن عدو قوي ساعدت من حالتهم فيفتحهم اراضيهم
فحفظوا بذلك وحدتهم رغم تبادلهم اقاليم عدة من المملكة .

وعلى كل فقد نجح ملوك الفرنج في مد سلطنتهم على الرقعة
المتحفة اليهم لفرنسة ولحبك والنزلند وتسم كبير من حرماتة نفوسا فيكون
بذلك قد دحا عدد كبير من الاقاليم التي لم يوصل الرومان الى فتحها في
دائرة غربي اوروبا الناهض ان ذاك .

البلاط والملكية - ثم انه رغم النزاع الاول الذي امتد بين خلفاء كلوفيس
فقد قام آخر المبروفنجيين داغوبير سنة ٦٣٨ م . ووحد المملكة من جديد
غير ان هذا لم يمنع ظهور خطر جديد يهدد وحدة مملكة الفرنج ونعني به
تظلم النبلاء الاقوياء الى ريس من الاستقلال والتحكم . وكان قوي هثولا
من اصحاب المناصب العليا "صاحب القصر" او الوزير الاول على حد تعبيرنا
الآن اليوم . وما يلاحظ انه بعد موت داغوبير هذا غدا هثولا "الحجاب" اصحاب
الكلمة النافذة في شؤون الدولة ان ترامي المبروفنجيون في احضان الكامل
وراحوا يوترون اللبس واللحم على النهوض باعما الملك حتى عرفوا "بالملوك الكسالى"
فما لبث ان هذه الحالة ان امتاز "صاحب القصر" بيمين وول بضع اسائر نفوذ
اسرته ولدى موته سنة ٧١٤ انتقل واجب تدعيم سلطة الاسرة الى ولده شارل
مارتل .

وقد عانى شارل مارتيال من الصعوبات ما عاناه جميع ملوك غربي
اوروبا في سبيل تدعيم سلطته على حمية انحاء المملكة مع وجود حكام الاقاليم
ونوابهم . وقد اقتصر الجرمان هذين من الرومان ومع ان الملك كان من

حفه ان يرفع هؤلاء الى مناصبهم او ينحسبهم عنها فقد استطاع بعضهم ان مناولوا مناصبهم مدى الحياة مما جعلهم يطمعون الى اكثر فيقفون حجر عثرة في طريق وحدة البلاد فما كان من شارل مارنيل الا ان حاربهم واعادهم الى الهدوء وجعلهم يقدرون ضرورة خضوعهم الى الملك . ولم يكن الاساقفة من الاكليركيين اذ ازعاجا للملوك من زملائهم "النواب" البار ذكرهم من العلمانيين فكثيرا ما كان شارل مارنيل يضطر الى صرفهم من الخدمة زرافات .

وقد استطاع شارل مارنيل نجا وفاته سنة ١٢١١ ان يضمن منصبه من بعده لولدين بين كارلومان . فترك الاخوان "الملوك الكسالي" على عروشهم وراحا يضطلمان هما جميع الاعباء فاستطاعا ان يخفيا صوت الشعب والمعارضة المرتفع من بين "النواب" والاساقفة غير ان كارلومان ما لبث ان اعزل العمل مؤثرا الرغبة على الادارة وفي بين وحده استطاع بشؤون الدولة .

وهندما : مريبيين بالقوة من نفسه راح يعمل للتخلص من "الملوك الكسالي" ويتخذ لنفسه اللقبين "اسمو" والفعلو لمكتب الفرنج ومع ذلك فقد كان الامر من الدقة مكان فعزم على جر نب ريش الكيسة قبل ان يقدم عليه فما كان من هذا الا ان اقره على مقترحه .

ولكان لهذا التدخل من البابا بامر الملكية ذاته الهام ان ملوك الجرمان قد كانوا حتى الان قوادا عسكريين منتخبين برفعهم الشعب بارادته او الخاصة منه الى عروشهم ولم يكن لحكمهم طابع ديني ما . اما الان فقد فسح البابا بين على الطريقة السابية القديمة " فقد غدا الملك مسيح الله " على حد تعبير غيلن وان هذا العمل من البابا لبدل على تبادل الشعور اللبيب من عاهلي الذريه سيد الدولة ورامر الكنيسة . فما عزم هذا الشعور ان نأى الى اتفاق هام كان له اثره البعيد في تاريخ اوروبا ومن اولى مآثره اخضاع بيبين اللومباردين ثم تقديمه اراضهم للبابا .

والخلاصة ان حكم بيبين بمناز بعدة نقاط منها - (١) تفوية مركز الملكية في دولة الفرنج وقد كانت علو فذلك ان تشمل اكثر احزاب غرب اوروبا . (٢) ايجاد

ملكة خاضعة بالنمونية التي مع صغر رقعتها قد برهنت على انها كانت من اكثر المال خطورة واطولها حياة في اوربية . (٣) هذا فضلا عن صعوبات خلفها بين وابنه شارلمان من بعده . (٤) وقد صدق غين حيث قال = تحت كنف ملكة القديس بطريرك وعلو غفنان النير عاد العالم ستائف جهاده وراء بحثه عن ملوك يحكمونه وشرائع يسر حسبها ومقدرات يرتضيها لنفسه " ص ٧٦

وكان شارلمان بن بين برمي الى ضم جميع الشعوب الجرمانية في امبراطورية مسحية واحدة وقد وفق الى حد بعيد في تحقيق هدفه . غير انه عجز دون اخضاع الساكسون لوعورة بلادهم فتصدت عندئذ الكتيسة للامر وعملت على تنصيرهم ثم تقدم شارلمان بطلب البسم الخضوع له واللبابا وهذا تمثل فكرة الازدواج في حكم الشعب من قبل الملك واللبابا في العصور الوسطى .

ولما تعرض ملك اللومبارد لمدنية رومية مقر البابا حمل شارلمان عليه بحبوشه وجعله يعترف له بالسلطة عليه ونادى شارلمان بنفسه ملكا على اللومباردين وبذلك اتفاد الى مملكته ما كان بين مقاطعة ساكسونيا وبلاد اللومبارد . وما ان استقر له الامر في هذه الناحية حتى التفت الى الشر من مملكته واخضع في سنة ٧٨٩ الصقالبة الممتدة بلادهم الى الشمال والشرق من بلاد الساكسون حيث ينزل البوهيميون .

ولعل ابرز ما اتاه . ارلمان من الاعمال كان اعداده الامبراطورية الغربية سنة ٨٠٠ م اذ ذهب شارلمان الى رومية ذلك العام ليفضي في خلاف مشتب بين البابا وخصومه . ولما كان حكمه قد اتى في صالح البابا شاء هذا ان يبرهن من عظم شكره وامتنانه العاهل الفرنجي فاقام احتفالا بحبي فيه ذكرى ميلاد المسيح في كنيسة القديس بطريرك وفيما كان شارلمان راكعا بصلو امام المذبح اذا بالبابا يثني منه وينم على راسه تاجا وسجيه بين تهليل الحضور وتصفيقهم بقوله " هاك امبراطور الرومان "

ويظهر ان شارلمان لم يكن متوفيا طوال العمر لامبراطوريته موحدة لذلك نراه في سنة ٨٠٦ يقسمها بين ابنائه الثلاثة . غير ان موت كبرهم اولا

ثم تانيهم ثانيا حكام لومس يفي بعد ابيه بنولو مؤون الامبراطورية كلها .
ولكن ما كان يمر على حكمه عدة سنوات حتى راج بفكر في تقسيم الامراطورية
بين ابناءه اكثر من بعده . وهنا تضاربت المصالح بسبب المطامع الى حد
رائنا الامبراطورية معه تنقسم الى ما يقرب من ستة اقسام بين سنتي ٨١٧-٨٤٠
وفي سنة ٨٤٣ عقدت معاهدة فردان وتم فيها الانفاة على تقسيم الامراطورية
الى ما يعرف اليوم على وجه التقريب بفرنسة والمانيه واسطالبيه . ولم يكن هذا
كل ما اصاب امراطورية شارلمان من تحزؤ وتفك بل ظلت الاختلافات تعمل
عملها حتى طمع حكام الاقاليم بالملوك وقاموا بطلالون بالانفصال مما زاد في
الطابن بلة .

اما اسباب ذلك التمزؤ فبرجع الى اسباب عديدة منها = (١) ضعف
خلفاء شارلمان . (٢) انشاء الامراطورية (٣) تحذر المواصلات لانعدام الطرق .
(٤) ندرة النقود التي حالت دون ايجاد حشد دائم (٥) انقضاء الغزاة من
سالميين ومثاليه وهنداربيين وغيره — على الامراطورية من جميع الجهات (١)
هذا مع انعدام قوة مركزية تدفع المغيرين عنها مما اخطر معه حكام الاقاليم
الى ان يهتم كل منهم بامر الدفاع عن اقليبه بنفسه برؤي الشعب الذي كان
مستدالان به ترة لنائب الملك هذا بالسلاة والنقود . وهذا يفسر لنا ظاهرة
قيام حكومة متعددة الرؤوس والارادات مشته بما انتشر فوق الري من فلاح
وحصون دلت على تفرؤ الكلمة وانتشار الفوضى في الادارة القائمة . ومع ذلك
فقد بقيت الدولة قائمة ولو بالاسم وظل الملك يتوجه الكنيسة كمثا الله على
الار اما الامراء العديدون — حكام الاقاليم — فنرى بهم صلة الاقطاع . وهذا
ما سننوجه الان لدراسته .

وهكذا فان تاريخ غربي اوروبا السياسي لمدة ثلاثة قرون انقضت
بعد تمزؤ الامراطورية كان بالحقيقة تاريخ الامراء الاقطاعيين العديدين ومع ذلك

(١) له دائرة تقول ان العرب هم الذين سبوا ذلك الفارة في تاريخ اوروبا بعد
العصور القديمة والمتوسطة .

فان الملك على جمعه قد بقى تاريخه اتم من تاريخ اتباعه الامراء
اذ ان الملوك هم الذين نجحوا اخيرا - لا الامراء - في اشد الحكومات
القدسية .

ولقد رايانا النزاع الطويل الذى امتد مائة سنة فى سبيل مملكة
الفرنح حتى برهنت الابام على ضعف الكارولنجيين ونام مقامهم فى سنة ٩٨٧ اسرة
هوف كاييه وغير ان حالتهم ظلت مضطربة بين القوة والضعف والوحدة والفرقة
بسبب الاقطاع وامراءه وهى الدولة التى كانت ابام الحروب العنيفة .
الاقطاع - فما هو هذا الشكل الشاذ من الحكومة القائم على تملك الارض
وارتباط التابع بالمتبع حتى نستطيع ادراك كنه المجتمع الغربى فى العهد الذى
نحن فى صدد تاريخه . اجل ان شكل الحكومة ونظام وملك الاراضى الاقطاعيين
يختلفان من اى شيء آخر نعرفه اليوم حتى لبتحذر علينا ادراكهما ان لم نربح
فى درسهما الى التاريخ البعيد وكذلك يبقو قسم كبير من تاريخ اوروبا عديم المعنى
لنا ما لم نلق على تاريخ تلك الحقبة منه .

جاء الاقطاع نتيجة طبيعية لظروف خاصة سادت غرب اوروبا فى
القرنين التاسع والعاشر على اثر ضعف امبراطورية شارلمان وسقوطها فرساسة
للمنازعات الداخلية والغزوات الخارجية كما انه يرجع الى عوامل وعادات سادت جاء
الرومان فى اواخر عهد امپراطورينهم وابام غزو البرابرة لها يوم عجز الملاكون الصغار
من القيام باستثمار اراضيهم فانظروا الى النخلى عنها الى الملاكين الكبار
(الاغنياء) والحيران الاقوياء . وكذلك انحصر الملاكون الصغار فى غربى اوروبا الى
اللحوق الى رؤساء الاديرة والملاكين والملوك من الفرنج بتناولون منهم الاراضى
فيعملون عليها مع بقائها فى عهدة اصحابها الاولين ويستثمرونها لقاء خصومهم
لاولياء نحتهم وصاداتهم . وعلى هذه الصورة خلقت الارض وملكيتها تلك الرابطة
الحديدة بين الناصر ونسبته الى سيد وسود او تابع ومتبع هذا وكان عند شباب
الحرمان فضلا عن هذه العادة فى تملك الاراضى عادة اخرى تقضى بانضمامهم تحت
راية زعيم حربى يدفعون عنه ويحجبهم على اسامر مبدا تبادل المنفعة والمشاركة
فى التعاون . وحينما تم انضمام العادتين معا بصورة تدريجية اصبحت الاراضى

نورث للابناء فقدت القاعدة العامة في القرن العاشر لقيام العلاقة بين الناس بعضهم ببعض . ومع ان الملوك والنبلاء قد رغبوا في ابدالها فقد عجزوا عن ذلك . ازاى الراى العام وفدت الارض العامل الاساسى في علاقة الناس بعضهم ببعض من الملك الى اصغر تابع ومنذ القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر لم يكن ملوك الفرنج ولا ملوك الالمان يحكمون على اراضي يملكها رعاياهم بل كانوا كسادة انطاعيين يستطيعون مطالبة اتباعهم بالاخلاص لهم وبعض الخدمات . وكذلك كان بحق لهيولاء بالاضافة الى اتباعهم ايضا . وهكذا كان يسر هذا المدا نزلا حتى اصبح المجتمع من قمة راسه الى احمى قدميه يتألف من سادة واتباع تربط بينهم واجبات وحقوق .

اما الواجبات فكانت تختلف كثيرا وتتفاوت اهمية وخطورة اذ كان التابع يتعهد احبانا بان لا يتزاد في سيده اذى او في ارضه غصرا بل يتعهد احبانا بان يشترى مع سيده في غزوة كاحد المشاة وان كانت العادة لا تزيد مدة ذلك عن الاربعين يوما .

هذا وكان ينتظر منه ان يخدم في قصر سيده لدى الطلب حيث ينضم الى امثاله من الاتباء فيدلو معهم بالراى لسيده في قضايا تهمهم كما كان يتوجه عليه ان يقدم احبانا شيئا من المال او خدمة ما او الى بضف سيده لدى مروره في اراضيه .

ولكى بعد الانسان بين النبلاء كان من الضروري في المجتمع الوري آنذاك ان يملك ارضا لينتج له التمتع بتمثيل تلك الحقوق المذكورة سابقا . ثم يجب ان يكون حرا وان يملك من الواردات ما يكفيه للقيام باود نفسه وحاجات حصانه بدون ان يضطر الى العمل وكثيرا ما كان يتمتع ببعض الامتيازات التي تلت معمولا بها حتى الثورة الفرنسية الكبرى . غير ان هذه الحقوق والواجبات لم تكن لتوضع في حيز التنفيذ الا بالقوة وطرق وحشية في اغلب الاحيان اذ كثيرا ما كان الاتباع يتملصون من القيام بواجباتهم وينقضون بدهم من يمين الاخلاص للسادة النبلاء . وكذلك لم يكن هؤلاء باكثر محافظة على تعهداتهم من اولئك .

وكثيرا ما كان يحدث ان ينقل احد الاتباع تعهده في الحفاظ على اخلاصه لسيده الى تابع آخر بل كثيرا ما كان يحرق احدهم على اعلان

انفصاله عن سيده وعدم الرضوخ له او قبوله برئاسة من تلقى قطيعته (الارث) منه .

ولعل هذا ما جعل الحرب والقتال بسودان المجتمع آنذاك وصباحان الشغل الشاغل للسادة النلاء القلقين دائما والمضطربين ابدا . فروح القتال والمنازعات المستحكمة حلقاتها بسبب انعدام ما يضبط الخوف والواجبات احسانا وردة المطامع احسانا اخرى . كل ذلك ادب الى مشاحنات دامية جعلت العداوة والبغضاء بسودان الحياة . وهكذا فبدلا من ان تضمن الروابط الاقلامية امنا وراحة بالهر انها كانت العلة الاولى في المنازعات والمشاحنات . فكان الانساع يقتتلون ويحدون في ذلك اكبر لذة لهم في الحياة اذ كان القتال تفره شرايعهم كما هي الحال في الغزو ومع الاغراب في البوادي والقفار .

غير انه ما لبث الناس ان ملوا تلك الحياة واخذوا يتوقون منذ القرن الحادي عشر الى نشوء من الامن والسلام وقد ظهرت رغم كل ذلك - بعض بوادر النهضة في حقل التجارة والتعليم في بعض المدن القديمة ثم جنوب ايطاليا وفرنسة ومهدت الطريق بذلك الى نشوء حالة جديدة وتطورات عديدة . فلم يكن الذين شغلهم امور السلم يستطيعوا الصبر طويلا على تلك الحال البغيضة من القلق والاضطراب فقاموا بتدوين بهول الموتى وفظائعه . ولعل الكنيسة كانت اول من استجاب لتلك الدعوة لذلك رابنا رؤساءها ينادون بوجود عقد "هدنة ربانية" يمتد بموجبيها جميع اعمال القتال والنزاع خلا ايام معدودات تبدأ مساء الخميس وتنتهي بمطلع صباح الاثنين وكذلك يفعلون في ايام الهموم العديدة . وقد ألزمت محال الكنيسة ومجامع الاساقفة السادة الانواعيين بان يتسموا الايمان المغلظة ضمانا لمحافظة نظمهم على الهدنة اسبوعية وقد نجحوا بفضل عقاب "الحرمان" المخوف واستطاعوا الى حد بعيد ان يوقفوا في مساعيهم وعندما ابتدأت الحروب الصليبية في سنة ١٠٩٦ تدخل البابا لاجساد سلم عام بنحوها تلك الروح الحربية ضد الكفرة في الشرق . وكان قد بدا الملك في فرنسة وفي انكلترة على الاقل بالهر بمظهر القوي العامل على نشر الامن كما نفهمه نحن اليوم .

ولما بحسن الامارة اليه ان "الهدنة الربانية" في المجتمع الاوروبي

بذكرنا ببدا الكار من القتال في الاشهر الحرم عند العرب في الحاحلية يوم
كان الغزو والقتال روح المجتمع والعامل المغيث السبب رانها في المجتمع
الاوربي هذا .

والخلاصة فقد كان الانقطاع في غروب اوربي وخفا شادا لبعثت
فيه عناصر الحضارة فلا قانون له حرمة ولا ادارة تسمع كلمتها ولا طرق تسهل
المواصلات ولا تهذيب بسدد النفوس الى الخير وسدوا بينها وبين الشر هذا مع
ما كان عند الافراد من افكار عنيفة يحثونها وعادات وتقاليد مالبية بردودها
دون ما اثر تركه في نفوسهم . الم يكن الزمر زمن اضطراب ولموصية واحرام
وفقدان امن . بله . ومن مجموع هذه المتناسا تكون ذلك الوضع الذي
المعروف "بالانقطاع" اذ اضطر الناس فيه الى التلفت هنا وهناك عليهم بلفظ
زعماء يعتمدون في الدفاع عن انفسهم فكان ان تركزت الحياة والاعمال فيهم
على رؤساء متوحشين . هنا سيد غليظ الكبر وحش النصرف وهناك اسقف قوي
او موظف عنيف او شيخ اقام نفوذه على الغزو وانتقام ممتلكات حاره عله بنفوز
بغنيمة تسد جوعته او ارض تزيد رقعته)

وهكذا فلم تر الكنيسة بدا من التدخل في امور الناس علها تخفف
من ويلات الانقطاع وتروى الاقلعيين باعمال مختلفة منها - قيام الرهبان في
ادبرتهم على بعث الدعوة لدى الناس ، بشرف العمل البدوي ، واذ كان
- في اعتقادهم - من عناصر التدبير للخلاص من الخطيئة وكان الرقيق قد ازرى
به في القرون الماضية . فراح هؤلاء الرهبان يضعون المثل الدليب في الاعمال
الزراعية على اراضيهم المبسطة حول الاديرة . وبذلك ادخلوا التحسينات الكثيرة على
الزراعة في الاراضي المحاورة لهم . الرهبان من يحكم على نسخ الكتب الادبية القديمة
وبالرغم مما وقعوا فيه من تحريف وتصحيف ومن اخطاء فادحة احيانا فلا يصحنا
الا ان نشكر لهم عملهم ذلك ان انهم حفظوا به الشيء الكثير من تلك المخلقات
الرائعة التي لولاها لظاعت وخسرتها المدنية . ومن يذكر بالخبر من هؤلاء
الرهبان خاصة البندكتيين في ايطاليا .

وما كانت الامور تستتب في بريطانيا من مختلف الكنائس المتنافسة حتى دب الحماس في نفوس القوم لرومنة وادابها وثقافتها فعدت الاديرة فيها مراكز للدراسة فافت سواها في قري اوروية اذ كان الرهبان من الناشئين يدرسون فيها اللاتينية واليونانية احيانا وكثيرا ما جلبت لهم نسخ من المؤلفات الادبية الكلاسيكية عبر المايث بحفظت في خزائن الاديرة . هذا فضلا عما قاموا به من اعمال اخرى ادت الى انحاء بعض الصناعات كصناعة البناء وصناعة الزجاج وغيرها . وكان هذا كله خلال القرنين السابع والثامن . اخذ اليه كما ما سبب ذكورة من اعمال وحمود الكنيسة في سبيل تنصير البرابرة وادخالهم في حظيرة البابوية .

ولعل شارلمان كان - بعد الرهبان - اول ملك فكر بعد ثيودوريت في بحث الكتب والتوفر على دراستها بعد ان كانت قد خمدت حدوة ذلك بثلاثة قرون خلت بسبب انقضاء اسبراد الرداء الى اوروية بعد سنة ٦٥٠ م على اثر فتد العرب لمصر . ولما لم تكن صناعة الورق قد عرفت بعد ، فقد كان على الناصر ان يدونوا ما عندهم على الرق بالرغم من غر * ثمنه فخفظت بذلك بعض المخطوطات الادبية * اما القرن الثامن الذي سبق تنوع شارلمان فقد كان - على راء الرهبان البندكتيين - من احلاء العصور واكثرها جهلا واثدها وحشية وذلك في فرنسا على الاقل * وكثيرا ما دلت سجلات المبروفنحيين على جهل مطبق واهمال بين من جانب كاتبيها .

ومع شدة سواد هذه الصورة فقد كانت الوثائق تفسر ببعض الامل في التحسن في هذه الناحية فان الكنيسة قد حفظت اللاتينية من النسيان اذ كان علو رجالها ان يجمعوا التعاليم الدينية من التوراة والانجيل وغيرها من الكتب . هذا فضلا عن المواظ على الكتابة التي كانت تولد ناحية ادبية اخرى ايضا . لذلك كان لا بد للكنيسة من ان تقوم بقسط كبير من التعليم حتى يتمكن من تاديبه واحسانها المعقدة . فكان علم من انفسها ان يقرأوا ويكتبوا ولو قليلا لينتفعوا من الاداء اللاتينية القديمة ومما هذا احفظ الاداب القديمة حبه رغم ما ساء العصر من جهل وظلام ووحشية .

ولدينا كتابان لشارلمان بحث بهما لرجال الكنيسة بعضهم بهما على

ضرورة العناية بالتعليم تحثا للوقوع في الخطأ (ص ٨٧ - ٨٨)

ويظهر ان شارلمان كان يشعر انه من واجبه ان يعثر بتتقيد افراد الشعب

ايضا . ولذلك رابناه في سنة ٧٨٩ م بطلب الى الاكثريكين ان يحموا

س ابناء الاحرار والافتان ويفتحوا لهم مدارس * للفتيان وفي هذا دلها

على ان الفتاة كانت حتى ذل العهد تحرم من هذا الحق .

وليس من السهل معرفة ما اسمه الاساقفة ورؤساء الاديرة من مثل

هذه المدارس بيد انه من الثابت ان مراكز التعليم هذه قد انتشرت في

المدن امثال اورليان وكوربي وفولدا وتوري . وما دل على عناية

شارلمان بهذه القضية الهامة تاسيسه " مدرسة القصر " لتعليم ابناءه وابناء

النسلا ايضا . وقد اسندوا لها " الكوين " من ائكتره لبراسها كما اسندوا

غيره من مشاهير رجال التعليم من ايطالية وغيرها ليعلموا في مدرسته تد .

ولما اشهر هؤلاء المؤرخ سولوي دباقوس واضع تاريخ اللومارديين في ذل

العهد .

وكثيرا ما كان شارلمان يلفت الانتار الى وجوب العناية بنفا الاداب

القديمة لان تجنب الوقوع في الخطأ في نقلها لا يفلح على رايه - اهمية

عن تعلمها . غير اننا نلاحظ ان شارلمان لم يعمر الاداب اليونانية ولا الرومانية

اقا الثقافة ان كان يمس ان يرى رجال الكنيسة مكثفون بتعلم اللاتينية للفتان

ليستطيعوا تلاوة الصلوات والكتاب المقدس بفهم .

وهكذا نرى ان تلك الخطوة التي اتخذها شارلمان في سبيل واخلاء

التعليم والعناية بالناحية الفكرية من العناية العامة قد كت لها الفد -

في نتائجها المباشرة ان القرن التاسع لم ينجح سوى النزر اليسير من مشاهير

الرجال ممن خلفوا مؤلفا - تداء علم دقة في التدريس وبعث في الثقافة الكنسية

فان انحلال امبراطورية شارلمان والمنازعات بين خلفائه تم هجوم براوة جدد

وما نشأ من الفوارس سنة السادة الانطاقيين الذين لم يكونوا مستعدين للخضوع
لأية سلطة وكان ذلك قد تشافروا على ان تاخر العلم في الغرب لمدة قريب اخرج
على الافاق من الزمن . وبالفعل فان القرن العاشر والنصف الاول من القرن الحاد
عشر قد بدا فيها شر . قلبا من التحسن عما كانت عليه الحال في القرنين
السابع والثامن ومع ذلك نحبها فالحبا والفوضى لم ينتشرا بعد مارلمان كما
كان الامر معهما قبله (Robinson ٩١ - ١٨)

ومما يساعدنا على تفهم روح العصر وحياة اهله اليومية
وما كان يكتنفها من مشاعر واحاسيس والتعزز الى ملاحمهم وتضائدهم واغانيهم
المعسرة عن الفروسية ومبادئها . ولا عجب فالفرسان قد لعبوا الدور الرئيسي
في جميع اناصب العهد ورواياته ولما كان الكثيرون من شعراء الغزل
يعنون بصفة وثيقة الى فئة الفرسان وكان لا بد ان يذكروا الشر . الكثير عنهم
في اغانيهم .

لم تكن الفروسية مؤسسة رسمية وضعت مبادئها في زمن
معين بل كانت كالاقطاع الذي تمت اليه بصفة وثيقة ، بدون مؤسس خادما
با بروز اذانيا في غرب اوروبا لسد حاجات القيم ورفياتهم .

ويريد بعضهم ان يرجعها بالا الى الحرمان ان زان
ناسية . فلم قولهم . يحدثنا عن ان الحرمان في عهده كانوا يعتبرون اللحظة
التدريسية بها الشاب عندهم للمرة الاولى سلاح الجندی . لحظة مقدسة
لها معناها الخاص عندهم وانرها البالغ في نفوسهم . لانهم كانوا يستبدلون
من ذلك على بلوغ الشاب سن الرحولة . وهذا بالطبع شرف يتقلدو في حياته .
ولعل في هذا - على راي هتولا - الحرثومة الاولى لسنة
الفروسية . غير انه هناك فئة من الناس - بينهم العلامة فليب حنو - يعتقدون
ان الدروسية زهرة نبتت اولا على ارض الدلم ونقلها العرب معهم الى الاندلس

ولا يستبعد ان يكون الفرخ قد تعلموا اليها على ار عاليه يوم اعدادها للمرة الاولى بحيز العرب وفرق فرسانهم وهم على خيولهم المظلمة . ثم على الداب المنحدر من هائلة نسلة بنشأ على ركوب الحمار واستعمله المييف وتدريب البازي على الصيد بنصب فارسا في حفلة رسمية يذرت فيها رجال الكنيسة على ان التكرس يكون عادة على يد فارس عتيق .

وهكذا كان الفارس يعتبر جنديا مسيحيا بولف مع رفاعة فرقة ملغدة ، بمناز افرادها مناهم الدنيا التي تدور في نصراتهم . هذا مع العلم ان انضمام الداب الى مثل هذه الفرقة لا بعد عضوية في منظمة لها موانعها ودستورها . بل جاء ما كان انهم بولفون جماعة متألبة ، نصف جنائبة ، بشمر حنو الملوك والنسب الكثر الى ايام بانتمائهم اليها . ولم يكن الواحد منهم ليخلق فارسا ، كما كان الدق او الكونت مثلا ، بل كان باستطاعته ان يصير من الفرطان بعد عملية ذلـ الاحتراف المنوه عنه قبلا . وعلى هذا الاساس قد يكون الواحد منهم نميـ بالاصل ومع ذلك فلا يعترف له بالفروسية كما ان اي شخص مهما انحط نسبه ، كان باستطاعته ان يصبح من الفرسان على اثر عمل مجيد بانيه .

فكان على الفارس ان يكون أولا مسيحيا ، يتمتع بالدفاع عن الكنيسة والخضوع لها في جميع المناسبات وكان عليه ان يخدم الضعف في جميع مظاهره وان يمد يد المساعدة للمساكين حينما وحدهم ، كما كان عليه ان يقاتل " الكفرة " بلا هوادة ولا رحمة وان لا يلبس امامهم . وعليه فوق ذلك ان يقوم بحميم تعهداته الاقطاعية وان يخلص النية لسدده ويحافظ على اي وعد نام به وان يكون كريما سخيا بحود ما لديه للمعوزين وان يتو مخلصا لسدته ويكون مستعدا للدفاع عنها وعن عريفها مهما كلفه الامر واخيرا كان عليه ان يمتا الحق ضد الباطل وان يقف في وجه الظلم وبكلمة موجزة " كانت الفروسية فلكرة الجهاد الاسلامي " منتمرة .

ذلك هو المجتمع الفرنجي في غربي اوروبا الذي كتب له ان يحثك بالمجتمع العربي في الشام خلاا الحروب السلمية ولو رحنا نوازن بينهما لرأينا المجتمع في الدبار الدامية قد بلغ من الضخ الذابة في مختلف نواحي الحياة

المادة منها والفكرة والروحة . وقد تروى من ذلك كله الندوة ، منها كان المجتمع
الفرنجي في الغرب قد دبح من طافوته بتلصق طريقه الى "مس" من عناصر
الحياة فكان نصيبنا ونحوها الى احبابنا . احار لقد كان الفرع عالما في الناحية
الاقتصادية ان كانت الديار الشامية في هذه الناحية قد شارفت على الانحدار
اما في الناحية الاقتصادية فقد كانت في حالة لم يكن الفرع قد تذوقوا منها
الا الشروء البسيط وكذلك قل في الناحية الفكرية ان كان القوم بمجموعهم يمتنون
لدينا لسم التمتع بالالة باء منها بينما كان العرب قد استلذوا منها الامسيات
حسبها تفرسا . وانما كان من بين المحتضين من وجه للشدة فانما كان ذلك
من حيث ان العرب بمجموعهم قد شارفوا الانحدار من اندوة كما كان الفرع
على وشك الشروء في التسليق فوق المصنوع .

الفصل الثالث

ما تبادل الشرق والغرب من علاقات اجتماعية وثقافية أبان الحروب الصليبية

الحروب ظاهرة اجتماعية - يستحيل منع الحروب من اقترع - الحروب الداخلية والخارجية - الموازنة بين الحروب الصليبية ووفيلانها قديما وحديثا - اختلاف المؤرخين بتقدير ما خلفته من آثار - المملكة اللاتينية في القدس من الوجهة الدينية - المجتمع فيها - اثر العرب الاجتماع في الفرنج - في الاحياء والملاهي والمأكول والمشراب والحفلات والاعساد - الصيد والريانة الدينية - البراءة الفرنسية وانرها في المجتمع - الفروسية ملهها - اصلها سامي - الادارة في المملكة اللاتينية - القضاء والتدريس - الحالة الحربية - الاسلحة - فنونها - اراء المنبشرين الانساب - التعامل عند الملوك والامراء - المداينات بين الحرب والفرنج - امنة حياة عنها - الحياة في القصور وموت الامراء - الرق والخصيان - الحياة الاقتصادية - الزراعة والصناعة والتجارة - الحالة الفكرية - الحركة الفكرية العلمية في الديار الدامية والافرنج بنارها - اللغز - الاداب التاريخية والجغرافية - العلوم الدقيقة - الطب - الفلسفة - العلاقات العامة -

الحروب ظاهرة اجتماعية تدل على وجود معصلة بين الفقيين المتخاصمين بتدافعهم المصالح عليها وفشلهم في حلها سلما لان يحشكوا الي النار والحديد الم ان يتم الاتفاق او يبنوا احدهما للآخر . فهو اذن وسيلة لايجاد استقرار مشدود او استرداد حق مغصوب او تحقيق مبدأ جديد .

اما التحدث عن منعها فلمؤلا طائل تحته ان ينبغي العمل على ازالة اسبابها وارؤها للاستئناء عنها كوسيلة لحل مثل تلك المشكلات وسواء عندنا كانت عواملها اقتصادية سياسية او اجتماعية دينية او نفسية .

والحروب على هذا الاسامى خمران = حروب داخلية واخرى خارجية .
اما الاول منها فنته من فريقين انتشر في الدولة الواحدة . واما الثانية فتضام
نارها بين دولتين او بين مجموعتين من الدول فيشترك فيها عندئذ اقطار
وقوميات بل وقارات احيانا . وكثيرا ما قام مثل هذه الحروب خلال العصور
التاريخية المتعاقبة = كحروب الميديين واليونان . وحروب الاسكندر والفرس
وحروب رومية وقرطاجنة ثم حروب العرب مع الريم والفرس وسواهم حتى كانت
الحروب الصليبية بين العرب والافرنج وبين الشرق والغرب بل بين النصرانية
والاسلام الى ما هنالك من حروب عالمية كبرى ما زلنا نعاني بعض مساوئها
ونحنو كثيرا من فوائدها . غير ان اوضح فارة بين الحروب الداخلية والحروب
الخارجية ان هذه كثيرا ما تنقلب بظاهرها المختلفة من سف الدماء وازهاق
الارواح وتدمير معالم الحضارة في سبل هدف معين او اهداف اخرى بعيدة
اول كثيرا ما تنقلب من ذلك كله الى تضام بين تافنتين او مبدئين فلسفي
الحكم او فلسفتين او دينين فتخرج منها المتحاربون نتائج بعيدة ايجابية وسلبية
يقبضون اثرها مائلا بحسب في التطور الارادى او العكس . فتكون بذلك عاملا
في نشر المعارف والتقاليد ونفا المبادئ والافكار من مراكزها الخاصة في المسير
اوساط جديدة . وهذا ما بقدره في ٢٠٤ من كتابه تاريخ المجتمع
الشرقي حيث يقول = وكثيرا ما بزداك ونفوي انتشر العلم والادب والتقاليد
والثقافة من مراكز الثقافة في المجرى ونظام الامراطوريات ونشوب حروب الفتح
وتقدم وسائل النقل والمواصلات .

ولعل الحروب الصليبية قد فافت غيرها من الحروب الخارجية في النتائج
البعيدة ، وذلك بما خلفته من العرب والافرنج من آثار وما اقامته بينهم مسن
علاقات اجتماعية وثقافية كانت عاملا هاما في زوار التعيين بعد ذلك ان سلما
او احيانا .

واذا تبست هذه الحروب بما سبقها في العصر القديم من حروب
مماثلة لها تميزت عنها جميعها مداهما الزمن وتعدد الامم المتشعبة فيها ونشوع
الاحكام والقوميات واللغات والاديان والمذاهب بل وفي درجة الشاؤم الفكر

والاجتماعي . فهو يختلف مثلا عن الحروب المدنية التي لم يطل امدها اكثر من سنوات معدودات ، وكذلك تتميز عن حروب روميو الاسكندر في كثرة المساهمين فيها وتنوع احتسابهم كما تفتقر ايضا عن حروب رومو وفراطحنة بما تركته من نتائج وما اوجدته من اتصالات واثقته من علاقات ، كان لها جميعها الانسـر البلية مع غيرها من العوامل في نشوء اوروية المدينة بفضل بقظة قوسية ونهضة جبارة ، خرب بها من ظلمات العصور الوسطى الى انوار العهد الحديث ومع ذلك فقد اختلف المؤرخون في تقدير ذلك الانسـر في نهضة اوروية . فمنهم من رآى فيها العامل الاول في ذلك ونسبوا لها كما فضل فيها ومن هؤلاء هن ام رابن وهانز برونر الالمانان ولويون الفرنسي . ومنهم آخرون قد انكروا عليها ان يكون لها ذلك الانسـر البعيد فوجدوا في نظرية اولك ومن له لفهم مبالغات لا مبرر لها . وعلى راسهم ارنست باركر والاب هنرى لامير . ومبعث ذلك الاختلاف - في اعتقادي - موته كل من هؤلاء واولك من الثقافة العربية والبيان في تقديرها حتى قدرها او الخط من شأنها ، فيينا كلا / نسيم لويون بقوا - كان الشرق (آندال) (آبان الحروب الصليبية) يتمتع بفضاء العرب بحضارة زاهرة في حين كان الغرب غارقا في بحر من الجهالة " اذا بياركر (١) سرف عقيدته منساقلا - " من يقول ان اوروية الغربية كانت خاوية ، تفتقر الى كل شيء " (٢) . وكذلك نقرا لمن ام رابن قوله - واما في عالم الثقافة الواسع فقد ظهر كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما يتبعها من الانصال بالعرب وحتى التصوف تألمون بلون العلم . ولكن باركر يعود فيناقض نفسه عندما يقابل بين اثر الثقافة العربية عن طريق الاندلس ومثلية في نهضة اوروية وبين ما تغذت به من هذه الثقافة نفسها عن طريق سيرة مصر حيث الحروب الصليبية كما سوف نرى عما قريب .

اما نحن ، فمع اقرارنا بما في كلتا النظريتين من انراط وتقريب نسبا الى القوا بان تاثير الحروب الصليبية في نهضة اوروية الغربية ان لم يكن بصورة مباشرة بحيث يكون قد اخرج فئة خاصة من العلماء ، عملت على انقاذ اوروية وانهاضها كما كانت الحال مع مثلية والاندلس الا انه كان انزالا يستعمل

به ان خلق مجتمعا بالذات حمله قائلبات عديدة من نفسية وفكرية وروحية سادت على التطور الجديد . الاول ان مئات الالوف من الناس ينتقلون بافكارهم " الفحة " ويقولهم " السكر " الى وسط سيفهم اهله موطا بعدد اخر مسار التطور الاحتطاع والتقدم الفكرى واختلف افرادهم معهم فو تلمسهم الى الدين والى سواهم من اهل الدفائد الاخرى ، ان ذل العدد من الناس بحث افرادهم عشرات المنس بل يفوقهم ، لحرثون بان تنكشف نفوسهم عن حقائق عديدة جديدة لا بد وان تؤثر فسه وتنتظم من آفاقهم الثيفة التو كانوا يعيشون فيها الى آفا جديدة رحة سمحة فيصبحوا معها اكثر قابلية الى التطور والاندلاع الى الاما . ولقد رابناهم فعلا يعودون الى اوطانهم فداوربة الغربية بعد ان حملوا قسرا طبا ، نفوسهم بذور الحرية الاجتماعية فينحدرون من عودة الاقطاع وتحكيم رجال الدين وكذلك رابناهم منتقل فو نانا ادمتضهم آراء ناسحة فو الثقافة جعلتهم ينظرون الى الحياة معها نظرة جديدة لم يكونوا يتعودوها من قبل لا هم ولا اكثر مواطنهم ، فكل لذلك كله انه اليب فو نعتة ذل الاندب العظيم فو المجتمع والثقافة .

وهذا ما يقر باركر نفسه ببعضه حيث يقول = " واذا لم تكن الحروب الصليبية قد صادفنا حظا من التقدم فهي يفي كل حال ، قد زعم التفريق بين الكتاب المقدس وغير المتقدم وبين الدنى والدينى وبين القانو والروحى وادنا ايضا الى تحرير غير رجال الدين والاطاقهم من قودهم وان كوركسة كهذه بعضها مزاج دينى مغاير كل المغايرة للامزجة العادية كانت ، على الرغم من ذل ، من القوى التى تعمل على تقوية الروح المدنى وعلى كل حال حال فقد اظهر العلماء استعدادهم للاخذ عن فلاسفة العرب ولشئ من ظهور الروح العلمية ، واستقام امرها بعيدا عن الحروب الصليبية غير انها لم تكن لتستطيع ان توفق الى اداء اجل واجب كان عليه ان عمله الا وهو المصالحة والمواطنة بين كلمة ارسطو الدينية مع تصور الانجيا وتعاليم الكنيسة الموم بها الا فو حو التفاهم الحسن الذى هاوت الحروب الصليبية على ابحاده (١) ثم يعود

فيقول = لم يقتصر اثر الحروب الصليبية في اوروبا على خلق نوم حديد مسن
الاتحاد الداخلي وناشر جديد في مرافق حمانها الداخلية المختلفة ولكن اوروبا
قد كسبت باستمرار هذه الحروب نظرة جديدة واسعة الى العالم = هذه
الدائرة الواسعة التي صاحبها نهوض حركة الارباب والانصراف للاستزادة من
المعلومات الجغرافية (٢) .

وهكذا نرى ان الدبار الثامنة بفضل الحروب الصليبية قد
ساهمت بفسط غير قليل في صقلية والاندلس في سبيل ربه مستوى اوروبا ودفعها
الى يقظتها فنهضتها وعليه ينتطبع ان نقرر = ان الغرب قد تتلمذ على
الشرق مدة مائتي سنة خلال الحروب الصليبية كما تتلمذ بعذر ابناءه على
اساطين العلم والفلسفة في جامعات الاندلس ومدارس صقلية من قبل قرن .
والان فلنتقدم لنبين هذه الآثار ومداهها في حياة الافرنج بالتفصيل .

المملكة اللاتينية في القدر واثرها في نهضة اوروبا .

رابنا في الفصول السابقة كيف ان آلافا من الافرنج بل مئات
الآلاف منهم قد توافدوا على الدبار الثامنة بقصد لم تكن اكثرهم تبين سواء
الا وهو انتزاع بيت المقدس من ايدي المسلمين . غير ان هذا الهدف وان
حقوه الى امد ، فقد كلفهم من الخسائر الفادحة في الانصر والاموال ما جعلنا
نعتبر المشروء معها فاقلا من الوجهة العسكرية = وكذا ولكن ظهر لهذه الحروب
فيما بعد ، بصورة غير مباشرة ، من النتائج الطيبة ما جعلنا ننسج معها فظاعنا
وسوء اثرها المباشر ، ان على العرب او الافرنج على السواء ان اولك
قد خربت بالنتيجة اكثر مدنهم الساحلية كما هلك مئات الآلاف من سكانها
فضلا عما ورثته البلاد من التعصب الديني الذمير بل والحقد على ابناء الغرب
بسببها . هذا بالاضافة الى العرب واما الافرنج فقد هلك منهم لا اقل من مليون
نفس بسبب بعد الثقة وصعوبة المواصلات والغربة في ارض نائية مع تعرضهم لفعوامل
الطبيعة كانت ولا تزال ناسية عليهم . ومع ذلك فهذا كله لا بعدد . بل بالنسبة الى
ما حناه القوم من فوائد مادية قيمة ونتائج معنوية لا تقدر . كان لها جميعها
الآثر الحمود في تطورهم الاجتماعي وتقدمهم الفكري .

فما كادت جموع الافرنج تحرز ذلك النصر الموقت حتى استفر بهم المنام فو المدر الساحلية وبعض السهول الداخلة واناموا فيها مملكتهم فو القدس وملحقاتها الاربع ثم ما كادوا يشعرون طيب الهواء واعندالمنام وجمال الطبيعة وعظيم الثراء حتى ترك ذلك كله فو نفوسهم انرا جعلهمس بطمئنون الى البلاد والسكنى فيها بل وسخبرون نظريتهم الخاطئة (١) الى اهلها ويقدرن ما يتمتعون به من ثقافة عالية واخلاق رضية فراحوا يؤسسون لهم ملكا استطاعوا بحمد كبير وعناء شديد ان يحافظوا عليه مدة مائتى سنة ، عقدوا خلالها الطيب الاتصالات الاجتماعية مع اهل البلاد واحكموا افضل العلاقات الثقافية معهم ففتح عن ذلك مجتمع جديد فلا هو مرقى بحت ولا هو غريق وحسب بل فيه من هذا وذاك .

المجتمع في المملكة اللاتينية وملحقاتها .

كان قوام هذا المجتمع الجديد خليطا من الاجناس والقويات واللغات والاديان ما من غربيين وشرقيين بينهم الفرنسي والانكليزي والابيطالي والالمانى كما فيهم العربى والتركى والاردنى والارمنى وكذلك ترى بينهم السهودى والمسلم والنصرانى ما بين روم ارنوذكرو ولا نير وموارنة وسامارة وسعانية او سنى وشيخى ودرزى ونصيرى . هذا مع تفاوت بين فو المظهر الاجتماعى والدرجة الثقافية (٢) .

ومع ما كان عليه هذا المجموع من اختلاف وتفاوت وتعدد فقد اخذوا جميعيشون جميعهم بعد فترة الانتقال راغبين مطمئنين لولا غزوات كان ينادلها من آن لآخر جماعة الاقلايس وحملات كان ينادلها ارباب الحرب والقتال من حلقوا لها وحلوا على ارجاءها دفاعا عن كيانهم او حبا لنفوسه لدى النمك .

تلك حال يشهد بها الواقع انه لم تكن تنقضى فترة الانتقال من الفتح الى الاستقرار حتى رابنا الا من الحائس بنفوسه من الاخر وسود حائسهم من غير قلبا من روح التفاهم والتساهل (٣) بل سعدنا البعض ممن زاروا البلاد

في ذلك العهد كابن جبير مثلا الرحالة الاندلسي المسلم بحمد ما كان فيه سكان البلاد عامة وابناء ملته خاصة من دعة وامن ورجاء في ظل الادارة الحديدية (١) .

واذا رحنا نوازن بين هذا المظهر الحديد وبين ما كان عليه المراسلون من مشاهير الدالة والناوة والعفا في عهدهم الا واننا لنعجب حد الحب لذلك التغيير الذي طرا على اخلاقهم وتصرفاتهم فتبدلوا تبديلا .

ولو اصبنا الى بعض مؤرخيهم ونوخي العرب في ذلك العهد لسمعنا ما يجعلنا نتردد في الاهتقاد بان بالامكان ان تشهد عن مثل هؤلاء القوم ما خبرناه من انقلاب فيما بعد . والبك ما انقله عن الراهب النقي روبرت عن سلوكهم ، نورد له للدلالة على سياستهم الحربية قال = " كان قوما الصليبيون يحبون ، كالسواء التي خطفت صفارها ، الدوار ، والسادين ، وساج البيوت ، ليروا غلبتهم من الثغيا ، وكانوا يقولون بان المير للحرخوا منها الذهب فبا لكده . وكانوا يدوسون جند قتل تلك الجماعة الكبر التي لم يبر احد من افرادها النصرانية دينا . " هذا في مدينة مارات (كذا) ولعلها المعزة (١) .

اما غروسيه فيبعد ان يورد الخبر نفسه يستدرك فيقول = " لا بد من ان تنقضي مذوات عدة قبل ان يتبدل روح الصليبية (كذا) — وكان به قد اذقت من ان بقوا " هذه الوحشية " بالروح الاستعمارية (٢) .

وليس يستغرب ان يبلة مقت الشرفيين لهؤلاء الصليبيين حدا الهديد عبر عند الداور الفارس الكبير سعدى بقوله " لم يكن اولئك الوحوش من البشر " (٣) وهناك شاهد عدا آخر على تلك الفسوة هو الكاهن انكبا . اذ يقول في مؤلفه = " فلما كان صليبي يسير نحو دبنو . قام بئر اولئك الصليبي حرائم وحشية ولا شرا من غروب السلب والنهب او الفضاك المزينة الا اقترفوها (٥) وكذل

(١) ابن جبير ص ٢٨٢ — (٢) لوبون — زعير ص ٣٢٥ — (٣) غروسيه ج ١ ص ١٢٣ — (٤) لوبون — زعير ص ٢٥٣ — (٥) نفسه ص ٣٥٧ .

فلا نحب ان يعزو سان برنار - الداعية الاكرم للحملة الصليبية الثانية
فدلتهم فيها الى ما ارتكبوه من مظالم (١) .

واخيرا فنورد راي اسامة بن منقذ في اخلاق فرسانهم وهو
من بلاهم في السرا والضرا ايضا اذ يقول - " لا يرى فيهم سوى بهائم .
امنازوا بصفة الشجاعة والقتال لا غير (كذا) كما هو البهائم فضيلة القوة والحمل (٢)

والان فما هي العوامل التي جعلت هؤلاء القوم يخلعون عنهم
تلك الغلظة والفظافة والوحشية لينبدلوا بتلك " الساسة " وذلك الا عند ال في
في ادارة البلاد . الحواب على ذلك بصحبه بشيئا مني تذكرنا الروحية التي
انت اكثر منهم بها الى الشرق لبقائنا ٣ الكفرة والعنفة التي كانوا جميعهم يحملونها
لدى وفودهم الى البلاد المقدسة التي يسكنها عبدة محمد وصنمه " اقول اذا
تذكرنا هذا علمنا ان الدعاة الباطلة لا بد ان ينحلي الحق من ورائها وان
ينقلب مفعولها الى ضدده وهذا ما حصل فعلا مع هؤلاء المساكين الذين سمعت
الناوية افكارهم واخرجتهم عن طبيعتهم الانسانية لما رب خامة تبنوا مبلغ الصحة منها
فيما بعد ولاغرائهم اخفاها بعد امرائهم لكنهم ما لبثت ان ظهر حلي امرها . اذ انهم
ما كادوا يصلون الى الثرة وهم على اشد ما يكونون نحسا الى الانتقام بحكم نادر
المخدرات الروحية التي كانوا تحت مفعولها بفضل الدعاوات الباطلة حتى ظهروا بذلك
المظهر البشع الذي صور له لنا كتبهم ومؤرخوا ذلك العصر من غيرهم .

غير انهم ما كادوا يقضون مع سكان البلاد ودحا من زمن يتنصرون
فيه ربه الحق ويستغيثون من تاثير تلك المخدرات حتى تغيرت تلك الروحية اذ وكهو
وجدوا انفسهم امام شعوب بعيد افرادها رب العالمين لا محمدا ولا صنمه " وتعرفوا
الى انهم يحترمون المرأة ويشفقون من ابدا الشيخ والطفل .

بلى فقد القوا انفسهم وجها الى وجه مع الحق والحقيقة ولا تستبعد
ان تكون بعض الوحوه منهم قد احترت خحلا لدى اكتشافهم خديعتهم . لذلك
لم يسعهم عندئذ الا ان يتبدلوا روحا غير ما تلبسوا به من روح تعصبي ذميم (٤)

(١٠) لوبون زعنبر ص ٣٥٧ - (٢) كتاب الاعتبار حتى ص ١٢٢ - (٣) تاريخ العرب -

حتى ص ٦٤٣ - (٤) تراث العرب ص ١٦٦-١٦٧ .

ولم يلبثوا ان نزحوا عنهم عقلية كانت تربهم الشرخيرا والصلاح . هذا ما
حرى بحكم العامل الاحتياجي الذي كما قال غروسيه قد اقتضى له بعض الزمن
قبل ان تم فيهم مفعوله .

ولنا فيما فرره مؤرخهم المنصفون بهذا الصدد الواحد العدل ايضا على
ما فررناه نحن سابقا . فلنسمع ما يجهر به احدهم فوشيه دوشارتر في مؤلفه
ان يقول في تاريخ سنة ١١٢٠ م = "ها نحن اولاً قد حولنا الى مرقبين فما
كان منا ابااليا او فرنسيا في الامر قد اصيب اليوم في وطنه الحديد حليلنا او
فلساينيا . وكذلك قد حول ابن مدينة ريمر (Rems) او مدينة (Rems)
الى صوري او انطاكي ، فقد نسى كل منا وطنه الاول فلم يعد احد يتذكره بل
لم يعد احد يتكلم عنه . وقد غدا الواحد منا بملك بينا وحشما وهو مطمئن حتى
كان قد ورث ذلك بحق قديم له في البلاد كما ان البعض قد تزوجوا لا بالمواثبات
الذريعات بل بالسوريات او الارمنيات او احيانا بالسلطات بعد ان تعمدن . هكذا
اصب كل منا بعيد في وسط اسرة وطنية حميلة وانا لنستعمل من آن لآخر اللغات
المحلية المختلفة فاصبح بان البلد والمهاجر منا من متعددي اللغات . وقد شد
النضام ما بين اثر الاحياء منا تباعدا حتى صدقت فينا آية التوراة القائلة =
"سباكل الاسد والثور في معلف واحد" (٢٥٧٢٨٧) ويكاد الواحد منا
يكون قد تبلد والمهاجر قد تمنا بالمقيم . وفي كل يوم يغدو علينا الاقرباء
والاسدان فيفضلون ان يتركوا كل عقاراتهم هناك لينضموا الينا ان اصبح بالحقيقة
الغدير منا غنيا بنعمة الله ومن كان لا يملك سوى دراهمات اصبح بنعم هنا بشرة
طائلة ضخمة حتى ان من لم يكن بملك قرية غدا هنا سيدا لمدينة بكاملها . فلم
العودة الى الغرب طالما الشرق يحقق منا الرغبات" (١)

وكذلك لنا على هذا الانقلاب عن القوم شاهد في كتاب الاعتبار لاسامة
حيث يقول ص ١٣٤ "فل من هو (من الصليبيين) قرب العهد بالبلاد الافرنجية
اجلني اخلاقا من الذين قد تبلدوا وعامروا المسلمين" .
اذن لقد كان في "التبلد ومعايرة المسلمين" عامل قوي في تحويل الفهم

وتبدلهم مما كانوا فيه من جفاء وخشونة الى ما اصبحوا فيه من دماثة في الاخلاق وانسباها، البلاد وازدياد الثقة فيهم والطائفة اليهم .

هذا مع العلم ان هناك عاملا نفسيا كان له اثره في تلك المظاهرة

الاجتماعية بمعنى به ان سكان البلاد كانوا مجموعهم قد فقدوا العزة القومية لكثرة ما تغبر عليهم من حكام واصبح الامر لديهم سببا احكمهم هذا ام ذلك على شرط ان ينعموا بالعدا فيطمانوا الى اموالهم وارواحهم وممارسة دينهم وحقوقهم . وكلن ملوا الافرنج وعلى ما ظهر فيما بعد مستعدين لان يوفروا لهم ذلك اذا هم اخلدوا الى السكنى وانصرفوا الى اعمالهم الزراعية والصناعية والتجارية (١) وتركوا القتال لاهل الحرب والنزال . فكان هذا عاملا آخر قد ساعد بالفعل على تقرب الثقة بين الشعبين والعمل على زيادة اسباب التفاهم ولاختلاط بل والتمازج ايضا . فلا عجب ان نسمع امير صليبا يقول - " ان القتال بين المسلمين والافرنج انتحار اخوى " وكذلك موقف بعض رجال الدين من الافرنج كفليم اسقف صور بدل على هذا التبدل الجميل (٢) . (٣)

وهناك فضلا عن هذه العوامل الاجتماعية والسياسية والنفسية العامل الطبيعي الذي لا يقل اهمية عن سابقه في تعليل هذه الظاهرة اذا كنا نراهم يعترفون بحب ابيلاذ كما ادهشهم اخلاق اهلها فاما فانسوا بها حتى نسوا بتأثير جمالها ووفرة خيراتها وطيب هوائها اولئانهم الاولى " فلم يعودوا يذكرونها " فما كان منهم الا ان توطنوها وراحوا يكتفون حباثهم الخاصة والعامة حسب مقتضيات الحال والمناخ فاتخذوا في بناء بيوتهم ونصور الامراء والملوك منهم الدلاز العربى المتلائم مع ظروف البلاد فسكوا البنائيات ذات الاقنية الفسيحة تحول بها الغرف والفاعات وتنوسطها " البحرة " بتدفق منها الماء وينطلق من النافورة غالبا فسي الهواء ثم تنتشر ذراته رذاذا بخفف شدة الحرارة وبعث في النفوس البهجة والسرور كما يشيع في الاحسام البرودة والراحة (٣) . هذا عدا ما اقاموه فيها من آيات الزخرف بتصنيع حدرانها وسقوفها بالرمل والفسيفساء وتوسيعها بالذهب والالوان المعدنية الاخرى والمبنا .

(١) المستعمرات الافرنجية لبراي ص ١٠٦-١٠٧ - (٢) نراث العرب ص ١٦٧ -

(٣) تاريخ العرب - حتى - ص ٦٤٣-٦٤٤ .

line

line

line

line

line

راج بمنع عن أكل الخنازير تشبها بالمسلمين من الكافرين (١) . ولم يكن ثلثهم
أقل ومن ذلك في المشروبات فاصطنعوا منها المعطرة والمنجعة والحلاة وكذلك
بحدتنا أحد مؤرخو ذلك العهد منهم = جاك دوكتري (Jacques de Vitry)
عن تلج لبنان والستعمالهم له في المبردات (٢) .

وقد حذا الفرنجة الإنس حذو الكافرين في أعيادهم وحفلات لهم
فتشبهوا بهم في اتخاذ جوقات الطرب في محالير الشراب فاستمعوا إلى الأرغلي والمزمار
والعود والقيثارة والربابة وغيرها كالأبواء المصنوعة من قرون الحيوانات (٣) وكذلك
فقد استمعوا إلى المغنيات في أفراحهم كما استندعوا الندابات في المآتم أيضا .
هذا وقد اتخذوا لذلك كله أدواء النحاسية والفضية والذهبية فضلا عن أغنية
الموائد من الأقمشة الفاخرة (٤) .

ولعل الصيد كان من اللذ ما يقضون فيه أوقات فراغهم بعد طول
القتال والنزاع في ساحات الحرب ولا سيما في أوقات المهادنات إذ كثيرا ما كان
الأفرنج والأمراء من المسلمين يتبادلون الرخص للصيد في الأراضي المحاورة لكل
منهم فيحدثون الحلقات المشتركة (٥) . وقد اتخذوا له البزاة والصقور والدواهي
والكلاب الصلوبة وغيرها (٦) .

وأما المماريات الرياضية وحفلات السبب عندهم فقد كان فيها شيء
من الخشونة كما بحدتنا بذلك أسامة إذ حضر أحداها في طبرية وهات ما يقول -
"حضرت بآبرية في عيد من أعيادهم (المسيحيين) وقد خرج الفرسان يلعبون بالرمح
وخرج معهم عجوزان قانيتان (كذا) أوقفوهما في رابر البندان وتركوا في رأسه
الآخر خنزيرا مسطوفا وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين المعجوزين ومع كل واحدة
منهن (كذا) سربة من الخيالة يشدون منها والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة
وهم يضحكون حتى سبقت واحدة منهن فاخذت ذلك الخنزير في سببها" (كتاب الاعتبار
ص ١٣٨) . أما سابقاتهم على ظهور الخيل فأيده ما تكون بالعاب الجريد عند

(١) كتاب الاعتبار . أسامة ص ١٤٠ - ١٤١ - (٢) المستعمرات الأفرنجية ص ١١ -

(٣) نراث الإسلام - باركر - ص ١٢٣ - (٤) المستعمرات الأفرنجية رأى ص ١٠ -

(٥) انظر رأى ص ٥٥ وحتى في تاريخ العرب ص ٦٤٣ - (٦) كتاب الاعتبار أسامة ص ١٢٣

رغبة منها بهرقل زعيم اساقفة قسطنطينية بارغم مما كانت تعلمه عن سوء آدابه .
وهناك قصة زواج الاميرة سيبيل وريثة عزى المملكة واغرائها بخدوين الابلىنى
صاحب الرملة ثم نكدها عنه فو سبيل فو اللوزيانى بطل ماساتهم فسو
حطين (غروسبه ج ٢ ص ٦٨٧)

هذا ويكفينا غروسبه مؤنة الاطالة فو البحث فو الموضوع ان انه
يُسلخه حالة المملكة فو عهد الملك الابرى بخدوين الرابع قبل هبوب العاصفة
فو حابين بقايا ، بما بلى " بلاط ملكى يبتسر بالنزول " ولا يورد ذلك تسلط
النساء وتنفذ رجال الحامية الاندال وقد مثل هذا وذا فو سوء اختيار سيبيل
وريثة العرش برفقة ما اركها فو الحكم رغبة منها فو حمل وحبه مع قبح نفسه
اما اخت الملك الثانية ايزابا فانثرت الزواج برحا اركان ساقط الهمة نعيمه
سوءه فلا وكذلك لم تكن الملكة الوالدة آنياب (Ag. de) ماقل سوءا ان
انها راحت تشار الحامية فو الكبد ارضاء لشهوة الحكم عندها . ولو ادى
ذلك بالمملكة الى الحضيض واخيرا المذ الى هذا كله ان اكر رجال الاقطاع
يوهمند الثالث سيد انطاكية كان آنذاك يرتو فو احضان خليله (Sibylla)
التي تنحسر عليهم لحساب السلطان صلاح الدين . ولما اراد رجال
الدين تسديدها راج بضطهم (١) .

اما المرأة فو الطبقة الوسطى فلم تكن احسن حالا من سيدتها
" النبيلة " ان يحدثنا مؤرخوهم عما كانت عليه هو ايضا من السفول ولا سيما فو
ابان وحفتهم . من ذلك ما جاء على لسان اميروار () قوله " هادت
النساء من عكا الى صافا سنة ١١٩١ ورجن بحرور انديال الفجور فو تصرفهن
الدائن ان كن يقدن عليها بالمرآك والزوارق - وهنا يتاوه مثالما نم بفصول -
" رحماك اللهم امثل هذا السلاج بسنود مبراث الرب " .
وما هو اشد دلالة على سقوط القيم اخلاقا ان جنودهم كانت تغادر
الاعمال الترسية فو صافا لترجع الى عكا حيث يقضون مع " السنا " اوقانهم فو الفسق

والفحور وقد اشتهر وتنفذ ريكارد الى الحدود لعلنا لينزء بنفسه هتولا* الصليبيين
من المواخير والخمارات (٢) . والغريب في امر هذا الثورة الفرنسي الحديد غروسيه
انه سرجه ذلك السقوط في اخلاق القوم رجالا ونساء الى تأثير الارز وهو لو فكر
واذرا لانصه ان ان هذه الاخلاق نفسها كانت فيهم منذ عهدهم الاول ففروا فيها الان
وهذا جاك دوفترى يترك لنا صورة حبة لمدنية عكا في عهده فيقول = كانت
عكا من بين المدن الساحلية مكثفة سكان الهوى اللاتي يجنين ارباحا عا بلقيته من خطوة
عند رجال الدين والدنيا على السواء* (٣) ثم يستمر في وصفها فيقول = "نرى الرجال فيها
يتناولون نساءهم والزوجات يسمعن رجالهم في سبيل عثاقهن ، فلا غربة اذن ان نختم عكا
بسم السموم واله قاتل المسممة* ولم يكن امبرواز (*Ambrus*) باقا لدعا من زميله في نفذه
الفرنسيين من جنود الحملة الثالثة ان بقوا = كانوا يغتصون لبايهم في الرقة ٠٠٠٠ وبعد
معاقرتهم بشدة الحان حتى الصباح كانوا يغدون الى بيوت الدعارة مع ربيد محترجين الانام
بالكسبر والتخريب* (٤) .

وقد يحسن ان نورد ايضا ما جاء في شهاب الدين في كتاب الروضتين في
اخبار الدولتين ان بقوا ص ١٤٩ في تاريخ سنة ١١٩٠ "وصلت في مركب ثلاثمائة امرأة
فرنجية مستحسنات اجتماع من الحزائر (الحزير) وانتهين للحزائر وتغرين لاسعاف الذرية*
وقصدن بخروجهن تسبل انفسهن للاثقباء وانهن لا يمتنعن من العزباء* وراين انهن لا
يتفرعن بكا بافضل من هذا التريان ، وزعمن ان هذه قرية ما فوشها قرية لا سيما فيمن اجتمعت
فيه غربة وعزبة* ثم يستمر فيقول "وابقى من عسكرنا من المائيد الاغنياء والمدايير
الحبلاء جماعة حذسهم الهوى واتبعوا فن غوى فعضهم من رضى اللذة بالذلة ومنهم من
ندم على الزلة فتجبل في النقلة* .

والان كذا يعلل غروسيه ما يجترحه هتولا* النسوة وهن قريسات عهد بالشرق*
فهل كسبين ما عندهن من اخلاق في الدمار الدامية ام هي من صفاتهن ومادرات الغرب
وجزره .

ولما ذابو* دى بنا الى الكلام عن الفروسيه عند هتولا* القوم . لقد راينا
سابقا ان بعض المؤرخين يصلون الى رد ثبوتها عند ام الى عوائد قديمة عند الحرمان منها
يرى البعض الاخر كالكتور حتى انها "زهرة لا يذكر احد انها زهت اولا على نربة

سورية ومنها انتقلت الى البلدان الأوروبية . وقد بقيت الفروسة احواما بنبوها مسن
بناسيم المرووة والشهامة واللطة في محط بلاد العرب ، لان الفارس كان من اول
واحسانه ان يفسم بيضا نوحى عليه نفوى الله اولا ثم حماية الضعيف ان امرأة او
طفلا لم يعدم نائبا ، وكما كان صلاح الدين الابوى المال الاعلى للفروسيمة
الحرية كذلك كان ريكاردوس قلب الاسد ممنا الفروسة الغربية ، وكانت الاقاصيص
والحكايات التي تدولنها الاليس في اوروپ كلها مشحونة من صور الاساطير المسلمين
الذين امتازوا لها فقط بيسالتهم بل وبشهامتهم وحسن خيافتهم مع المحافظة
على شرف كلمتهم * و(١) .

وهنا لا بد من التعقيب على ما جاء به الاستاذ العلامة قبلباحتى
اذ انه قد امان ان الفروسة مع كونها "زهرة زهت اولا في تربة سورية" فهو ايضا
نفوس على حصيلتين اثنتين = (١) البسالة و (٢) الشهامة " فاذا توفرت " البسالة "
في ريكاردوس فهنا ظهرت في اعماله ونصيراته " الشهامة " بل ابن كانت المرووة
في تصرفات النفوس في عهدهم الاول بالبلاد

المير في هذا برهان قاطع على ان الفروسة عند الانزع لم تعرف الا
شخصا الاوا فيها الحروب الصليبية . ثم المير في اصرار الكنيسة على الفارس بوجوب
"حلفه اليمين بضرورة نفوى الله و....." دليل على ان المروة لم تكن عندهم
الا نفوس خارجة لا شهود داخلين . والفرق بين هذا وذاك عظيم بحسب الانتماء
اليه .

(١) تحفة الشرق للغرب لحنى — في الكتاب الذهبي ص ١٤٤ .

الحكومة وهياتها الثلاث الادارية - القضائية والنشرية

فما ان انتهى دور الفتى حتى خضعت اسر السلا في القدس وتوزع
الامراء الاقطاع - نحو اثنتان مائة المحتمة " العالمى " الحديد بين فيه من
مدرسين وتربس تمام حكومت تدبر - بهياتها الثلاث - الادارية والقضائية والعسكرية
امور البلاد وترعى مصالح اهليها وترد هضا كرات المسلمين عليها .
غير ان هذا كله لم يتم نهائيا قبل ثلاثة ارباء القرن من الزمن اقتضتها
عملية التوفيق والملازمة بين ما حاه به التزم من شكل اقطاعى وبين ما كان من ذلك
في البلاد فنشج عن ذلك من الانظمة والقوانين ما كان اقوى مما عرفه في اوروىة
خلال العصور الاوسطى جميعها (١) .

وما نظن تحليل ذلك بعسير ان جاءت مجموعات قوانين " السلا
اللاتنية في القدس " وامارة انطاكية وكونتية طرابلس برهاننا على صحة ما نزع . ولنا
فيما لم مندوحة عن التمسك في اصل تلكم " الدساتير " اما نحو: الطبقة الوسطى
في ملكة الاراضي فكانت حسب القوانين الرومانية التي وحدها الافرنج مطبقة في
البلاد فلم يسعهم الا احترامها وانرارها كما كان سبق للعرب ان فعلوا من قبلهم .
هذا ما العلم أن مجموعة القوانين " المحتمة بالطبقة الوسطى والتي وصلت
النا قد ورثت من سنة ١١٧٣ سنة ١١٨٠ وهي مُتَضَع بالروح الرومانية .
وما تحسن الاشارة اليه ان " هذه القوانين نفسها كانت منسبة في
بلدان اوروىة الرئيسية ومع ذلك فكانت تُطبق بحذافيرها في المستعمرات اللاتنية في
الشرق " (٢) .

اما فيما يختص بالادارة فكان امرا منوطا ما ناث (Vis count) او البسكد
(كما حاه في المراجع العربية) (٣) وكان هذا فضلا عن نراسه " المحكمة العليا " في
اقطاعه مسؤولا ايضا عن الامن فيها مساعدة المحتسب ورجال الشرطة معه .
ومنصب المحتسب هذا عريو اسلامى وحده الافرنج في البلاد فعملوا به
والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومعالجتهم
ومن شرط المحتسب ان يكون مسلما حرا بالغافلا عادلا قادرا (٤)

(١) لامسرح ١٢٥٦ وانظر ايضا راء ص ١٤٢ وحتو - الكتاب الذ هيو من ١٤٢
(٢) راء من - (٣) كتابه الرضا من ١٤٩ (٤) مقام القرية في اعطام الكتب ص ٧

(١) ومن الأمور المنوطة بمراقبة المحاسب :

- (١) الطرقات والأسواق
- (٢) الموازين والمكاييل
- (٣) تجار الحبوب والدقيق
- (٤) الخبازون
- (٥) الحزارون
- (٦) بائعو اللحم الطازج
- (٧) بائعو السمك المملح
- (٨) بائعو الزيت والسمن
- (٩) بائعو الشرابات
- (١٠) معلمو الصبيان
- (١١) الأطباء والمجبرون
- (١٢) أطباء العيون

ومن المرقى أن لا تختل وظيفة المحاسب في المستعمرات الأفريقية عن ذلك كثيرا

هذا في الإدارة أما في القضاء فكان هنا محكمتان - محكمة التجارة وتعرف

" محكمة القند " أو السوق " ومحكمة الملاحة أو " محكمة السلسلة " التي تنظر فيها الموانئ

أما الأولى فكان اختصاصها النظر فيما يقوم من قضايا - "تجار وتالف من ستة أعضاء

منهم أربعة سوربون واثنان أفريحيان " وهذه تذكرنا بالمحاكم المختلطة في ألمانا هذه

وأما الثانية فكانت تحكم في قضايا البحارة وما يتعلق بالملاحة ومتفرعاتها .

وكان غير هاتين محكمة أهلية مختصة بالسوربون تسمى " محكمة الرمس " وهو " ريس

البلد " أو نائب ^{الشيخنة} الملاحة . وكان أعضاؤها - أعضاء محكمة التجارة يحكمون حسب قوانين

الإمارة مع مراعاة العرف المحلي وتقاليد أهلها .

غير أنه لا بد من الوقوف هنا قليلا حتى نضع صورة لقضاء النجم وحكمهم

وذلك للمقارنة بين ما كان عند العرب من ذلك وما كان عند الأفريق منه . فقد

قال أسامة في كتاب الأعشار ص ١٣٨ - ١٤٠ " وشهدت يوما بنابلير وقد أحضرنا اثنين

"للمحاكمة" وكان سبب ذلك ان حرامية من المسلمين كسوا ضبعة من نساء النصارى
فأتهموا بها رجلا من الفلاحين وقالوا "هودل الحرامية على الضبعة" فمسرب .
فنفذ الملك فتيحة اولاده . فعاد اليه وقال = "انصفني . انا ابارز الذي قال عني
انني دلت الحرامية على القرية" . فقال الملك لصاحب القرية المظيع = "احضر من
بيارزه" . فمضى الى قريته وفيها رجل حداد فآخذه وقال له "تبارز ارفاقا من
المظيع على فلاحيه لا يقتل منهم واحد فتخرب فلاحته . فتأذنت هذا الحداد وهو
شاب قوي الا انه قد انتطه مشي وحلوس بطلب ما يشربه وذلك الاحر الذي طلب
المراز شربه الا انه قوي النفس بزجر وهو غير محتف بالمسارزة . فحاشا البسكند وهو
محنة البلد فاعطى كل واحد منهما العصا والتمير وجعل الناس حولهم حلقة .
والنقبا . فكان الشبح يلز ذلك الحداد وهو يتأخر حتى يلجئه الى
الحلقة ثم يعود الى الوسط وقد ثاريا حتى بقا كعمود الدم . فلال الامر بينهما
والبسكند بسنة حلبيما وهو يتفوا بالعجلة . ونفع الحداد اذمانه بسرب الدارة . واعبر
ذلك الحداد فضربه الحداد فوقه ، ووقع عصاه تحت ظهره . فبرك عليه الحداد
بداخل اصابه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم في عينيه . ثم قام عنه وضرب راسه
بالعصا حتى نثله . فطرحوا في رقبته في الوقت حيا وجروه وثقفوه . وحاشا صاحب
الحداد اعطاه غفارته واركيه خلفه واخذه وانصرف .

تلك الطريقة من طرة المحاكمات عندهم تعرف بطريقة المسارزة ولهم طريقة
اخرى لا نال فطاعة من الاول اوردتها اسامة صدد محاسنهم لفتى "كانت امه مزوجة
لرجل افرنجي فقتله وسار الولد حزنا على حجاجهم وشعائره امه علو قتلهم فأتهموه
بذلك وعملوا له حكم الافرنج = حلسوا نسبية عذيمة وملاوها ماء وعرسوا عليها دف حذب .
وثقفوا ذلك المنهم ورساوا في كتافه حيا ورموه في الشية - فان كان سرتا غاص في
الماء فرفعوه بذلك السما لا سموت في الماء ، وان كان له الذنب ما سويس في الماء
فحرم ذلك لما رموه في الماء ان يغوص فما قدر فوجت عليه حكمهم ، له فبهم الله فكحلوه .
وفي هذين النموذجين عن فقههم وقوانينهم ما جعلنا قدر السبب في
"ان الراك البحرية والتجارة الأوروبية كلها ترجع الى اصول وسعت للمرة الاولى في
انها الحروب الصليبية (١)

ولبت الافرنج يعتمدون في حروبهم على فرسانهم ومنظمتهم العسكرية

المخصصة لذلك كقوة السطارية وفرقة المعبديين (الداوية) وعلى حموى السرفندية (١) حتى انصاروا مع الزمن الى الاستعانة بالبلديين في تعبئة جيشهم فراحوا يذكون الخيانة الخفيفة من المسلمين والمسيحيين وقد عرف ابرادها بالتركيز على وكان من بينهم الموارنة الذين كانوا مسالمين طوائفين . وكثيرا ما استخدم منا هؤلاء المرتزقة بحسب الاديرة كدور على الطور والمذابح العسكرية حتى ان ابرار ليلهم اتخذ منهم حرسه الخاص (٢) في النصف الثاني من القرن الثاني عشر .

هذا وكان الافرنج يادى الامر بتقوية الحراب والسهام بدروع ثقيلة مصفحة

كثيرا ما كانت تعصفهم في الحركة وتحملهم بطيئين في العمل . مما اهاب بهم اخيرا الى اتخاذ الدروع الخفيفة ذات الزرد واستعمال الخوذ الاسطوانية الشكل المرونة بالخوذ الصليبية كذلك المنحنية والكبيرة ووضه الاكمام المنقورة وتركيب البارود والمواد المفرقة . واعداد النفط المتقد بالماء او ما يعرف عند الاوروبيين " النار اليونانية " ومع ان البارود من اختراء الصينيين فان لدينا ما يثبت ان العرب

استعملوه واستعملوا مركباته للقتال خلال الحروب الصليبية وذلك حوالي النصف الثاني من القرن الثالث عشر والذي في محاولة عنوانها " كتاب التعريف بالامصار الشريف " المطبع في القاهرة مشاهد الدين ابي العباس احمد بن فضل الله العمري ، حيث نرى اشارات الى " قنابر البارود المصنوعة " . . . (النو) امتدت كانهما سحابة وهددت كانهما رعود واضطربت كانهما حربة وجعلت الكا رمادا (٣) . وكذلك فنجد في المؤرخون الفرنسيون ان الملك فيليب اوفسولوب قد احرق الاسطول الانكليزي في سنة دباب بالنهر اليونانية . وما ان هذه النار لم يكن لها معاما في فرنسا ان ذاك " فلا بد من ان يكون الملك المذكور قد طلبها من معاما عكا " كما ورد في الكتاب الذهبي ص ١٤٢ .

وفي منتصف القرن الثالث عشر انتشر بين الافرنج استعمال الاسلحة الثلية

وغيرها من صنع البلاد الشرقية الاخرى فكانوا يبتاعون من دمشق السيف " الفرنجية " من صنع اليمن (٤) .

وكذلك نرى ان الافرنج مدة اقامتهم في الدار النامية قد استفادوا من

اختراعات العرب في الهندسة الحربية فاخذوا عنهم اسلحت من الحصى والاسلحكات (٥)

(١) يعني مداة اذار اسامة ص ٦٧ - (٢) الكتاب الذهبي ص ١٤٣ - نفسه ص ٣٠ - (٣) راي ص ٢٩ - ٣٠ - (٤) الكتاب الذهبي ص ١٤٣ راي ص ٣٨ .

كما حسنها كثيرا في وسائل الدفاع في اواخر القرن الثاني عشر حتى ان احد مؤرخي العرب في ذلك العهد يذكر ما كانت عليه " نسي " الشايبين الا فرج من الدقة والشدة على جيش صلاح الدين لدى محاصرته لمطوس سنة ١١٨١-١١٨٢ اذ كانت تنقل اوتار صفوف المسلمين من ابراج الحصن دون ان يتمكنوا هم من اصابة المدافعين عنه (٢٠)

وبذلك يكون الا فرج قد استطاعوا بفضل المهندسين الشاميين والارمن التضلعين من العلوم الدقيقة " ان يصعدوا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر للجيو الهندسة المسلمة .

ثم ما لبث الفلاح من بينهم ان اخذوا انفسهم بهذه العلوم والفنون حتى انقضوا وقد ذكر احد مؤرخيهم انه في سنة ١٢٣٩ استطاع احد مهندسيهم *Anseau de Brie* ان يصنع آلة مدهشة تستعمل في حصار القنطرة في جزيرة قبرص (٢١)

ومما اقتبس الا فرج عن العرب وله علاقة بالروب اخذ الدار لبل وحمم البطا في نهاراً لنقل

الاخبار المستحقة (٢) او اعطاء إشارة الخطر لانقاذ مبرمداهم اوجبت مهاجم كما انهم اصطنعوا لانفسهم الحواسيب في ملاحظات الملوك والامراء بوصفهم بالاخبار سرا . وكبرا ما اتيحت الاطباء يقومون بمنا هذه المهمة في سبيل اخبر والتفاهم ومن ذلك ايضا ان خانم الرباط العسكرية في المبادئ الحربية واستخدم الطبال والنمر رغبة في بحث الحاسنة قلوب اللغاتين . (٤)

ولا يسعنا الا ان نذكر انما قلد الا فرج به المسلمين من عادة اتخاذ " الرنوك " او اله مار وكبرا ما كانت هذه ترسا بحدشارة الامير او الملك . ويرجع تاريخ هذه الشارات الى القرن الحادي عشر ثم ما لبث ان عم استعمالها وتنوعت اشكالها في القرن الثالث عشر (٥)

وكذلك اقتدى القوم بالترقيين في الاصطلاح على علام لتبميز الانساب وبذلك دخل علم هذه العلامات الميزة للاسر المالكة والشرقة او اورو . وكان لهذا تاثير في ترقية الفنون الجميلة وفي الحياة الاجتماعية كما يقول الاسناد الدكتور فليب حتى

صور حقا لنقد كانت قصور الامراء الغربيين في امقاطعاتها لفرنسية تبدو غريبة المظهر لم يبن فيها من الفرسان والمشاة وهم يروحون ويغدون بالبنسهم المتنوعة واسلحتهم المختلفة برانون بلغاتهم العديدة وتميزون باحنا سهم المتباينة .

(١) الكتاب الذهبي ١٤٠٠-٣٨ رأى (٢) رأى ٣٨ - ٣٩ (٣) الكتاب الذهبي ١٤٤٠ ورأى ٤٣ (٤) الكتاب الذهبي ١٤٣ ص ٥١ (٥) نفسه ص ١٦

وأما رجال الانبياء فكانوا أيضا يخدمون في بيوتهم من الحشم والخو ما يشكل مع ت
الحاشد والكاتب والطبيب حامية الخندق وكثيرا ما كان هذا الأخير من أهل أبلاد المسيحيين

أو المسلمين، أم اليهودي (١) الذي اقتفاه الخدم من الغربيين، وأعيد الأرفاء من الشرقيين

وذكورا وإناثا، يدرّبهم عادة من أربنية ويغلب أن يكون بينهم السودانيون والسودانيات
رأى بهم النحاسون الأحياء إلى سواد حدة في الحجاز ثم تنقلهم القوافل الداجية الحادثة
إلى أمة المصح. هذا فضلا عن انخراطهم في الخصيان لخدمتهم الخاصة فقد نفا عن

الملكة سودورا لرملة بخدمته الثانية أنه كان في حاشيتها منهم عدد غير قليل اصطحبهم
معها عندما عرفت علو الاعتزاز في دبر القديسة حنة في القديسة (٢)

الصدقات

ولما أروها ما يؤمنون حياة الرب والافرنج خلال الحروب الصليبية نظم الصدقات
التي رطلت على القلوب والكرور بها فدلته بحوا من التذمر ووشاد الالام ثم
أن الإنسان مهما قويت فيه حيوانيته وطغى عليه نظامه، ما زلنا نشعر في نفسه زاوية
فسيما من الخير والصال والحما بقية تتنزل من حضرة المادة ترتفعه إلى أعلى المصو
الرواحي .

وأما حمل الصدقات ما عند غيرها يبدى قلبي خصمين كاد كل منهما يؤدي بالأخر لولا
أن الكد في الواحد منهما فجأة في صاحبه استنبة حملته بخمس عينا من هناك ليملا
الأخرى بحسناته .

هذا أوجه إلى الدامائنة إلى ما نشهده من الله بما نلقاه لنا المراحه المختلفة من جبر هذه

هذه الصدقات وهما ما حاش منها في كتاب الاعتبار للأفندي الذي هم أسامة ص ٨١ حيث
يتناول مثلما عن نفسه .

كنت أتورد إلى ملا الأفرنج قلا الخامس ملا القديس في الصليبيته وبين جمال الدين
محمد بن تاج الملوك (أمير دمشق وقتئذ) رحمه الله ، ليد كانه للوالد رحمه الله على بخدمته
الملاك والد الملكة امرأة الملك فلك الخامس م

وهما مثلا - راننا روعة عن سابقه - في صفحة ٩٠ من نفسه الكتاب المذكور وذلك
أن هو دوسلمن الاوا صاحب تاج بارما غار على الرقة والقلعة وهي لنجم الدولة بال بين
سالم ، فاختار لها ما لها وسبو وساء غنائم كثيرة ونزا مقابل القلعة وبينهم افراة .

فركت نحم الدولة مال في زورق وعبر الفرات الى حوسلين وبينهما معرفة قديمة ولما كان عليه حملا ٠٠٠٠ فقام حوسلين وانتفاء واكرمه ورد عليه جميع ما كان اخذه من الذنائب والصبي ٠

ودونك مثالا ثالثا يكشف عن ناحية نحن في صدها .

"ثم ملك بغداديين (الثاني) انطاكية . وكان لابي وعمر (اسامة بنكلم)

عليه حملا كبير حيث كان اسره نور الدين ملك (صاحب منطقة شمال اوزن) ٠٠٠٠ فحما النما الى مدينزرت لبتوسط ابي وعمر ٠٠٠٠ بيده فاحسنا الله . فما ملك (بغداديين هذا) كانت لصاحب انطاكية علينا ~~فقط~~ قطيعة قيمتها اربعة آلاف دينار وسعها تنكرو سنة ١١١٠) سامحنا بها وصار امرنا في انطاكية نافذا من ٢٠ - ١٢ من كتاب الاعتبار . وناهية بصدقة اسامة نفسه للداوية هناك ما يحدثنا هو نفسه عنها في ص ١٣٤ - ١٣٥ اذ يقول "فكنت اذا فخلت المسجد الاقص (في القدس) وفيه الدوية وهم احدنا في يخلون في ذلك المسجد الصغير اصله فيه ."

واخبرنا نخدم هذه السلسلة بذكر نفوذ آخر منها بدل على مبلغ ما

تركته هواند العرب واخذهم في نفوذ البعد من اولئك الافرنج ممن صف نفوسهم فانطبع على صفحتها صورة حبة من فروسية العصر الحيلة . فمن ذلك انني

(اسامة بنكلم) نفدت صاحبها الى انطاكية في شمال . وكان بها الرئيس نادر بن الفاضل الصفي وبنو وبينه صداقة . وهو نافذ الحكم في انطاكية ، فقال لصاحبه يوما "فسد دعائو صديقه لي من الفرنج لتجو" معي حتى ترى زهمهم قال "فصيت معه . فحشنا

الى دار فارم من الفرسان العنق الذين حرقوا في اول حريق الافرنج ٠٠٠ فاحضر مائدة حسنة ولما في غابة النظافة والحدوة . ورتو متوقفا عن الاكل فقال - كان طبيب النفس فانا ما اكل من طعام الفرنج (كذا) . ولا يدخل داري لحم خنزير . فاكلت .

وانصرفنا . فانا بعد محتازا في السوق وامرأة افرنجية تعلقت بي وهي تبرير لسانهم

وما ادري ما تقول فاجتمع على خلق من الفرنج فابقت بالملال واذا ذلك الفاروق

اقبل فرأني فحاه فقال لنك المرأة " ما لك ولهذا المسلم . قال " هذا قتل اخي

غرم () مكان هذا غرم فارسا قتله بعد حشد حماة . فصاح عليها وقال

" هذا الرجل برعاسي (اي تاجر) لا يقتل ولا يحضر القتال " ومام على اولئك المجمعين

فنفروا واخذ بيدي ومضى . فكان ثابتر تلك المواقلة خلاص من القتل ص ١٤٠ - ١٤١

ولو اردنا ان نسرده اكثر ما لدينا من اخبار هذه الصداقات لطال بنا الامر فنؤثر ان نكتفى بهذا النذر منها مع التنويه بما كان بين رشار ثلث الاسد والملك العادل وما كاد يتم بفضل من زواج بين الملك الابوي واخت الملك الانكليزي (انظر غروسيه ج ٣ ص ٢٨٠) (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ص ٩٣)

هذا ولئن ادت مثل هذه الصداقات التي كانت ما بين سنة

١١٩٢-١٢٤٩ الى تلطيف حو العلاقات السياسية والاجتماعية فان لنا في خلاصة

تدريتنا الثانوية ملكة صفلية واماطور جرمانية ما يدخا عليها "عنصرا جديدا هو عنصر التفاهم الثقافي" فتكون بذلك قد بلغت منتهى مداها واقص حد الجمال فيها .

وكفى بهذه خاتمة تعبق بريح الفروسية نفق عندها لننتقل الى

موضوع آخر هو موضوع العلاقات الاقتصادية ولعلها لا تغل بانرها واهميتها عن سابقاتها ما ذكرنا ولاحقانها مما سنذكر فيما بعد من الروابط الثقافية .

الحياة الاقتصادية في " مملكة القدس " وملحقاتها - الزراعة

لقد كان المجتمع في " مملكة القدس " وملحقاتها يتكون كما راينا

من طبقة الارستقراطيين الذين منهم الملوك والامراء والفرسان وفي يد هؤلاء جميعهم كما بنا ، سابقا ، الحكم والقضاة والحرب ثم ياتي بعدهم ، اكثريه السكان من يكادحون في سبيل العيش واستمرار الحياة من ارباب التجارة والصناعة والزراعة ومن فوام الانتاج في الدولة وعليهم المعوا في ايام الحرب والسلام . ونريد الان ان ندرس حالة هذه العناصر الثلاثة بادنى ما الزراعة منها . فقد كان ارباب الزراعة ، على الدوام ،

سواء هم مجموعهم العنصر البلد ، اصحابا ، والوا على مر الاحوال والقرون وشعاب الغزوات والفاتحين ، يذكون النواة الحية في الشعب ان في الحبال والسهول (بطون الوديان ولا عجب ان استمروا يكونون الطبقة المنتجة في اروق البلاد المختلفة وعهودها المتباينة اما الاراضي التي كانوا عليها يعملون وفي سبيل اجائها يكادون ،

فكانت ملكا لابناء الطبقة الارستقراطية الذين اقطعها لهم السلاطين والملوك والامراء بحكم قنصهم بمهمة الدفاع عنها ضد عدو مهاجم او خصم دفعته مظامعه الى اغتطابها وعلو هذه الصورة نشأت مع الزمن فقة الاقطاعيين الذين كال لهم الحق في حيا الاراضي بما عليها من قرى وديساكر ومزارع وكان من واجبهم الدفاع عنها وحماية العاملين عليها في الفلاحة والنذر والصناعة وحيو المحاصيل وهم مجموع المزارعين والفلاحين .

غير ان هذا الشكل من الاقطاع وان لم يات الا فترج الى البلاد به ، فانهم قد افتروه دون ان يزيدوا عليه مما في اقطاعهم من نصف المنبوء بالتابع اذ ان كل ما يفرضه الواجب على اولئك " الاقطاع " الكد في سبل حتى الحاصلات المختلفة وانقسامها مع " السبد " حسب الاتفاق .

وليس هنا من واجبات اخرى تربط به اللهم الا واجبات " الولا " والاختيار ونموئنه بما يحتاج اليه من ارزاء يقدمها له رجاله من الخيالة والرحالة ممن يقومون على حماية الاقطاع وارضه .

وكانت الاقطاعات الكبرى تنقسم الى رساتين اصغر تتألف منها القرى والديساكر والمزارع . وكان ليهولاء الفلاحين " الاقطاع " في كل قبايلة مرجع اداري هو الرئيس او المختار على لغة النور وكان هذا عادة من ابناء الطائفة ذات الاكثرية في القرية او الديسكرة او المزرعة .

تلك كلمة موجزة عن طبقة الفلاحين وعلاقتهم بالارض تلك العلاقة

التي تجعلهم مرتبطين بها ارتباط جاة وموت . ينتقلون معها بانتقالها من يد الى اخرى دون ان يكون لها سمة العبودية فبسامون من العذاب .

والان فمأذا كانت حالة الزراعة في ذلك العهد .

بالهر انه بالرغم مما كان من مواعيد حربية وما نتج عنها من تخريبات قد

بقيت الزراعة حية نشيطة لم يصبها من التعطيل الا القليل بدليل ما جاء من تلكم

الاراضي في وصف الرحالة الاندلسي لها ولما عليها من مزارعات ومحاصيل حين مروره

فسيها في اواخر القرن الثاني عشر وهو على طريقه الى بلاده عائدا من الخجاز

حين ابحر فريضة الحج فقد جاء عنها (٢٦٨) قوله شان مقاطعة الكرا = " شاهدنا

في هذا الوقت خروج صلاح الدين لمنازلة حصن الكرا وهو سرارة فلسطين

وله منظار عظيم الاتساع مناصا العمارة يذكر انه انتهى الى اربع مائة فرسعة " .

وما بلغت النار الى القوم من افترج ومسلمين كانت قد سادت بينهم روح من التساهل

وانقسام ما جعلهم يعيشون " واهل الحرب يشتغلون بحربهم والناس في عافية

ولا تحترق (الحرب) الرعايا ولا التحار " فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلما

او حربا " .

وقد جاء أيضا ص ٢٨٢-٢٨٣ لدى كلامه عن بانبار * وكانت بيد
الافرنج واسترحبها نور الدين قوله * ولها (بانبار) بحر واسع في بطحا متصلة
وعالها بين الافرنج ومن المسلمين هم يشتطون الغلة على امشوا ومواشيهم
مختلطة ولا حذر بحري بينهم فيها واحتزنا في طريقنا بواب ملند البحر واكثر
الزند بعد العمق كانه الخندق السحب الهوى تلتقي حافته وتعلد السماء
اعلاه . لو ولجته العساكر لغابت فيه * .

وكذلك كان اولئك الفلاحون من المسلمين على حالة من " الترفه " مع
الافرنج ما يدل على مبلغ ما توصل اليه القوم مع الزمن من " اعتدال " في السيادة *
وحسن نصرة الامور ونفهم صحيح للغاية الحثيثة من الحياة . هناك دللنا على
ما نذهب اليه ما بورده رحالتنا في ص ٢٨٤ حيث يقول = * ورحلنا عن تبنيين
وطريقنا كله على شيا متصلة وعمار متداخلة سكانها كلهم مسلمون وهم مع الافرنج
على حالة ترفه وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عن اوان ضمها وحزنة
على ١٢ راس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ولهم على نهر الشجر
ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا ومساكنهم بايديهم وجميع احوالهم متروكة لهم * .
ولم تكن الحالة في الساحل وسهولة لتقل عما كانت عليه في الداخل
وان هو السهوا او على الجبال اذ اتنا نسمة ابن حيدر يقول = * منزلنا ببيعة من
خباء عكة على مقدار فرس ورئيسها (الحنار) النازر فيها من المسلمين تقدم من
حبة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين فاضاف حبيها الفائلة خبابة
حفلة واحضرهم صبرا وكبرا في غرفة متسعة بمنزله وانالهم الوانا من الطعام قدمها
لهم فعمهم بتكرمه وكنا فيمن حضر هذه الدعوة * ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

وبعد حديث طويل بسوقه الرحالة بصد عكة وصور يقول * وهاتان
المدنتان عكة وصور لا سائير حولهما وانما هما في سدا مدار افصح متضا سيف
البحر والفواكه تحلب اليهما من بسائينهما التي بالقرب منها ولهما عمالة متسعة
فالحمال الثو تغرب منها معمورة بالشاء ومنها تحن النمرات اليهما * ص ٢٩٢

هذا ما جاء عن الزراعة وما اتاد منها الافرنج وافادته من رعايتهم
لها ولاهلها في * رفق الاردن وفلساين ولبنان الجنوبي غير انها لم تكن انا شانا
من ذلك فيما تفتو من الدمار الدامية . وهذا ما يصر به رح الناحية يقول هما

بختنا بنا بين حلب ودمشق = "وقسمين هذه على البلدة الشهيرة في الزمان
لكنها حريت معادن كان لم تكن بالامس ولكن قراها عامرة منتظمة لانها
على محرت عظيم مد البصر عرضا وطولا ثم اسحرنا وربنا عن بعين طريفنا
كور بلاد المعرة ، وهو سواد كلها بشحر الزمن والنين والفسنة وانواع الفواكه .
وتنمنا الثقافة بسانعها وانتظام قراها مسرة بومين ، وهو من اخصب بلاد الله
واكثرها ارزاقا . ومن وراها حبل لبنان (كذا) وهو حد بين المسلمين والفرنج
لان وراها انطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم * . ص ٢٣٣-٢٣٤ . ودونك ما
ما يقوله عن حماه * وخارج هذه البلدة بسيط فسيح عرب قد انتظم اكثره شجرا
الاعناب وفيه المزارع والمزارق وفي منازلهم اشجار اللوز والفسل والسابك متصلة
على شاطئ النهر * ص ٢٣٦ .

تلك كلمة عامة عن الزراعة فلنخصص الحاصل منها بكلمة ان كانت
تد المصامير سببا لثروة ضخمة نتج عنها ركبة مناعية نحارية عظيمة . فكم ذل
احراجها وغاباتها فالرغم من الملهل الاحود الذي تظهر به حبال هذه الديار
الواسعة في امامنا هذه فقد كانت في ذل العهد تغطيها الغابات الكثيفة وتزدهن
الاحراج المختلفة . وهذا ما يحدثنا به كتيبة ذلك العصر من مؤرخين ورحالين
وسواهم ان انهم يشيرون الى ان مساحة الغابة كانت كبيرة الغابات بل عليها اكثر
مناعة البلاد احراجا . فالحد الاسود وحبال النصرية كانت تكتسوها غاما الارز
والكاه بلوط والفسنة العظم وكذلك كان يكثر السنوبر في الجنوب الذري من مره
ولما غلبم الصورة قد عناها بقوله ص ٢٨٩ من مؤلفه ١٧ (١) اما حبال عكار
فكانت تغطيها فضلا عن السنوبر غابات المرمر وغيره من انواع السندسان المختلفة .
وكذلك يحدثنا جاك دوفنري ان حشب المرمر في لبنان كان
يعتبر من الخشب الذي لا ينطرق اليه الفساد (٢)

وكانت مدينة بيروت تنعم ايام غلبم الموري بغاباتها الصنوبرية
وقد ذكرها الادريسو اكبر جغرافى ذلك العصر وحدد سعتها بانحو عشر ميلا
وهو بذلك غابات الجبال المجاورة لها .

(١) المستعمرات الافرنجية لراى ص ٢٣٦ - (٢) نفسه ص (٣) بيروت تاريخها
واناها ص ٢٣

وسأشهر ان مقاطعة الكوف قد لازمها سوء الطالع ان كانت اشجارها تنمو

لضربات القوس وكذلك كان حقل الساحل الممتد بين سور وهكة (٢٣٩ راي)

اما احراج جبل الشيخ فكانت تمتد من سفحه حتى بلدة بانباس

وكانت من الانشاء والعظمة بحيث عرفها مؤرخوا الافرنج باسم . (

وكان في بلاد الخليل غابتان احدهما في غزها وعزابة والثانية جنوب الناصرة تمتد

من حيا الطور حتى نفا عمرو وقد ورد ذكرها في المراجع الانسية تحت لفظ

كما ذكر راي ص ٢٠٩ وهو كائنات جنوب قيسارية كان اكثرها من الشاء بلوط .

اما في جوار القدس فكان بعض الغابات تمتد بفرب سماس (قبيصة) وبين كاه .

هذا بشأن الغابات والاحراج وانما ما انتقلنا الى دراسة بقية

الحصولات ننسب ما جاء في قوانين الافرنج ان " تلك المحاصيل كانت تنقسم على

الطريقة التالية = حصة تتراو بين الربيع والثلث تقدم الى " السيد " والباقي

يكون من نصيب الملتزمين . هذا مع العلم ان ابن حبير يقول انهم كانوا يتناطرونها

على السواء اي بالمناصفة . اما قائمة الحبوب لذلك العهد فتتألف تكون نفسها

لابائنا هذه وهو القمح والشعير والذرة والارز والدخن والعدس والفول والسمسم

وقد عثر على هذه الاسماء وارادة في قائمة " العذير " الذي كانت تنفعاها كبينة

القائمة لذلك العهد .

ومن المحصولات الزراعية ايضا = القطن والكتان وعروق الصباغين

والزعفران والنيلة .

اما بساتين الفاكهة والخضار والبقول فكانت منتجاها عادة = الرمان

والليمون على انواعه وخاصة منها " الليمون الحلو " الذي كان معروف وفنشد "ليمون

انباتة " والبرتقال والانج واللو والشمس على انواعه والدراق وغيرها كثير .

وكانوا يعنون ايضا بزراعة شجيرات عدة من ذوات الازهار العطرية

كالورد والاكاسية (الطلح) والكسكس والقرنفل والزنبق والريحان والريحس والمنفسي

وهرائس النبل والحنفة .

وكانت مزارع الزيتون كثيرة وتقم عادة عند اقدام التلال حيث

تتراكم التربة الخصبة الصالحة لانسائها .

ومن /التهذيب/ المزروعات الهامة النخيل الذي كان سكر في جوار حمص وتدمر
كما في النورميسار ولعل أشهر منتحاته كانت في اربحا . وما كانت تكثر زراعته
في ذلك الوادي الموز وقد سماه جاك دوفري "موز الحنة" .

ومن الخسار الشهيرة لذلك العهد السابج "الاحمر" وقد شهد ابن البيطار
العالم النباتي الشهير ان هذا النوع المسمى منه في صدد كان من احدث الانواع
في سورية وما عدا ذلك فقد كان الخسار والقرع والباميا والهلين .

ولقد ذكر الادبسي "البيلة" وحدة عنابة القوم بها في وادي الاردن . كما
كانت مزارع قصب السكر تكثرها هنا ايضا وقد بلغ من عنابة الافرنج به انهم غفوه
من الترسية فتصحبها لزراعته فانتفعت علو طول الساحل من طرابلس الى صـ (٢)
هذا فضلا عما كان من مزارع له بالقر من البحر الميت وكان المحصول منه يعرف
هند الافرنج "بسكر الكرك والديوك" .

ولم تكن عنابة القوم بزراعة التوت لنقل عنها بزراعة ما سنب ذكره كما اشتهرت
بمزارع القطن في جوار اللاذقية وطرابلس وغيرها .

ولا يجب ان ننسى الكرمه اذ كانت العناية بها تفوق حد الوصف وذلك
لشهرها على انواعه ولعصيرها ايضا . (٣)

ولورحنا الان نقابل بين ما كانت عليه الزراعة في الدار الشاميه وما
كان عليه في الدار الزربية الاوربيه في ذلك العهد لرأينا الفرة عاليا والبن
مناسبا . وهذه الحقيقة نفسها نجعلنا نستنتج ان ما افاده القوم في هذا الحقل
بحسب ان يكون متناسلا مع الزمن الذي قسوه في البلاد يتكون باعلها وطرا زراعتهم
واسبابها وتنقلا مع درجة تاخرهم وتقدم العرب فيها .

وما انك عليه مؤرخو الصليبيين كذا ليم المصري وياك دوفري انهم
ما كانوا متعرفون الى السكر وحلاوته في اول انهم الحديث حتى يادروا الى نقل
زراعتة نصبه الى بلادهم .

وكذلك فقد نقلوا الليمون والبابونج والشمش والخنوخ والاحاء الكثر
وسعد "الفضا" في نقل اشجار الخوخ لاوروبا (اورنة) الى الكوبدنتو وغير الشمش
لعدة طويلة يعرف في اوروبا باسم نمر دمشق .

ومن حملة ما نقل من الحاصلات الزراعية الى اوروىة * عن طريق سورية
وهو من ايام هندي او سنو * . الثمر الهندي . والافادى والطوب والمهارات
واخصها الثروة ، وكذلك من القطن - الذرة الشامية .

ونستطيع ان نقرر انهم نقلوا ايضا زراعة السمسم وللخروب والدخن
والارز والسمون والساج والنوم وذلك بدليل ان اسك بعد هذه المزروعات في بعض
اللغات الاحنية بقرب بلغة من الاصل العربي . اعتبر ذلك في (١)

السمسم وفي الخروب وفي اللبمون وفي اوبصل لمقلان .

وما له علاقة بالزراعة * النواعير * والدواب الهوائية التي لم
تظهر في نورماديا الا في سنة ١١٨٠ وكذلك الدواب المائية فانها
تنتج باصلها العربي * الناعورة * ولئن وجدت هذه في اوروىة قبل الحروب الصليبية
فما لا شك فيه ان القم عد عادوا من الشرق بنموذج منها وتداول عليه تحسينات
حمة (٢) . وفي هذا كتابه علنا نتقنا الان الى درس الصناعة وما كان لهم منها .

(٢) - الصناعة _____ ق .

ان بلادنا كالدار الزاوية تكون الزراعة فيها علو السحابة التي ياهدناها
في المتاحف الصالحة وان مما نرى كالدايب مع ما عرفت عنهم من حموة وذوة وحب
للكسب انوا انما كان هذه ودموا كعمومها لا بد وان تكون مناعتها ناسبة متقدمة
وذلك لوفرة المواد الخام فيها وكثرة مصادرها بالاضافة الى ما رايانا من عدد محاصيلها
الزراعية . وبما هو ان الصناعة مختلفة فروعها قد نشأت من احتشام العرب واليهود من
بين شعوبها ايام الحروب الصليبية .

اما فروعها الكثيرة فنعد منها - صناعة الخزف والزجاج والحلواني والتنجيد
علو انواعه * ومراحنا في دراستها وتنبع حالات تطورها - لذلك العهد - مؤلفات
الصلبيين والشرقيين والنماذج التي خلفتها لنا وحفاتها المتاحف العامة والمجموعات الخاصة ٣
وبعد ثنا الادريسي عن حركة صناعية قوية في كل من المدن الانية ذكرها .
بافا ، سروت ، صور ، دمشق . وقد كانت صناعة الفخار فيها متقدمة بحمل مصنوعاتا وبيع
منتجاتها لما عرفت به من دقة في الصنعة وبها في المظهر لا سيما المطالعة منها بالبنا .

(١) تراث الاسلام . باركر ص ١١٧ - (٢) تاريخ العرب . حتى ص ٦٦٧-٦٦٨ .

(٣) راي ص ٢١١

وكان الخزف الذي من السلجق الهامة في تحارة المستعمرات الافرنجية
ويظهر هذه الحفنة حلبة من مراحة "مجموعة فوانس القدس" (١) ويتضح من هذا
من بنود المعاهدة التي عقدت بين "امارة سروت" وجمهورية جنوا سنة ١٢٢٣ ان
دالها فيها ما يلي = "ان المصنوعات الفخارية المختلفة كانت من السلع البيضاء من
الرسوم الحمرية".

اما مدافعة الزجاج فكانت من اختصار اليهود في صوروبانا كما ان
صناعة الخزف كانت مما امتازت بها صور ودمشق آنذا وكانت لها دراهم الاخرة منيها
تحماء الى اوروية باسم "فخار دمشق" . وكثيرا ما كانت هذه من النوع "القيطاني" .
(وهو الذي اراد المصنف بالسناء البديعة الحسن الزاهية الالوان) وتناهد منها حاتم
السم فيما تنو من قطع احتفظت بها في المناحة . والبيت الكبير في دمشق وحلب
وغيرهما من المدن الثمانية الكبرى . ويذكر ان منها قطعة في متحف سبفر
ولا يجب اذا علمنا ان هذه الصناعة الحيلة صناعة الخزف قد بلغت
اوج تقدمها في دمشق واما في القرن الثالث عشر والى مختلفه فمكثتها في دمشق
حتى غزوة التتر للبلاد عندما قضى عليها تمور ونقله نعاها الى عامته سرفند
في مطلع القرن الخامس عشر .

وقد جاء في "معجم الاثنا في القرون الوسطى"
ما يلي = "وان للقيطانيات الدائمة اثرها السن في تقدم صناعة الخزف الفرنسية في
اواخر القرن الثاني عشر وقد كانت هذه القديانات نفسها نماذج احتذيت ايضا في
جنوبي فرنسا انا" (٢) . وما يذكر علي سبل المثال ، صفاء ماله بالسنا الصفراء
والاحمر ، مزدانة برسم عربية انزل تلك الصفاء في واحدة سانية بلدية سان انطوان
المديدة في الفر الثاني عشر ويلاحظ انها نسخة عن فخار قد استورد عبر البحار
واية ذلك ما فيها من مظاهر الصنعة العربية وما يزخر فيها من الحياطة الكوفة مع
احتفاظها بطابع القدياني القديم المصنوع اما في الشام او بلاد العجم
وما خلفه لنا الادريسي الجغرافو الشهير بشأن صناعة نسج الحرير .
وكذلك فان صور وطرابلس وانطاكية وطرطوس قد حازت حصصها شيرة واسعة في الشر

والغرب بمصنوعاتها الحريرية . وكانت مصنوعات مرور على قول الادريسي من افخر الاغناس
فتمتاز بحمالها على غيرها من منتجات الشام وكان مرفوها بها جدا في الخارج . كما
كانت طرابلس تفاخر ايضا بمنسجاتها المبرقشة وقد قُدر
لدى زيارته للمدينة سنة ١٢٨٣ ان عدد نساجي الحرير ووبر الجمل لم يكن يقل عن
اربعة الاف عاملا (١) .

وبالرغم من تعدد الحكام على مدينة اناكبة خلال العصور فقد
اشتهرت - على قول غلوم الصوري - في عهدها الاسلامي الصناعات الميكانيكية
التي كانت دائما من اختصاص الناصبين من سكانها . دونك ما يلاحظه الادريسي
في شأن صناعة الحرير فيها " يصفون في هذه المدينة اقمشة جميلة بالوانها المنسجمة
ومن ابدء منسوجاتها الحريرية المبرقشة والدبياح " (٢) .

ومن المنسوجات الفاخرة " المخملية " وهي اقمشة كانت
تصنع في مدن الشام كلها وخاصة في طرابلس ولطرون وكانت على اربعة انواع -
(١) منها ما هو مصنوع من وبر الحمير (٢) او وبر الماعز - من صوف الغنم (٣) من الحرير
والظاهر ان هذه المنسوجات كان يرغب بها الاوروسيون كثيرا بدليل ان حوائيل لدى
زيارته لمدينة طرابلس حاحا كلفه الملك لوسر التاسع ان يتابع له كمية كبيرة من
المخام " ليقدّمها لبعيد المؤمنين الدينية " (٣) .

ومن المنسوجات التي كان يطلبها البلديون والافرنج على اسوا
السطر والساحد التي دخلت صناعتها الى الشام ومن هنا انتقلت الى فرنسا
في القرن الثاني عشر (٣) .

وهناك عدا ما ذكرنا من الصناعات صناعة الدروبك الروحية
التي كانت احدى صناعاتها من الذرة والشعير والي يصنعها الناصبون والافرنج
ويقدرونها في كتاب الروغبين في تاريخ سنة ١١٢٩ ذكر على قول راي غير نفا لم
نعثر على شيء منه .

ومن الصناعات الهامة صناعة السكر ولقد شاهد الرحالة بورشاردت
سنة ١٨٠٩ في الضر بقاءا معاصر السكر التي يرجع عهدها الى القرون الوسطى

(١) ص ٢١٥ راي - (٢) نفسه ص ٢١٦ - (٣) نفسه ص ٢٢٠-٢٢١ .

وهي تسمى حتى ايام راي بطواحين السكر . ولقد شاهد راي كما صرح ص ٢٤٩
قرب اريحا نقالا معصرتين للسكر ولكن الافرنج احتفلوا بالاسم العربي لها وهو معصرة
اما الصابون فقد انتشت المصابين العديدة لصنعه في انطاكية وطرابلس
وعكة ونابك وغيرها وكان استعماله قد عم في القرن الثالث عشر واسحت صناعته
على شمس كسر من الاهمية في المستعمرات الافرنجية حتى انهم اتخذوه له المناحر
الخاصة ايضا (١) .

ومن الصناعات التي احتكرها ايضا اليهود دون سواهم في كل من اللاذقية
وارامك والخليل والقدس صناعة الاصباغ وصناعة الدباغة وتحنير الفراء . وكان صناعة
التعدين ايضا نادرة جدا لم يزل ابن بادية يذكر ان بيروت كان "تحل منها الى ديار
مصر" . والدديد (٢) وكان هذا يستخرج من الحيا المحاور لها . كما ان الادريس
بمقدونيا كثيرا جودة الحديد الليناني وصلاحه لصناعة الاسلحة الشهيرة في مدينة دمشق
ولعله من الخبير تخصص صناعة الزجاج بكلمة ان اشتهرت بها مدن عديدة
منها صور وانطاكية والخليل والاسلم ودمشق وعكة ويذكر غليم الصوري ان هذه الصناعة قد
ارتقت الى القامة القصوى في القرون الوسطى وان من معاملها خرجت تلك الصابيح البديعة
والاكواب الجميلة والزجاجات الذهبية والفضة بالسنا . وتحفظ متاحف اوروبية بمناذج
منها (٣) . وان نتمسق فلن نتمسق تلك الآنية المدونة البديعة الحسن بانواعها
واشكالها ويذكرنا بالذكر منها النحاسية . فكم ازادات بها قصر الملوك وسوت الامراء من
مسلبين وافرنج . ولم يكن ما يصنع منها للافرنج ليحما رسوما بشرية فحسب بل كان
منفذ عليها ايضا شاهد دينية ويحفر على جوانبها حكم واسماء باحرف ذهبية مع
احتفاظها بطابعها النصراني .

وهناك صناعة الحلوى التي كانت لها سوق رائجة وخاصة بها في القدس
اذ تشير "قوانين الملكة" الى ان نعمة الذهب والفضة كانت يحددها بامر ملكي .
ويقرر السيد فوجيه البجاعة النقة " ان الشرق قسما
اهتم دائما بالحفر في الحجارة وهو يراحم حفر حيوانات لها علاقة بشعار الهلام النبلاء
من الافرنج على حجارة فاسية الى بعض المناء الثامنين الذين حضروها حصصا
لبعض النبلاء في البلاد المقدسة " (٣)

(١) ص ٢٢٢ راي رحلته ص ٣٥ - (٢) ص ٢٢٤ راي - (٣) ص راي

وكنتم ما طلب نبلا^١ الافرنج الى جواهرين من العرب لصنفوا لهم ما بحثناهم اليه من حلى . هذا فضلا عن آنية كسبة عديدة كانت غنية بما رصعت به من ذهب وفضة او دق فيها من حجارة كريمة او انزل فيها من اللالى^٢ الغالية والعاج النمين ، كانت في الحثيفة زينة الكنائس ومهحتها وقد توسع راي بهذا الموضوع من ٢٣٠ - ٢٣٤ في مؤلفه القيم^٣ المستعمرات الافرنجية .
والان ان الوقت قد حان لاننا ننقل الى درس التجارة وما نشأ عنها من علاقات وارتباطات كان لها اثرها العظيم في حياة الغرب خاصة .

الحالمة الاقتصادية

٣ - التجارة

لم يكن في استطاعة الطبقة الارستقراطية من الملوك والامراء مع وفرة جنودهم السرية بمنفسها من فرسان ومثاقم معها اوتوا من شحاعة في القتال ودراية فصول الحرب ان يفوزوا ما رموا اليه من فخر لولا المساعدة القيمة التي انهم من جانب الطبقة البرجوازية - التجار - التي كانت تمتاز ببرحها الجمهورية^٤ الابدالية الثلاث^٥ - حنوا ، وبيزا والسندقية (١) وغيرها من مدن جنوبي فرنسا كمرسيانية مثلا وغيرها اذ كانت قد دفعتهم شهوة الكسب (٢) والتوسيع التجاري الى المساعدة في ذلك المشروع الدنيى في ظاهرة والسياسى الحربي في طائفة فحاروا مزيدون عليه العامل الاقتصادى . على انه يجب ان نذكر ان التجارة كانت فيه اسر من الزراعة والصناعة اللتين باعتمادنا نمنا فيما بعد بحكم الظروف اما التجارة فكانت الدافع الحقيقى الاصيل عند هؤلاء الساهمين منذ البدء في الاستيلاء على المرافى والمدن وذلك بمشاركتهم فعلا في القتال وتأمين الحبوب والاطعمة والاسلحة جميعها والات الحصار منها خاصة (٣) .

ثم ما كاد ينتهى الدور الذى لعبوه في فتح انطاكية وطرالمس والقدس (٤) وبقيت المدن والمرافى حتى استقروا في البلاد وساهموا في تنظيمها وادارتها بما نالوه من امتيازات خولتهم حة السكرو واتخاذ المسنوعات والاعفاء من الضرائب (٥) نالوه من امتيازات خولتهم حة السكرو واتخاذ المسنوعات والاعفاء من الضرائب (٦)

(١) انظر ص ١٤٥ هاید - (٢) نفسه ص ١٣١ - (٣) ص ١٣٥ - (٤) ص ١٨٩ راي و ١٤٧ هاید - (٥) ص ١٥٨ هاید - (٦) ص ١٣٦ و ١٤٤ هاید

وراحوا عندها بنفوسهم بالنوسط بين الشرق والغرب متخذين تلك المرافق الشامية
مركزاً لملاقاتهم فيسبحون منها ما يتناعون فيها من غلال الدرقين الادنى والاقصى
الى موانئ الغرب في اسطالبة وحنوير فرنسة (٧) ومن هنالك كانت توزع تلك
السلام والضائف والذلال الى داخل اوربية . وشرقاً وغرباً وشمالاً . فتنتج عن ذلك كله
ان ازديت حركة التجارة في الدرة (٢) عامة وفي الدمار الشامية خاصة زيادة
فانت كال ما عرف عنها في العهود السابقة (٣) ولا عجب فقد تفتحت امامها اعمار
واقطار لم يكن للشرق القديم عهد بها .

اما في الغرب فكانت حركة واسعة النطاق (٤) اذ ابطقت في اقاليمه
النيام واسالت عندهم اللغات بلاستيلاً على ثروات الشرق الضخمة كما فتحت اعين
مدونه على كماليات في المأكول والمشرب والملبس وبقي مرافق الحياة من حربية
وفكرية واجتماعية لم يكونوا يعرفونها منها الى القليل (٥).

ويحسن بنا ان نشير الى الطرق التي كانت هذه الحركة تتخذها
في الدرة والغرب حتى تنفذ على الدور الهام التي كانت تلعبه بغير المدن القديمة
والجديدة في التقرب بين اسبى واوربية وربط شعوبها بروابط ثقافية واجتماعية زادت
في دفع الغرب الى الامام في سبيل التقدم والرفق (٦)

نذكر من المدن الشامية الشامية ، اذ كانت على اتصال دائم بمدينة
حلب وهذه متمثلة بالرقعة وغيرها من مدن الفرات التي كانت مرسطة بالمدن القائمة
على دجلة كالوصا وبغداد فالبيصرة على شط العرب . ومن هذه كانت تخرج المركب
العرب ببحار الشرق الاقصى الى /ملايكة مدنه وممالك (٧) .

هذا وكان الاتصال مستمرا بين حلب ودمشق عن طريق حماه وحمص
فطريق الحج الشامي المتصل عن طريق مدن الاردن وفلسطين بالبحاز او مصر .
هذان طريقان للقوافل البرية ، اما المراكب والاساطيل فكانت عكة وصور وبيروت بين
اهم المراسي لها في تلك الحركة التجارية الكبرى بحرا . وقد نزل لنا الرحالة
الاندلسي ابن حزم مارة الى ما كانت عليه تلك التجارة فقال ص ٢٠٠ = " وفي

(١) ص ٣١٢ هابيد - (٢) انظر ص ١٩١-١٩٥ راي - (٣) انظر ص ١٨٩ راي -

(٤) نفسه ص ١٩٣ - (٥) ايضاً ص ١٩٠ (٦) نفسه ص ١٩٢ - (٧) ص ١٩١ ٢٠٢

الله لهم (الاسرى المغاربة) بدمثة رحلين من مسابر التحار وكرائهم وانضائهم
المنه مسين في الثراء احدهما يعرف نصربين قوام والثاني بايى الدربانوت
ونحارنهما كلها بهذا الساحل الافرنجى ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الامناء من
المنازحين فالقوافل صادرة واردة بينكهما ومانهما في الذنى كبير وقدرهما عند
امراء المسلمين والافرنجيين خطير . . . وهو ايضا يشير الى حركة القوافل المسمرة
بين عكة ودمشق فيقول ص ٢٨٠-٢٨٢ = " ان قوافل المسلمين تخرج الى بلاده
الافرنج وسيمهم يدخل الى بلاد المسلمين وخرجنا (ابن حسرفى القافلة)
الى بلاد الافرنج وسيهم يدخل بلاد المسلمين . . . والاصباء والعقابر والتوابل
والخزف الصيني والساحيد والابسطه والفراء . . . ومن المرافى الثامية كانت تنقل
السيارات والتابوت والاصياء والعقابر والتوابل والخزف والساحيد والابسطه والفراء
وغرها من مصالح الدرة والدار الثامية ومنحانها الصنعية الى الغرب (١) حيث
توزع عن طريق الهندية فمر برنر الى كولونيا في الداخ حيث المرافى الشهيرة
على الرس والموانى على بحر الشمال (٢) وكانت "تزدحم المدن والشركات التجارية
في القرون الوسطى على طول هذا الطريق مع لوماردبا على امتداد نهر الرس

هذا ولم تكن تلك الحركة لتستمر بدون امتداد المنافسة بين القائمين
بها من جنوسيين وبيزبين وبنديس وفرنسيين من الجنوب (٣) ان كان التابق بينهم
على امد في اكتساب رضى حكومات الافرنج في مستعمراتهم وعقد المعاهدات
معهم طامحا لاحتمار نفا الدول والسلخ والمنازع بركاتهم هم دون سواهم . وهكذا
ظلت التجارة تسير حالة الحكومات الافرنجية قوة وضعفا حتى اذا ما انقضى العهد
الاول وختم بكارثة حطين سنة ١١٨٧ تأثرت الحالة التجارية واخذت تعمل فيها
عوامل الضعف كما اثرت فيها اسباب القوة من قبل .

اجل كانت تجارة الافرنج في عهدها الاول سنة ١٠٩٧-١١٨٧ تتقدم
بالمزاد حتى غدا اربابها ذوي نفوذ سياسي قوي دفعهم الى التدخل في شئون

(١) ص ١٣٧ هاید - (٢) تراث الاسلام ص ١١٨ ص ١٩١ رأى - (٣) ص ١٤٢ هاید
و ١٤٧ - (٤) ص هاید .

الحكومات أولا ثم في المنازعات نائبا مما أدى بالتجارة الى البوار بسبب كثرة الحروب فكان لا بد وان تنظف الحركة التجارية وتتركز في عكس التوزيع بها عدد كبير من التجار الافرنج وتجدد وفود الحالبات الاوروبية فكان بينها - الفرنسي والانكليزي والابيطالي والاسباني اخيرا - وراحت جميعها تتخذ السبيل الى التنافس مما اعاد الى التجارة بعض نشاطها السابق وانساعها ايضا فظهرت عندئذ حور ثم بيروت وطرابلس على المسرح من جديد.

ومما يلاحظ في العهد هذا تدمير السلطات الافرنجية من قناصل الحالات - ولا التجارة - وامتيازاتهم فادركت تلك منها - بل في هذا وكذا راحت تزيد الرسوم الحركية على البضائع المصدرة من بلاد "الكفرة" المسلمين ثم ما لبثت المنازعات ان ذورتها من جديد بين الدركات التجارية فكان في ذلك ثالث الاصابات وكان وباله على جميع الافرنج دون او يوفى التجار انفسهم غير ان بعض العلاقات الاقتصادية زالت تربط بين الغرب وبعض المدن الشامية كدمشق وحلب كما ان بيروت ما عنت ان استعادت مكانتها واتصالها بالغرب والشرق حتى غدت احدى المرافئ التي كانت اساطيل الافرنج تقصدها .

غير ان هذه الحالة لم تدم طويلا اذ ما كاد القرن الثالث عشر يشارف نهاية حتى راسا المسلمين بقيادة بعض السلاطين المماليك انكسرت حروب وقلاوس والامراء حلفاء منهم الذين والنزاع مع الافرنج من تدار وضلما وعلنا فاحمزا عليهم . تلك كلمة محملة عن التجارة واربابها في الديار الشامية ابان عهد المسلمين فيها عبر الار ما اذا نال بعضهم من علاقتهم واربابا من العرب والافرنج في تلك الاثناء .

فمن ملحقات التجارة النظام الحركي والرسوم التي تتقاضاها الحكومات المختلفة عند دخول التوافد الدخلة والخراج منها بالاسواق المختلفة والنفقات واعصبيات وقد نزلنا ان حصر معرفة لما كان يحدث في مثل هذه الظروف المتقلبة بالسر ومعاملاته لا ياتي من ابرادها قال ص ٢٨٥ "وصحفا يوم الثلاثاء العاشر من الشهر المذكور وهو الثامن عشر لستمبر مدته عتمة . . . ودخلنا الى الديوان (دائرة محكمة) وهو خارج مدخل القافلة وامام بابها مصاب معروفة فيها كتاب الديوان (الموافيق) من النصارى محارب الانبياء المذهبة اهلهم وهم يكتسبون بالعربية ويتكلمون بها ورؤسهم

صاحب الديوان والناس له بحر بالصاحب لنب وقع عليه لمكانة من الخطبة وهم يعرفون به كل محتشم متعبد عندهم من غير الجند ، وكل ما يجي عندهم راجع الي النعمان . وثمان هذا الديوان بمال عظيم فانتزالت التحاررجالهم به ونزلوا في اعلاه وطالب رجال " من لا سلعة له " لثلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه واطلق سلاله فنزالت حيث شاء ، وكذا ذلك برون وتودة دون تعنيف ولا حمل " . واذا نالنا ما جاء في وصف الرحالة الاندلسي رابنا صورة مصدرة مما يحصل في كل مركز للجبر عند الحدود . اما الرسوم المفروضة في الموانئ فكانت تسمى " رسم السلسلة " وتدل ضخامتها على مبلغ تقدم التجارة ووفرة ارباحها .

اما المراكز الحربية فسمى منها - الدورم عند الحدود المصرية والبحر الحديدي بين انطاليا وحلب وكذلك عند حصن المرقب بمشاهد ران في القرن الماضي بقايا برج السبع (١) .

اما مقدار ما وصلت اليه ثروات القوم (٢) فبحسن بنا لتقديرها الاستعانة الى احد مؤرخيهم حيث يقول - " ان اكبر ثروة العملة للامارات الافرنجية انما كانت في موروثية وارامله وانما كانت ثروتا مكونة النفود كادبنار الامير و ناليدا للدينار الفاسي وما لم يمت هذا الدينار ان حلتا الشعار النمراني بالاحرف العريسة وكان المندقيون هم السابقين الي ذلك في موروثية فقد موروث دينارهم " بالدينار السور " وقد كان النورمان والفرانجون يتسلطون به تسليما لعنفاتهم التجارية وكان منتشر النفودا في جميع ادواء الدرة . ولعل هذا كان اول عهد الارويس بالنفود الذهبية .

هذا وكان الايطاليون مع مثلتي الداوية والسبتارية اصحاب اكبر المصارف المالية في عكة وفسارية وطرابلس . وفي القرن الثاني عشر استعمل البندكتيون " الاوراء النقدية " في المدن الساحلية من الديار الدامية (٣) . وكانت المدن الافرنجية في هذه الديار تشتمل على ما يسمونه " الفندق " وهو نوع من " المورصة " كان يحتج التجار فيه للتدبير بشؤونهم التجارية والمالية .

(١) انظر ص ٢٥٩ راي المندقيين الافرنجية - (٢) ايضا ص ٢٦٣ - (٣) ايضا ص ٢٦٥

وفى ذل العهد اقم مثل تلك البضائع في المدن الغربية وقد شاهد را بقايا
احداها في مدينة مابنر وفي مدن اخرى على محرق الرين وفي غيرها من المدن
حيث تعرف باسم "المروسة" (١٩١٠ راي) .
وكذلك كانت المراكز الجبركية امكنة يجتمع فيها التجار احبانا لمثل
هذه الاعمال المار ذكرها .

وقد كان للتجار الافرنج كالسندقيين والبيزيين والجنوبيين
والمرسليين في المدن الثامنة عدا المساكن والمخازن "خانات" لانداء بنكهم فيها .
كما انه كان للتجار العرب القادمين من العمال المسلمة لمدة قصيرة في المدن الافرنجية
"خانات" يقيمون فيها وهذا ما يصر به ابن حنبل وهذه الخانات كانت اشبه بـ "بخان"
اسمها بالاساس في دمشق وبخان انطون في في بيروت او خان الفرنسيين في بغداد وبخان
الخلبا في القدس .

ويظهر ان "المراقبة" كانت من اختصاص الايطاليين واليهود
فكانوا يواصلون السموات التجارية والمصارف الكبرى في جنوا والبندقية وفلورنسة وبزا .
وكان اوراقها جميعها "مقبولة" في الاسواق التجارية الكبرى على السواحل الدائفة
واخيرا لم يبق تمويل تلك التجارة بعد طرد الصليبيين من آسيا
با عند اكثر جمهوريات ايطاليا مع امراء المسلمين معاهدات تجارية وكانت صلات
البندقية التجارية الوثيقة بالشرق سمعها منها حتى الطرد تقدم تلك التجارة مع الزمن
ولم يضر امرها الا بعد اكتشاف الطرق البحرية الجديدة وانتفاها زمامها الى ابد
اخرى (١) .

بهذا نكتفي في الناحية الاقتصادية - الزراعة والصناعة والتجاء
لنتقدم الان لدرس الحالة الفكرية .

الحالة الفكرية في الديار الشامية وما انفاد الافرنج منها ابــان

الحروب الصليبية

رابنا في صفحات سابقة ان قد شهدت الديار الشامية عتبة الحروب الصليبية حركة علمية مباركة كانت تتخلو في مدارج مدنها الكبرى كاستطابنة وطرابلس والقدس. ودمشق الا ان هجمات الافرنج في اواخر القرن الحادي عشر قد خمدت من قوتها وان لم نستطع ان نطوف حذوتها وكثيرا ان نذكر ما اقترحه القوم في طرابلس من ^{طما} ~~واكلم~~ مكتبتها الكبرى التي الشوان حتى يحز الالم في نفوسنا ونذكر ذلك الاثر السيء الذي تركه تلك الحروب في مستهلها على الحركة الفكرية عامة والعلمية منها خاصة غير ان الامور ما لبثت ان تغيرت بعد ان استقر القوم في ملكتهم وملحقاتها ولم لهم الاتصال بالشاميين في الساحل والداخل فاختلوا عندها بشذوقهم ما عند العرب من آيات العلم والفن والادب فتنطورت نظيرتهم وهذه ثورتهم وراحوا ينقلدون ما عند الاهال من مظاهر الاخصائية كما رابنا وانظمة ادارية وعناصر فكرية ١. وهذا ما بصره لنا كتاب العصر من افرنج وعرب قداما ومحدثين ١/ ومن ذلك ما يلو = " لقد انتشرت معارف الشرق في الغرب بصورة خاصة من طريق الحروب الصليبية تلك التي استمرت منذ القرن الحادي عشر حتى الرابع ٢. رتقيا محمم بين المتحاربين والتجار من الافرنج ضد اسمهم رئيسه (١) وذلك بوهانا آخر على ما قرناه ٣ = " نحن نجد بين فرجة فلسطين اول انطلاق دائم للعناصر الشرقية والذين في اغلب ميادين التقدم الثقافي (٢) لذلك بحب اعتبار تاريخ الحروب الصليبية " فلا في تاريخ الحضارة " في الشرق اكثر من اعتبارها حركة اريد منها توسع السلطان الشرق او نشر لديانته في الشرق (٣) وقد ظهر في المجتمع الافرنجي الشاب الجديد ثقافة كانت في اكثر عناصرها جديدة تفوق اية ثقافة اخرى في ذلك العهد وكانت تحمل بين طياتها بذور النهضة (٤) وكانت التجارة من العوامل التي جعلت بعضا الثقافة في الديار الشامية تنسرب الى اوروبا بحكم الواقع واتصال الافرنج بالمسلمين (٥) لا يوزن ذلك تكون الحروب الصليبية قد قامت مقام التعليم الحر لاروپة (٦)

(١) هول. سافاج - نوات العرب ص ١٩٩ - (٢) نوات الاسلام ص ١٠٢ - (٣) باركر في نوات الاسلام ص ٩٨ - (٤) لامونت نوات العرب ص ١٦١ - (٥) حتى تاريخ العرب ص ٢٦٢ - (٦) روميه مقدمة لتاريخ غرب اوروبا ص ٢٠٠ - (٧) رابر في المستعمرات الفرنسية ص ١٧١

فلم يستطع النبلاء من الافرنج اذن ان يفتقوا بنحوه من الانحراف بهذا
النار التي للحركة العلمية فراحوا باليد "نور يد" يحون من مآلها حمدا وحاجة
من الدرائم والراحة (١) ففئة منهم - فوفون عدة نسم منهم - سوحنا الابلني وحيرار
المونريال وطما. ثم ما لبثوا ان تقدموا من الحركة العلمية فراحوا ساهمون فيها
وقد اتسم عند العرب في سورية ومصر خلال القرن الثاني عشر وقد كان للديوان
بحكم الرابطة الدينية - اكبر الغضا في تعريف الافرنج بقلة الحركة الثقافية ولا عكس
فقد كانوا من قبل - ففئتها ومذبيها - يسر الاب لامر بعد السرمان الذين قصدوا
الى اوربية واستقروا في بلاطات - بهن الملو كما كان البعض الاخر منهم تنساون
بين العلماء من العرب والافرنج .

وكم ذلك فيدعي باركر تعصبا - "ان الحروب السليبية قد اسدت
للافرنج منافع اخرى بقضا افعالهم بالفسادانية مما اسدت لهم باطلهم بالسلمين
في الشرة (٢) بدون اي دليل بورده .

وما جاء في كتاب فيليب النافاري عن ابن رينو صاحب صيدا "انه
كان متعنا في مآثر زمانه " كما يذكر سليم الصوري "ان جيوغري رئيس "هكل السند"
كان من المتفلسين من علم الرم في الارض بل كان احد مشاهيرهم البار فيها (٣)
اما المدارير التي كانت شائعة اذ ذاك فلا بأس ان نعتبرها من نوع
المدارير التي عرفها رينان بالمدارير العربية - المسائية (٤) وليس غريبا ان نمدد بد
التدريس للفلسفة المسائية في جامعة باريس ثم بين سنتي ١٢٢٠ و ١٢٢٥ م كما جاء
لعوردان مؤلف كتاب "مترجم ارسطو" .

وجاء للمؤرخ العربي المعروف بالفريسي "ار العلماء والعرب من الداجين
في الارض الثالثة عشر كثيرا ما كانوا ستة ارون من قبل الافرنج في قاسا تنك في الدلب
والفلسفة والرياضيات (٥) .

وقد تسأل عن اللغة او اللغات التي كانت شائعة اذ ذاك - في ملكة القدم
وملحقاتها فالاب لامر يقول بهذا الصدد - "لقد كانت اللغات من اكثر بحيث

(١) راد في المستند راء الفرنجية ص ١٦٦-١٦٨ - (٢) نواب الاسلام ص ١١٠ (٣) راد ص
١٢٢ - (٤) نفسه ١٦٨ - (٥) ايضا ص ١٧٣ - (٦) ص ٢٦١ من "سورية تحف تاريخي ج ١

بحيث اشتملت على جميع لغات أوروبا الغربية والاقطار الجنوبية وبعدها منها (١) اللاتينية . وكان ذلك الكنيسة والدولة ايضا . (٢) الفرنسية . لغة البارونات العامة (٣) الابالغة . لغة التجار والتجار المحترمين في المرافئ . (٤) وكان الكثر من سادة الاقالات - فضلا عن المولدين - قد اتقوا اللغة العربية وذلك لانهم مع انهم اتقوا من الدين وللادارة والتجارة . ولعل هذا الاختلاط بين مختلف اللغات قد احدث تبادلا للكلمات بينها اذ اننا حتى اليوم نجد كثيرا من الكلمات العربية في اللغات الاحفوية في غرب أوروبا تشهد بقيام الحروب الصليبية فيها ما يتعلق بالتجارة والملاحة ومنها ما يختص بالفنون والصناعات والعلم (١)

ومن اقبلوا على دراسة اللغة العربية والاطلاع على تاريخ العرب من الافرنج رينو الصبداني (٢) وبفقدنا بها الدس ايضا قوله " وكان يعرف العربية وعنده الطلاء على شئ من التواريخ وبلغني انه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه وكان حسن المحاورة ومناظرا في كلامه . ومنهم ايضا الامير همفري سيد تينين اذ كان ترجمان رينار الى الملك العادل في المفاوضات التي دارت بينهما قرب ارسون ثم قرب بافا سنة ١١٩٢ م وقد قام بنصر المهمة ايضا بلطون الابلتو للقديس لومر التاسع في ايام اسره في مصر (٤) .

وكذلك اقبل بعض الشاميين على التطلع من اللاتينية " ومنهم الحكم نادري البطالي البغدادي النحلة فقد احكم اللغة السريانية واللاتينية بانطاكية وشدا بها شيئا من علم الاوائل " (٥)

ومن اثار الحروب الصليبية في هذا الحقل " ان دراسة اللغات الشرقية قد بدأت مع البعثات النصرانية الى الشرق وان المبشر راي موريس ^{مسلوكه مساهمة} لولم قد جعل المحن الديني في فينه بفتح ست مدارج لتعليم اللغات الشرقية في أوروبا سنة ١٣١١ م " . وكان للاداب الغربية تاثيرها في بعضهم حتى استوحاها بعض شعرائهم وكتابهم (٧) ودللتنا على ذلك ان بعض شخصيات الصليبيين كفودفرو وناكرد قد انجنت

(١) باركر تراث الاسلام ص ١١١ - ١١٢ / غروسبي (٢) غروسبي تاريخ الحروب الصليبية ومملكة القدس الفرنجية ص ٨٣٣ ح ٣ - (٣) سيرة صلاح الدين ص ٨٠ - (٤) راي المستعمرات الفرنجية ص ١٧٢ - ١٧٣ - (٥) ابن العري . مختصر الدوا ص ٤٧٧ - (٦) باركر تراث الاسلام ص ١٢٤ - ١٢٥ - (٧) لويون حضارة العرب ص ٣٦٧ .

موضوعاً: قصص للثعراء الحوالين الذين كانوا يشغلون بين قصر وآخر من قصور الملوك والأمراء وكما اختص التوسيع في المعارف الفكر العلمى عندهم كذلك اثير في الخيال الشعبي، ايضا (١) فمما لا شك فيه ان اسطورة "الكاس المقدسة" تتضمن عناصر ترجع بلا ريب، الى اصل سامى، اذ لا بد وان يكون الصليبيون عرسلوا قد سمعوا وادركوا قصص الف ليلة وليلة او كليلوخلولومفها مبثا فان حكاية السنجاب للشعور *Leconte de Lisle* من حكايات الف ليلة وليلة وكذلك فقد اثير بوكاشيو من مراحه شعابة "الحكايات الريفية التي تضمنها كتابه *Decameron*"^(٢)

ومما بلغت النظر توسعهم في الشعر بسبب الحروب الصليبية فان قصائد جديدة عديدة نظمت في نارت الصليبيين كقصيدة كبرواز الانكليزية التي تصف لنا الحملة الثالثة وقصيدة اغنية انطاكيا (*Chanson d'Antioche*)^(٣)

وسرعان ما استحال قصبة الحروب الصليبية في نارت من نارت الى اسطورة وذلك منذ مستها تلك الحروب وقد تمتل في "اغنية الضعفاء" سنة ١١٣٠ م . . . *Chanson de l'Épave*

واذا انتقلنا من الاداب الى التاريخ رابنا ان هذه الحروب

الصليبية قد خلقت لنا من المعالومات منه طائفة كيرة . ومن بين مؤرخيها من

الفرنسيين ذلك النورماندي الذي لم يشا ان يسم كتابه "حركة الفرنج" باسمه فوصف

لنا فيه الحملة الاولى (٥) وكذلك فوشيه ده شارتر *de Chartres* صاحب كتاب *Hierosolymite*

ويصف فيه نارت مملكة القدس حتى سنة ١١٥٧ م . ولضنا بناسين غليوم الصرى وسعته

الطرابلسي وكلاهما ولدا وتربيا في البلاد الشامية . اما الاو فله "نارت فيما وراء"

البحار" *Le Livre des Mers* وهو ٢٣ مجلدا تناول فيه الحوادث حتى سنة ١١٨٣ م .

وقد ارجع هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية اهم مرجع لثع الحروب الصليبية

ولم يهتم صاحبنا بنارت الافرنج بحسب بل ألف ايضا نارت "الامراء المسلمين منذ ظهور

النبي"

(١) الامم *Le Livre des Mers* / ٢٢١ / ٢٢٢ / ٢٢٣ / ٢٢٤ / ٢٢٥ / ٢٢٦ / ٢٢٧ / ٢٢٨ / ٢٢٩ / ٢٣٠ / ٢٣١ / ٢٣٢ / ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٣٥ / ٢٣٦ / ٢٣٧ / ٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤٠ / ٢٤١ / ٢٤٢ / ٢٤٣ / ٢٤٤ / ٢٤٥ / ٢٤٦ / ٢٤٧ / ٢٤٨ / ٢٤٩ / ٢٥٠ / ٢٥١ / ٢٥٢ / ٢٥٣ / ٢٥٤ / ٢٥٥ / ٢٥٦ / ٢٥٧ / ٢٥٨ / ٢٥٩ / ٢٦٠ / ٢٦١ / ٢٦٢ / ٢٦٣ / ٢٦٤ / ٢٦٥ / ٢٦٦ / ٢٦٧ / ٢٦٨ / ٢٦٩ / ٢٧٠ / ٢٧١ / ٢٧٢ / ٢٧٣ / ٢٧٤ / ٢٧٥ / ٢٧٦ / ٢٧٧ / ٢٧٨ / ٢٧٩ / ٢٨٠ / ٢٨١ / ٢٨٢ / ٢٨٣ / ٢٨٤ / ٢٨٥ / ٢٨٦ / ٢٨٧ / ٢٨٨ / ٢٨٩ / ٢٩٠ / ٢٩١ / ٢٩٢ / ٢٩٣ / ٢٩٤ / ٢٩٥ / ٢٩٦ / ٢٩٧ / ٢٩٨ / ٢٩٩ / ٣٠٠ / ٣٠١ / ٣٠٢ / ٣٠٣ / ٣٠٤ / ٣٠٥ / ٣٠٦ / ٣٠٧ / ٣٠٨ / ٣٠٩ / ٣١٠ / ٣١١ / ٣١٢ / ٣١٣ / ٣١٤ / ٣١٥ / ٣١٦ / ٣١٧ / ٣١٨ / ٣١٩ / ٣٢٠ / ٣٢١ / ٣٢٢ / ٣٢٣ / ٣٢٤ / ٣٢٥ / ٣٢٦ / ٣٢٧ / ٣٢٨ / ٣٢٩ / ٣٣٠ / ٣٣١ / ٣٣٢ / ٣٣٣ / ٣٣٤ / ٣٣٥ / ٣٣٦ / ٣٣٧ / ٣٣٨ / ٣٣٩ / ٣٤٠ / ٣٤١ / ٣٤٢ / ٣٤٣ / ٣٤٤ / ٣٤٥ / ٣٤٦ / ٣٤٧ / ٣٤٨ / ٣٤٩ / ٣٥٠ / ٣٥١ / ٣٥٢ / ٣٥٣ / ٣٥٤ / ٣٥٥ / ٣٥٦ / ٣٥٧ / ٣٥٨ / ٣٥٩ / ٣٦٠ / ٣٦١ / ٣٦٢ / ٣٦٣ / ٣٦٤ / ٣٦٥ / ٣٦٦ / ٣٦٧ / ٣٦٨ / ٣٦٩ / ٣٧٠ / ٣٧١ / ٣٧٢ / ٣٧٣ / ٣٧٤ / ٣٧٥ / ٣٧٦ / ٣٧٧ / ٣٧٨ / ٣٧٩ / ٣٨٠ / ٣٨١ / ٣٨٢ / ٣٨٣ / ٣٨٤ / ٣٨٥ / ٣٨٦ / ٣٨٧ / ٣٨٨ / ٣٨٩ / ٣٩٠ / ٣٩١ / ٣٩٢ / ٣٩٣ / ٣٩٤ / ٣٩٥ / ٣٩٦ / ٣٩٧ / ٣٩٨ / ٣٩٩ / ٤٠٠ / ٤٠١ / ٤٠٢ / ٤٠٣ / ٤٠٤ / ٤٠٥ / ٤٠٦ / ٤٠٧ / ٤٠٨ / ٤٠٩ / ٤١٠ / ٤١١ / ٤١٢ / ٤١٣ / ٤١٤ / ٤١٥ / ٤١٦ / ٤١٧ / ٤١٨ / ٤١٩ / ٤٢٠ / ٤٢١ / ٤٢٢ / ٤٢٣ / ٤٢٤ / ٤٢٥ / ٤٢٦ / ٤٢٧ / ٤٢٨ / ٤٢٩ / ٤٣٠ / ٤٣١ / ٤٣٢ / ٤٣٣ / ٤٣٤ / ٤٣٥ / ٤٣٦ / ٤٣٧ / ٤٣٨ / ٤٣٩ / ٤٤٠ / ٤٤١ / ٤٤٢ / ٤٤٣ / ٤٤٤ / ٤٤٥ / ٤٤٦ / ٤٤٧ / ٤٤٨ / ٤٤٩ / ٤٥٠ / ٤٥١ / ٤٥٢ / ٤٥٣ / ٤٥٤ / ٤٥٥ / ٤٥٦ / ٤٥٧ / ٤٥٨ / ٤٥٩ / ٤٦٠ / ٤٦١ / ٤٦٢ / ٤٦٣ / ٤٦٤ / ٤٦٥ / ٤٦٦ / ٤٦٧ / ٤٦٨ / ٤٦٩ / ٤٧٠ / ٤٧١ / ٤٧٢ / ٤٧٣ / ٤٧٤ / ٤٧٥ / ٤٧٦ / ٤٧٧ / ٤٧٨ / ٤٧٩ / ٤٨٠ / ٤٨١ / ٤٨٢ / ٤٨٣ / ٤٨٤ / ٤٨٥ / ٤٨٦ / ٤٨٧ / ٤٨٨ / ٤٨٩ / ٤٩٠ / ٤٩١ / ٤٩٢ / ٤٩٣ / ٤٩٤ / ٤٩٥ / ٤٩٦ / ٤٩٧ / ٤٩٨ / ٤٩٩ / ٥٠٠ / ٥٠١ / ٥٠٢ / ٥٠٣ / ٥٠٤ / ٥٠٥ / ٥٠٦ / ٥٠٧ / ٥٠٨ / ٥٠٩ / ٥١٠ / ٥١١ / ٥١٢ / ٥١٣ / ٥١٤ / ٥١٥ / ٥١٦ / ٥١٧ / ٥١٨ / ٥١٩ / ٥٢٠ / ٥٢١ / ٥٢٢ / ٥٢٣ / ٥٢٤ / ٥٢٥ / ٥٢٦ / ٥٢٧ / ٥٢٨ / ٥٢٩ / ٥٣٠ / ٥٣١ / ٥٣٢ / ٥٣٣ / ٥٣٤ / ٥٣٥ / ٥٣٦ / ٥٣٧ / ٥٣٨ / ٥٣٩ / ٥٤٠ / ٥٤١ / ٥٤٢ / ٥٤٣ / ٥٤٤ / ٥٤٥ / ٥٤٦ / ٥٤٧ / ٥٤٨ / ٥٤٩ / ٥٥٠ / ٥٥١ / ٥٥٢ / ٥٥٣ / ٥٥٤ / ٥٥٥ / ٥٥٦ / ٥٥٧ / ٥٥٨ / ٥٥٩ / ٥٦٠ / ٥٦١ / ٥٦٢ / ٥٦٣ / ٥٦٤ / ٥٦٥ / ٥٦٦ / ٥٦٧ / ٥٦٨ / ٥٦٩ / ٥٧٠ / ٥٧١ / ٥٧٢ / ٥٧٣ / ٥٧٤ / ٥٧٥ / ٥٧٦ / ٥٧٧ / ٥٧٨ / ٥٧٩ / ٥٨٠ / ٥٨١ / ٥٨٢ / ٥٨٣ / ٥٨٤ / ٥٨٥ / ٥٨٦ / ٥٨٧ / ٥٨٨ / ٥٨٩ / ٥٩٠ / ٥٩١ / ٥٩٢ / ٥٩٣ / ٥٩٤ / ٥٩٥ / ٥٩٦ / ٥٩٧ / ٥٩٨ / ٥٩٩ / ٦٠٠ / ٦٠١ / ٦٠٢ / ٦٠٣ / ٦٠٤ / ٦٠٥ / ٦٠٦ / ٦٠٧ / ٦٠٨ / ٦٠٩ / ٦١٠ / ٦١١ / ٦١٢ / ٦١٣ / ٦١٤ / ٦١٥ / ٦١٦ / ٦١٧ / ٦١٨ / ٦١٩ / ٦٢٠ / ٦٢١ / ٦٢٢ / ٦٢٣ / ٦٢٤ / ٦٢٥ / ٦٢٦ / ٦٢٧ / ٦٢٨ / ٦٢٩ / ٦٣٠ / ٦٣١ / ٦٣٢ / ٦٣٣ / ٦٣٤ / ٦٣٥ / ٦٣٦ / ٦٣٧ / ٦٣٨ / ٦٣٩ / ٦٤٠ / ٦٤١ / ٦٤٢ / ٦٤٣ / ٦٤٤ / ٦٤٥ / ٦٤٦ / ٦٤٧ / ٦٤٨ / ٦٤٩ / ٦٥٠ / ٦٥١ / ٦٥٢ / ٦٥٣ / ٦٥٤ / ٦٥٥ / ٦٥٦ / ٦٥٧ / ٦٥٨ / ٦٥٩ / ٦٦٠ / ٦٦١ / ٦٦٢ / ٦٦٣ / ٦٦٤ / ٦٦٥ / ٦٦٦ / ٦٦٧ / ٦٦٨ / ٦٦٩ / ٦٧٠ / ٦٧١ / ٦٧٢ / ٦٧٣ / ٦٧٤ / ٦٧٥ / ٦٧٦ / ٦٧٧ / ٦٧٨ / ٦٧٩ / ٦٨٠ / ٦٨١ / ٦٨٢ / ٦٨٣ / ٦٨٤ / ٦٨٥ / ٦٨٦ / ٦٨٧ / ٦٨٨ / ٦٨٩ / ٦٩٠ / ٦٩١ / ٦٩٢ / ٦٩٣ / ٦٩٤ / ٦٩٥ / ٦٩٦ / ٦٩٧ / ٦٩٨ / ٦٩٩ / ٧٠٠ / ٧٠١ / ٧٠٢ / ٧٠٣ / ٧٠٤ / ٧٠٥ / ٧٠٦ / ٧٠٧ / ٧٠٨ / ٧٠٩ / ٧١٠ / ٧١١ / ٧١٢ / ٧١٣ / ٧١٤ / ٧١٥ / ٧١٦ / ٧١٧ / ٧١٨ / ٧١٩ / ٧٢٠ / ٧٢١ / ٧٢٢ / ٧٢٣ / ٧٢٤ / ٧٢٥ / ٧٢٦ / ٧٢٧ / ٧٢٨ / ٧٢٩ / ٧٣٠ / ٧٣١ / ٧٣٢ / ٧٣٣ / ٧٣٤ / ٧٣٥ / ٧٣٦ / ٧٣٧ / ٧٣٨ / ٧٣٩ / ٧٤٠ / ٧٤١ / ٧٤٢ / ٧٤٣ / ٧٤٤ / ٧٤٥ / ٧٤٦ / ٧٤٧ / ٧٤٨ / ٧٤٩ / ٧٥٠ / ٧٥١ / ٧٥٢ / ٧٥٣ / ٧٥٤ / ٧٥٥ / ٧٥٦ / ٧٥٧ / ٧٥٨ / ٧٥٩ / ٧٦٠ / ٧٦١ / ٧٦٢ / ٧٦٣ / ٧٦٤ / ٧٦٥ / ٧٦٦ / ٧٦٧ / ٧٦٨ / ٧٦٩ / ٧٧٠ / ٧٧١ / ٧٧٢ / ٧٧٣ / ٧٧٤ / ٧٧٥ / ٧٧٦ / ٧٧٧ / ٧٧٨ / ٧٧٩ / ٧٨٠ / ٧٨١ / ٧٨٢ / ٧٨٣ / ٧٨٤ / ٧٨٥ / ٧٨٦ / ٧٨٧ / ٧٨٨ / ٧٨٩ / ٧٩٠ / ٧٩١ / ٧٩٢ / ٧٩٣ / ٧٩٤ / ٧٩٥ / ٧٩٦ / ٧٩٧ / ٧٩٨ / ٧٩٩ / ٨٠٠ / ٨٠١ / ٨٠٢ / ٨٠٣ / ٨٠٤ / ٨٠٥ / ٨٠٦ / ٨٠٧ / ٨٠٨ / ٨٠٩ / ٨١٠ / ٨١١ / ٨١٢ / ٨١٣ / ٨١٤ / ٨١٥ / ٨١٦ / ٨١٧ / ٨١٨ / ٨١٩ / ٨٢٠ / ٨٢١ / ٨٢٢ / ٨٢٣ / ٨٢٤ / ٨٢٥ / ٨٢٦ / ٨٢٧ / ٨٢٨ / ٨٢٩ / ٨٣٠ / ٨٣١ / ٨٣٢ / ٨٣٣ / ٨٣٤ / ٨٣٥ / ٨٣٦ / ٨٣٧ / ٨٣٨ / ٨٣٩ / ٨٤٠ / ٨٤١ / ٨٤٢ / ٨٤٣ / ٨٤٤ / ٨٤٥ / ٨٤٦ / ٨٤٧ / ٨٤٨ / ٨٤٩ / ٨٥٠ / ٨٥١ / ٨٥٢ / ٨٥٣ / ٨٥٤ / ٨٥٥ / ٨٥٦ / ٨٥٧ / ٨٥٨ / ٨٥٩ / ٨٦٠ / ٨٦١ / ٨٦٢ / ٨٦٣ / ٨٦٤ / ٨٦٥ / ٨٦٦ / ٨٦٧ / ٨٦٨ / ٨٦٩ / ٨٧٠ / ٨٧١ / ٨٧٢ / ٨٧٣ / ٨٧٤ / ٨٧٥ / ٨٧٦ / ٨٧٧ / ٨٧٨ / ٨٧٩ / ٨٨٠ / ٨٨١ / ٨٨٢ / ٨٨٣ / ٨٨٤ / ٨٨٥ / ٨٨٦ / ٨٨٧ / ٨٨٨ / ٨٨٩ / ٨٩٠ / ٨٩١ / ٨٩٢ / ٨٩٣ / ٨٩٤ / ٨٩٥ / ٨٩٦ / ٨٩٧ / ٨٩٨ / ٨٩٩ / ٩٠٠ / ٩٠١ / ٩٠٢ / ٩٠٣ / ٩٠٤ / ٩٠٥ / ٩٠٦ / ٩٠٧ / ٩٠٨ / ٩٠٩ / ٩١٠ / ٩١١ / ٩١٢ / ٩١٣ / ٩١٤ / ٩١٥ / ٩١٦ / ٩١٧ / ٩١٨ / ٩١٩ / ٩٢٠ / ٩٢١ / ٩٢٢ / ٩٢٣ / ٩٢٤ / ٩٢٥ / ٩٢٦ / ٩٢٧ / ٩٢٨ / ٩٢٩ / ٩٣٠ / ٩٣١ / ٩٣٢ / ٩٣٣ / ٩٣٤ / ٩٣٥ / ٩٣٦ / ٩٣٧ / ٩٣٨ / ٩٣٩ / ٩٤٠ / ٩٤١ / ٩٤٢ / ٩٤٣ / ٩٤٤ / ٩٤٥ / ٩٤٦ / ٩٤٧ / ٩٤٨ / ٩٤٩ / ٩٥٠ / ٩٥١ / ٩٥٢ / ٩٥٣ / ٩٥٤ / ٩٥٥ / ٩٥٦ / ٩٥٧ / ٩٥٨ / ٩٥٩ / ٩٦٠ / ٩٦١ / ٩٦٢ / ٩٦٣ / ٩٦٤ / ٩٦٥ / ٩٦٦ / ٩٦٧ / ٩٦٨ / ٩٦٩ / ٩٧٠ / ٩٧١ / ٩٧٢ / ٩٧٣ / ٩٧٤ / ٩٧٥ / ٩٧٦ / ٩٧٧ / ٩٧٨ / ٩٧٩ / ٩٨٠ / ٩٨١ / ٩٨٢ / ٩٨٣ / ٩٨٤ / ٩٨٥ / ٩٨٦ / ٩٨٧ / ٩٨٨ / ٩٨٩ / ٩٩٠ / ٩٩١ / ٩٩٢ / ٩٩٣ / ٩٩٤ / ٩٩٥ / ٩٩٦ / ٩٩٧ / ٩٩٨ / ٩٩٩ / ١٠٠٠ / ١٠٠١ / ١٠٠٢ / ١٠٠٣ / ١٠٠٤ / ١٠٠٥ / ١٠٠٦ / ١٠٠٧ / ١٠٠٨ / ١٠٠٩ / ١٠١٠ / ١٠١١ / ١٠١٢ / ١٠١٣ / ١٠١٤ / ١٠١٥ / ١٠١٦ / ١٠١٧ / ١٠١٨ / ١٠١٩ / ١٠٢٠ / ١٠٢١ / ١٠٢٢ / ١٠٢٣ / ١٠٢٤ / ١٠٢٥ / ١٠٢٦ / ١٠٢٧ / ١٠٢٨ / ١٠٢٩ / ١٠٣٠ / ١٠٣١ / ١٠٣٢ / ١٠٣٣ / ١٠٣٤ / ١٠٣٥ / ١٠٣٦ / ١٠٣٧ / ١٠٣٨ / ١٠٣٩ / ١٠٤٠ / ١٠٤١ / ١٠٤٢ / ١٠٤٣ / ١٠٤٤ / ١٠٤٥ / ١٠٤٦ / ١٠٤٧ / ١٠٤٨ / ١٠٤٩ / ١٠٥٠ / ١٠٥١ / ١٠٥٢ / ١٠٥٣ / ١٠٥٤ / ١٠٥٥ / ١٠٥٦ / ١٠٥٧ / ١٠٥٨ / ١٠٥٩ / ١٠٦٠ / ١٠٦١ / ١٠٦٢ / ١٠٦٣ / ١٠٦٤ / ١٠٦٥ / ١٠٦٦ / ١٠٦٧ / ١٠٦٨ / ١٠٦٩ / ١٠٧٠ / ١٠٧١ / ١٠٧٢ / ١٠٧٣ / ١٠٧٤ / ١٠٧٥ / ١٠٧٦ / ١٠٧٧ / ١٠٧٨ / ١٠٧٩ / ١٠٨٠ / ١٠٨١ / ١٠٨٢ / ١٠٨٣ / ١٠٨٤ / ١٠٨٥ / ١٠٨٦ / ١٠٨٧ / ١٠٨٨ / ١٠٨٩ / ١٠٩٠ / ١٠٩١ / ١٠٩٢ / ١٠٩٣ / ١٠٩٤ / ١٠٩٥ / ١٠٩٦ / ١٠٩٧ / ١٠٩٨ / ١٠٩٩ / ١١٠٠ / ١١٠١ / ١١٠٢ / ١١٠٣ / ١١٠٤ / ١١٠٥ / ١١٠٦ / ١١٠٧ / ١١٠٨ / ١١٠٩ / ١١١٠ / ١١١١ / ١١١٢ / ١١١٣ / ١١١٤ / ١١١٥ / ١١١٦ / ١١١٧ / ١١١٨ / ١١١٩ / ١١٢٠ / ١١٢١ / ١١٢٢ / ١١٢٣ / ١١٢٤ / ١١٢٥ / ١١٢٦ / ١١٢٧ / ١١٢٨ / ١١٢٩ / ١١٣٠ / ١١٣١ / ١١٣٢ / ١١٣٣ / ١١٣٤ / ١١٣٥ / ١١٣٦ / ١١٣٧ / ١١٣٨ / ١١٣٩ / ١١٤٠ / ١١٤١ / ١١٤٢ / ١١٤٣ / ١١٤٤ / ١١٤٥ / ١١٤٦ / ١١٤٧ / ١١٤٨ / ١١٤٩ / ١١٥٠ / ١١٥١ / ١١٥٢ / ١١٥٣ / ١١٥٤ / ١١٥٥ / ١١٥٦ / ١١٥٧ / ١١٥٨ / ١١٥٩ / ١١٦٠ / ١١٦١ / ١١٦٢ / ١١٦٣ / ١١٦٤ / ١١٦٥ / ١١٦٦ / ١١٦٧ / ١١٦٨ / ١١٦٩ / ١١٧٠ / ١١٧١ / ١١٧٢ / ١١٧٣ / ١١٧٤ / ١١٧٥ / ١١٧٦ / ١١٧٧ / ١١٧٨ / ١١٧٩ / ١١٨٠ / ١١٨١ / ١١٨٢ / ١١٨٣ / ١١٨٤ / ١١٨٥ / ١١٨٦ / ١١٨٧ / ١١٨٨ / ١١٨٩ / ١١٩٠ / ١١٩١ / ١١٩٢ / ١١٩٣ / ١١٩٤ / ١١٩٥ / ١١٩٦ / ١١٩٧ / ١١٩٨ / ١١٩٩ / ١٢٠٠ / ١٢٠١ / ١٢٠٢ / ١٢٠٣ / ١٢٠٤ / ١٢٠٥ / ١٢٠٦ / ١٢٠٧ / ١٢٠٨ / ١٢٠٩ / ١٢١٠ / ١٢١١ / ١٢١٢ / ١٢١٣ / ١٢١٤ / ١٢١٥ / ١٢١٦ / ١٢١٧ / ١٢١٨ / ١٢١٩ / ١٢٢٠ / ١٢٢١ / ١٢٢٢ / ١٢٢٣ / ١٢٢٤ / ١٢٢٥ / ١٢٢٦ / ١٢٢٧ / ١٢٢٨ / ١٢٢٩ / ١٢٣٠ / ١٢٣١ / ١٢٣٢ / ١٢٣٣ / ١٢٣٤ / ١٢٣٥ / ١٢٣٦ / ١٢٣٧ / ١٢٣٨ / ١٢٣٩ / ١٢٤٠ / ١٢٤١ / ١٢٤٢ / ١٢٤٣ / ١٢٤٤ / ١٢٤٥ / ١٢٤٦ / ١٢٤٧ / ١٢٤٨ / ١٢٤٩ / ١٢٥٠ / ١٢٥١ / ١٢٥٢ / ١٢٥٣ / ١٢٥٤ / ١٢٥٥ / ١٢٥٦ / ١٢٥٧ / ١٢٥٨ / ١٢٥٩ / ١٢٦٠ / ١٢٦١ / ١٢٦٢ / ١٢٦٣ / ١٢٦٤ / ١٢٦٥ / ١٢٦٦ / ١٢٦٧ / ١٢٦٨ / ١٢٦٩ / ١٢٧٠ / ١٢٧١ / ١٢٧٢ / ١٢٧٣ / ١٢٧٤ / ١٢٧٥ / ١٢٧٦ / ١٢٧٧ / ١٢٧٨ / ١٢٧٩ / ١٢٨٠ / ١٢٨١ / ١٢٨٢ / ١٢٨٣ / ١٢٨٤ / ١٢٨٥ / ١٢٨٦ / ١٢٨٧ / ١٢٨٨ / ١٢٨٩ / ١٢٩٠ / ١٢٩١ / ١٢٩٢ / ١٢٩٣ / ١٢٩٤ / ١٢٩٥ / ١٢٩٦ / ١٢٩٧ / ١٢٩٨ / ١٢٩٩ / ١٣٠٠ / ١٣٠١ / ١٣٠٢ / ١٣٠٣ / ١٣٠٤ / ١٣٠٥ / ١٣٠٦ / ١٣٠٧ / ١٣٠٨ / ١٣٠٩ / ١٣١٠ / ١٣١١ / ١٣١٢ / ١٣١٣ / ١٣١٤ / ١٣١٥ / ١٣١٦ / ١٣١٧ / ١٣١٨ / ١٣١٩ / ١٣٢٠ / ١٣٢١ / ١٣٢٢ / ١٣٢٣ / ١٣٢٤ / ١٣٢٥ / ١٣٢٦ / ١٣٢٧ / ١٣٢٨ / ١٣٢٩ / ١٣٣٠ / ١٣٣١ / ١٣٣٢ / ١٣٣٣ / ١٣٣٤ / ١٣٣٥ / ١٣٣٦ / ١٣٣٧ / ١٣٣٨ / ١٣٣٩ / ١٣٤٠ / ١٣٤١ / ١٣٤٢ / ١٣٤٣ / ١٣٤٤ / ١٣٤٥ / ١٣٤٦ / ١٣٤٧ / ١٣٤٨ / ١٣٤٩ / ١٣٥٠ / ١٣٥١ / ١٣٥٢ / ١٣٥٣ / ١٣٥٤ / ١٣٥٥ / ١٣٥٦ / ١٣٥٧ / ١٣٥٨ / ١٣٥٩ / ١٣٦٠ / ١٣٦١ / ١٣٦٢ / ١٣٦٣ / ١٣٦٤ / ١٣٦٥ / ١٣٦٦ / ١٣٦٧ / ١٣٦٨ / ١٣٦٩ / ١٣٧٠ / ١٣٧١ / ١٣٧٢ / ١٣٧٣ / ١٣٧٤ / ١٣٧٥ / ١٣٧٦ / ١٣٧٧ / ١٣٧٨ / ١٣٧٩ / ١٣٨٠ / ١٣٨١ / ١٣٨٢ / ١٣٨٣ / ١٣٨٤ / ١٣٨٥ / ١٣٨٦ / ١٣٨٧ / ١٣٨٨ / ١٣٨٩ / ١٣٩٠ / ١٣٩١ / ١٣٩٢ / ١٣٩٣ / ١٣٩٤ / ١٣٩٥ / ١٣٩٦ / ١٣٩٧ / ١٣٩٨ / ١٣٩٩ / ١٤٠٠ / ١٤٠١ / ١٤٠٢ / ١٤٠٣ / ١٤٠٤ / ١٤٠٥ / ١٤٠٦ / ١٤٠٧ / ١٤٠٨ / ١٤٠٩ / ١٤١٠ / ١٤١١ / ١٤١٢ / ١٤١٣ / ١٤١٤ / ١٤١٥ / ١٤١٦ / ١٤١٧ / ١٤١٨ / ١٤١٩ / ١٤٢٠ / ١٤٢١ / ١٤٢٢ / ١٤٢٣ / ١٤٢٤ / ١٤٢٥ / ١٤٢٦ / ١٤٢٧ / ١٤٢٨ / ١٤٢٩ / ١٤٣٠ / ١٤٣١ / ١٤٣٢ / ١٤٣٣ / ١٤٣٤ / ١٤٣٥ / ١٤٣٦ / ١٤٣٧ / ١٤٣٨ / ١٤٣٩ / ١٤٤٠ / ١٤٤١ / ١٤٤٢ / ١٤٤٣ / ١٤٤٤ / ١٤٤٥ / ١٤٤٦ / ١٤٤٧ / ١٤٤٨ / ١٤٤٩ / ١٤٥٠ / ١٤٥١ / ١٤٥٢ / ١٤٥٣ / ١٤٥٤ / ١٤٥٥ / ١٤٥٦ / ١٤٥٧ / ١٤٥٨ / ١٤٥٩ / ١٤٦٠ / ١٤٦١ / ١٤٦٢ / ١٤٦٣ / ١٤٦٤ / ١٤٦٥ / ١٤٦٦ / ١٤٦٧ / ١٤٦٨ / ١٤٦٩ / ١٤٧٠ / ١٤٧١ / ١٤٧٢ / ١٤٧٣ / ١٤٧٤ / ١٤٧٥ / ١٤٧٦ / ١٤٧٧ / ١٤٧٨ / ١٤٧٩ / ١٤٨٠ / ١٤٨١ / ١٤٨٢ / ١٤٨٣ / ١٤٨٤ / ١٤٨٥ / ١٤٨٦ / ١٤٨٧ / ١٤٨٨ / ١٤٨٩ / ١٤٩٠ / ١٤٩١ / ١٤٩٢ / ١٤٩٣ / ١٤٩٤ / ١٤٩٥ / ١٤٩٦ / ١٤٩٧ /

وهناك اثار فيه ما تزال محفوظة في مكتب فليوم الطرابلسي المسمى بـ "مكتبة
حالة العرب" سنة ١٢٢٣ . وان ما تحلى به الصوري
من سعة الاطلاع وروح النقد والوقفة في تحري الحقيقة لجعله يستحق كل تقدير (١)
هذا بعض ما خلفه لنا الكتبة من الافرنج اما العرب فقد خلفوا
لنا ايضا مؤلفات لها قيمتها في دراسة هذه الحقبة من تاريخ الديار الشامية والافرنج
فسيها ، بينها (١) كتاب الاعتبار* لاسامة بن منقذ وهو تناول تاريخ القرن الثاني
عشر كله و (٢) كتاب تاريخ الانباكة لابن الانبر . و (٣) كتاب سيرة صلاح الدين لبهاء
الدين المعروف بابن شداد (٢) وغيرها .

ومما لا ريب فيه ان الجغرافية كانت احدى الموضوعات التي عني
بها الصليبيون اكثر من سواها (٣) اذ كانت مؤلفات الفلكيين والجغرافيين الهامة
مع علاقات الملاحين والتجار وقد اهابت بالفرنج الى دراستها (٣) وباستطاعتنا ان نعتبر
ان الخرائط المعروفة بالسوقية والتي وضعت خلال النصف الاول من القرن الرابع عشر
هي اولو منتجات القرون الوسطى في اوروبا في هذا الفن وانها انت نتيجة للمعلومات
المكتسبة من الشرق خلال الحروب الصليبية (٤) .

ثم ان المخطوطات اللاتينية المرفقة ١٩٣٩ في المكتبة الوطنية
بباريس ويرجع عهدا الى سنة ١٣١٠ م تتضمن خارطة لنصف الكرة الارضية واثنين
اخرتين للارض المقدسة مع تعيين المسافات بين كل موقع وآخر وهذه الخارطة العالمية
قد تاخرت بظهورها عن خارطة (مسكندرية) باحدى عشرة سنة اذ قدمها للبابا
جان الثاني عشر سنة ١٣٢١ (٥) .

وهناك اطلر لرينرو فيسكونتي وهو يخوى على تسع خرائط محفوظة
في متحف كورار في البندقية يرجع تاريخه الى سنة ١٣١٨ وتحوى على مجموع البحر
المتوسط وما يدهد له الدقة في التفاصيل مع صحتها ولا سيما فيما يختص منها
بالساحل السوري - الشامي - وجزيرة قبرص وغيرها .

(١) لامير - سورية ص ٢٦٠ (٢) باركر تراث الاسلام ص ١٢٦ . ١٢٧ - (٣) راي ص

١٧٣ - ١٧٤ (٤) نفسه ص ١٧٧ - (٥) نفسه ص ١٧٧

ويوجد في مخطوطة اخرى محفوظة في مكتبة الفاتيكان بحث مرفوع

١٩٦٠ بعد تاريخه الى مطلع القرن الرابع عشر كما انه يوجد عدة مصورات
ابقونية من النسر وعكا وانطاكية فيها خرائط للارض المقدسة وتوجد خارطة اخرى
تمثل ايطالية وثانية تمثل مقاطعتي نابولي وصقلية وثالثة الاراضي البندقية وكلها
تستوعو النظر بدقة الحسابات والسلوب العمل فيها (١) .

واخيرا بحسن ان تشير الى ما جاء بهذا الصدد على فلم هاستنر

وهو " انه اذا كانت الحروب الصليبية قد زادت في معلومات اوروبا النصرانية
في الحضارة فان ذلك قد تم عن طريق التحارب العلمية لا عن طريق الاطلاع على
كتب الحذرافين من العرب التي كان العرب يحملها حتى ذاك الزمن (٢)

عذا ولم تكن غلبة الفوم بالفتون الحيلة لنقل عنها في الاداب
والا لير فقد ان تأثير فتون العرب بالافرنج كذلك عليهما ان نشأ عن دولات الصليبيين
حروب منتديات الشرق الممتد من القسطنطينية الى مصر وسواهم الخشنة (٣) .

اما فيما يتعلق بالعلوم الدقيقة فمستندنا لا يقول بان لوين يقول

انها كانت ضعيفة وذلك بفقدانهم (الافرنج) العالم (٤) الا ان راي بغيره هو ذلك
اذ يقول " ولما كان للثريفة وللاداب والتاريخ من ضعف بها من الافرنج كذلك كان
عدد كبير من النبلاء بينهم قد شغفوا بالعلوم الدقيقة ايضا ان اتنا نشاهد في سنة
١٢٠٤ م بناء القبرية في قوص يتم تحت ادارة وتصميم أنصوري

لمجابهة الصعوبات في ذلك الحصار (٥)

واحد علم الرياضيات قد قور عند الافرنج بفعل الاندلسيين اولا

وفي الثالث ثانيا ان العالم الاول في الخبر وهوليوتاريه ببيوناسي كان قد طاب
سورية ومصر وكان هذا العالم معاصرا لفرديناك الثاني وقد قسم له كتابه في الاعداد
المرعبة ولا يستبعد ان يرجع الفضل في ذبوع الارقام العربية وعلوم الحساب الى التجارة
التي راجت بين التذور الابيطالية والديار الشامية (٦) .

(١) نفسه ١٧٨ — (٢) حاشية رقم (١) من ص ١٢٥ الى تراث الاسلام هاستنر .

(٣) — لوين حضارة العرب ص ٣٦٧ — (٤) نفسه ص ٣٦٧ (٥) راي ص ١٧٣ —

(٦) باركر تراث الاسلام ص ١٢٣ .

ومن المملوك العلوم التي عرفت ان ذاك علم النبات وقد اشتهر به ابن البيطار الاندلسي في القرن الثالث عشر وكان في الشرق في سنة ١٢٧٠ م فزار انطاكية ومصر ثم استقر به المقام في دمشق لدى السلطان الملك الناصر وكان لبنان ميدان دراساته عن الحشائش فرسمها له رسام كان يرافقه وهي في مختلف حالاتها وبألوانها الطبيعية (١) وهنا نباتي آخر هو رشيد الدين القزويني ولد في صهر سنة ١١٧٧ ودرس في دمشق ثم ما لبث ان تفرغ ابن البيطار في علمه وقد اتخذ نباتات وحشائش بيروت وطرابلس وانطاكية ولنا به موضوعا لدراساته (٢) .

اما فيما يختص بالتاريخ الطبيعى فقد كان جاك دو فوري الوحيد من مؤلفي الافرنج الذي نال له بعض المعلومات فيه (٣) . غير ان تعصبه ضد الشرقيين جعله يبتعد غربا عن الحركة العلمية المنتشرة ان ذاك .

وتذاكر معلوماته عن الحيوان والنبات على سعة اطلاعه من جهة ورغبته في تحري الدقة وكذلك فان في وصفه للحجارة الكريمة بانواعها لدقة فائقة . وسندل من كتاباته انه قد درس ودقق في كتب علم المعادن الطبية ان انه قد وقع على خصائص الحجارة الكريمة التي لفت الانتظار في الغرب حتى ايام النهضة (٤) .

واما ما كتبه بشأن البناء الحارة فبدأ على معامات مبهمه وخاطئة احبانا (٥) .

وكادت مدينت طرابلس التي ازدهرت الحركة العلمية الهامة ان ذاك تضم مدارج مزدهرة يؤمها الطلاب من جميع الاقطار المجاورة ويدرسون فيها على اساتذة شريفيين لهم شهرتهم الذائعة الفلسفة والطب وقد نقلا اسطفا انطاكي - البصري الاصل الى اللاتينية كتاب المحوسبي في الطب ولعل هذا هو الكتاب الوحيد الذي عرفناه حتى الان ان الافرنج قد نقلوه (٦) .

ويظهر ان هذه المهنة الشريفة - مهنة الطب - ظلت من اختصاص البعثات من النصارى فكان لا ينامهم مكانة مرموقة عند امراء الافرنج ورجال الدين منهم ان كان يعهد اليهم مراقبة الصدقات ومناجاة المطارين - العقارين - وكان الاعطى

(١) رأى ص ١٨٥ (٢) رأى ص ١٨٥ (٣) رأى ص ١٨٥ (٤) رأى ص ١٨٥-١٨٦

(٥) نفسه ص ١٨٨ . (٦) حتى تاريخ العرب ص ٦٦٢

في الدمار الدامية عهد ذاك ينتمون الى جميع الاجناس والاديان ما عدا الافرنج (١) ويكفو ان نرجع قليلا الى كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ لنرى الفرق البين بين طب الافرنج وطب العرب اذ ذاك . وهاك نموذجاً منه = ومن عجب طبهم ان عادت المبادرة كتب الي عمو بطلب منه اتفاق طبيب بدوي . رضى من اصحابه فارسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة ايام حتى عاد قلنا له " ما اسرع ما داويت المرضى " قال " احضروا عندي فارساً قد طلعت في رحله دملة وامراً قد لحقها شفاء (٢) . نعملت للفارس ليجن ففتحت الدملة وصلحت . وحملت الدرة ورايت مزاحها . فقال لهم طبيب افرنجى . فقال لهم " هذا ما يعرف في (كذا . عابته) بدواهم . وقال للفارس = " ايما احب اليك تعيد . برجل واحدة او نموت برجلين . " قال " اعيش برجل واحدة " قال " احضروا لى فارساً قويا وفارساً قاطعاً . " فحضر الفارس والفارس وانا حاصر فعدت ساقه على تومة خشب وقال للفارس " اشرب رحله بالفاس ضربة واحدة اقطعها " . فضربه وانا اراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية مسال . من الساق ومات من ساعته . وابصر الدرة فقال " هذه اداة في راسها شيطان قد عذقها . احلقوا شعرها فحلقوه . وماتت ناكل من مالهم النوم والخرول . فزاد بها الشفاء . فقال الشيطان قد دخل في راسها . فاخذ الميسر وادى راسها صنبا وسلمه وسطه حتى ظهر عظم الراس وجكه بالمخ فماتت في وقتها . فقلت لهم " بقي كم الى حاحة فقالوا " لا " اجئت وقد نعملت من طبهم ما لم اكن اعرفه (٣) .

وكان للطب فروع عدة تلحق به = كطب العيون والجراحة والنصير والحجامة وغيرها . وكان جميع منتهيها بالطبيب والصيدلي تحت مراقبة المعصب (٤) ومن الفروع التي اهتم لها العرب في مطلع القرن الثالث عشر " الطب البيطري " . ويتعذر علينا معرفة مقدار ما اولاه الافرنج من عنايتهم غير انه باستطاعتنا ان نحكم ان الساطرة = من حذائين ومدادين = كانوا مسئولين عن الحيوانات

(١) الامس مورن - ١٤٥-٢٤٦ - (٢) شفاء فارسية بمعنى الجبل لاسامة من ١٢٢ حاشية رقم ٦

(٣) لاسامة كتاب الاعتبار من ١٣٢-١٣٣ . (٤) راي المتعمرات الفرنجية من ١٨٢ .

الموكوا، اليهم امر تطبيبها . (١)

وكذلك كانت "الصبدلة" جزءا لا يتجزأ لعلم الطب اذ كان الطب نفسه يحضر الدواء . وكانت الصفات الطبية تحفظ وفي حال موت المريض تقدم اليه رئيس الاطباء ليرى ما اذا كان فيها تفريط او افراط من قبل المريض (٢) وما يدل على عناية القم بحقوق الناس " ان الطبيب كان مسئولاً عن حياة مريضه وفائه كما انه مسئول ابناء عما قد يترتب الداء من تاتيسر ونتائج (هذا ما نطلم به قوانين المملكة اللاتينية) وكان من حق الطبيب ان يبرهن لدى الحاكم ان المريض لم يقتد في تناوله الدواء بتعليمات الطبيب وانه بسبب ذلك قد هلك . فاذا ثبتت البائة الطبيب لموت "القم" يتكلف بدفع ثمنه واذا كان المريض امريحيا من الاحرار كان بالامكان لبيت الطبيب بمصادرة املاكه (٣) ويظهر ان الاطباء كانوا متعهدون بشفا الاحرار . قد اختير ذلك بولولي لدى زيارته لدمشق في سنة ١٥٤٨ اذ كانت العادة ما تزال مربعة الاحرار عند الاطباء الشاميين (٤) .

وكانت قوانين "المملكة اللاتينية" تنظم حالة الاطباء في المستعمرات الافرنجية في البلاد المقدسة . من ذلك انها لم تكن تسمح لاي طبيب وفد الى البلاد بمعاونة المعالجة فيها قبل ان يؤدي امتحانا بحضور القضاة اطباء البلد في مجلس براسه الاسقف (٥) .

ويظهر ان الاطباء كانوا يتمتعون باحترام كبير اذ ان ابن الدمي، يذكر ضمن مذكر مضم محتاجا واسقف حلب المعتبر الذي بعد ان اعتزوا منصبه الديني وقد جلب طوائف وبقي لبها حتى نوافه الله ، بعلم الطب وكان محاطا بالاجلال والاكرام من رجال الدين وطبقة الاسماء (٦) .

اما مراكز الدراسة للطب فكانت انطاكية وطرابلس والندس ومن اساندها المشهود لهم بطوارى الحاج نبودور الانطاكي طبيب فردريك الثاني الخاص واسير الحلي

(١) راي المستعمرات الفرنجية ص ١٨٣ . (٢) ايضا ص ١٨٢ (٣) راي ص ١٨٢ - (٤)

نفسه ص ١٨٢ (٥) ايضا ص ١٨١-١٨٢ (٦) نلمر المرجع المذكور ص ١٨١ .

ومعقوب النسطوري الطرابلسي • اما ما نطالع في مؤلفات المؤرخين من افرنج
وعرب " ان التباين كان في المستعمرات الافرنجية من اختصاص الوطنيين ورجال
الدين من المعاقبة السريان خاصة • اما اطباء الغرب فكانوا دائما منحطين عن
زملائهم الشرقيين (١) •

ولما كانت المستشفيات والمؤسسات ولا سيما المحتفى منها بمعالجة
الفقراء والمجانين قد انتشرت في انحاء اوروبا ابان القرن الثاني عشر حتى اننا
ان نقرر ان تاسيس المستشفيات على تلك الصورة المنظمة قد وجدت تشجيعا
لها من الشرق المسلم (٢) كما اننا نستطيع ان نقرن ايضا افتتاح مدرسة الطب
في مونبيلييه بالاعمال التجارية التي كانت تتبادل بين جنوبي فرنسا وسواحل بحر
الروم الشرقية • هذا ما يثبته باركر (٣) •

لقد اننا حتى الان على ذكر ما تم من انتولات فكرية من طريق
اللغات والاداب والعلوم فنقل كلمة في *الانفصال* الفلسفة تشبها للبحث • يظهر ان
الافرنج لم يفلحوا على هذا النوع من الدراسة بدليل قلة ما ورد منها في كتبهم
لذلك العهد • ودونك ما عثرنا عليه بهذا العهد وهو كما سجد نرى لا يتفق
قليلا ولا ينفى من اجوع قال الدكتور حتى من ٦٦٠ من تاريخ الحرب وكان
فيليب الطرابلسي قد عثر في ايطاليا على مخطوطة عربية لكتاب "سرا سرار"
وقال في التوا بان ارساوا كان وضع هذا الكتاب لتلاميذ الاسكندر المقدوني •
وقد نقلها فيليب المذكور الى اللاتينية تحت اسم
الحكمة العميقة وتلم البصريات وكان هذا الكتاب من اكرم المراحل انتشارا في القرون
الوسطى • وهذا المارة اخرو الى الانتراب من الفلسفة دور الاخذ بها والتمسك
بدراستها • من ذلك ما جاء لقروميه من ص ٤٣٠-٤٤٠ الجزء الثاني قوله عن
بلدوين الاول " لما كان بولدواي في سورية كثيرا ما كان يظهر ميلا شامخا لبحث

(١) راء، ص ١٧٨-١٧٩ - (٢) حتى تاريخ العرب من ٦٣٣ • (٣) تراك الاسلام

المسائل البلدية ودونكم مثلاً واحداً يدل على ميله الفلسفي * فيما كان يوماً
بلازم قصره في مدينة صور بسبب وعكة المتبذرين ، استدعى اليه الاسقف - غلبوم -
وطلب اليه ان يسرد عليه سمعه البراهين والحجج التي تدل على خلود النفس .
ولما بسط الاسقف له الحجج المستمدة من " الكتاب المقدس " اعلن الملك انها
غير كافية معترضاً بان " الكثرة " يرفضونها مقدماً .

هذا وأنا لنقر لباركر ص ١٣٦ من تراث الاسلام قوله * وعلى

كل حال فقد اظهر العلماء استمدادهم بالآخذ عن فلاسفة العرب
الى هنا تكون قد اثبتنا على ذكر العلاقات الاجتماعية والفكرية
عند العرب والافرنج في سورية (الدبار الثانية) بقي علينا ان نقول كلمة عمداً
بنسج عنها من علاقات عامة في موطنها ومصدر انتشارها وهو اوروبية الغربية التي
اختلفت بها لذلك نقول - ان الحروب الصليبية قد تركت اثرها فوئصار غربي
اوروبية من نواح ارجع وهو - (١) فقد اثر في التنسنة وبالتالي البابوية .
(٢) كما اثر في الحياة الداخلية والاقتصادية في جميع الممالك . واستدلنا ان
نفس هذا التأثير حيث نراه في سر اشغال الدولة وفي مركز السلاطنة والحوام
والنصارى (٣) فاننا نشهد ذلك في العلاقات الخارجية عند الدول المختلفة من
كث ٣ دولة تحدثنا أولاً ثم من غير الشاور انعام "اجداد جميعه من دول اوروبية
(٤) لقد اثر هذه الحروب في علاقات اوروبية ثانية جميعها - فيهم /كافة/ البابوية /كافة/ -
فلنفسا ذلك فيما يلي -

(١) لقد كانت الحروب الصليبية - رغم نتائج البابوية منها - من
التدمير التي طغت على تنوية الروح المعنوية والاعلاء كلفة السلطة المدنية بدلاً من
السلطة الدينية التي سبقتها مادي في يد " فسادا عن ذلك التسلخ والروح المعنوية .
(٢) اما فيما يتعلق بالحكومات - فقد ابرز بها جميعها نوع جديد
من الضرائب التي لم يكن لهم عهد به حتى لقد قيل " ان الضرائب الحديثة نشأت
من حاجات الارمن المقدسة " اضرب الي هذا اثر الحروب الصليبية في انحاء الاقطار
وفقدان امراك مركزهم الاجتماعي ثم ظهور البلديات واستقلالها وكذلك فان هذه الحروب
خوسعها التجارة قد اثر في نمو المدن عامة وموانئ " الجنوب خاصة ان في فرنسا

او فو ابطاله ولنذكر ان العلم الذي كان نجاته نجارة
البندقية في الرمن الى البحر البلطى وبحر الشمال .

(٣) لقد اوجدت الحروب الصليبية رابطة جديدة بين الدول
الاوربية ما تزاا - نو البحر تنجم في اسر المحاولات لايجاد كتلة ضد الترت
(المسلمين) اثر الفكرة الصليبية باقيا .

ومن آثارها ايضا ان انتقل التوازن الدولي الى غرب اوروبا
وكان لفرنسة الشرق اسما في تلك الحروب يرجع القسا فو رفع مستوى فرنسة
الى ذلك المقام فو القرون الحديثة ولا عجب فان اول نداء قد وجه من اجا
الحروب الصليبية كان من فرنسة واول من لير النداء فرسانها .

(٤) واخيرا نستطيع ان نقرر بدون تردد ان الحروب الصليبية
قد اعطت اوروبا نظرة جديدة واسعة للعالم تلك النظرة التي صاحبها نهوض
حركة الارثباء والانصراف للاستفادة من المعلومات الجغرافية فالانحاء الى العناية
بكل آسية وقد بدا عصر الاستكشاف الاسيوى منذ ١٢٤٠ م وانتهى بعد ذلك بقرون
وهو بوازو باهية الاستكشاف الامبري وكان العاملون في هذا رجال دينيون
منحسمين وآخرون تمار طامعون علم ان مدارية الاول باء بالفتا والى الثانية
فكانت حجر الزاوية فو الاستثمار الحديث .

هذا ملخص عن باركر فو نوال الاسام من ١٣١-١٣٦

الخلاصة

عندما قررت ان يكون موضوع اطروحتي " الحروب الصليبية وما نتج عنها من علاقات اجتماعية واقتصادية وفكرية من العرب والافرنج " سررت في التفكير فيه ، وما كدت اخطو الخطوة الاولى عمليا حتى اخذت الهواجس مني ودب في نفسي شيء من التهييب والخشية . ذلك لان الموضوع جديد والطريق الى تحقيق الهدف منه طويل ^{ان} يتطلب جهودا متواصلة واتحافا متتالية هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فهناك المعلومات عنه متفرقة وبعيدة عن الحقائق ما يجوز اتخاذها لبنات لتشييد بناء .

ومرة هذا او ذاك عندي الى الخطوة التي اعتدنا ان ننظرها الى هذه الحقبة من التاريخ نحيلنا ما اعلى هوامشها من ادعاءات وابطال وما قد نشعر منها من اهلاك وتفتيل لموال فربين من الزمن فتبدو لنا الامور قائمة والحياة مسودة فنفسى ان التاريخ ليس بوجود مظاهر بل ان له لغابات ابعث وامض يجدر بنا ان نتوصل اليها وان سنفذ الى بواطنها حتى نتجلى الحقائق واضحة وتبدو النتائج ناصحة في مجرى التطور في المجتمع والاقتصاد والثقافة وهذا ما لم ان احسب ان السبيل اليه معبد .

ولكن ما ان غلوت الخطوة الثانية حتى وجدتني ازداد للموضوع تعدينا ولحقائق تفهما ولمظاهر التطور في حياة الافرنج نبينا ، فادركت عندها ان ما قد يبدو شرا فيه خير خبير وان مجريات التطور لا تقتصر على الظاهر الامور ولا تعبنا بالتوافه منها بل انها لتختل لنفسها عذرا تسير فيه حتى نخرج اعزها قد لا نراها نحن البشر الا فيما بعد . وعندها تفكرت اماذا عوامل حية تعمل للصالح العام دون ما نظرة مبدقة الى هذا او ذاك وما تلبث الاوضاع ان تتبدل والافكار ان تتجدد والحياة بجمعوعها ان تتطور فتتقلب الى ما فبسه الحق والخير والحما لنسب الانسان .

لقد فذلت الحروب الصليبية بما رمت البابوية اليه وفيما امل الملك والاسراء فيه ولكنها انت ما لم بات على فكر احد . ثم نرى فيها ، لاول وهلة ، من سرور ومكابد وفسائس وكيف تدملي الزم اميرا فتبدي الحقائق واضحة

فيما اراده التطور ان يكون من تبدل او تقدم ورفي .

فكم من شعوب وقبائل في اوروبا كانت ترسف في قيود انقطاع
بحول بينها وبين الحرية الاجتماعية . وكم بد ام كانت تمنو لسلطة
دينية يضرب صدرها عن الانساع للافكار الجديدة فتزدها قيودا على
قيودها وتحول بينها وبين التطور الفكري فتبقي " رعين المحسنين " الاقطاع
والكنيسة " كحني اذا ما نضات تلك القوى الرجعية النمط في الشرع رغب
في التسلط على اقطاره واقاليمه وارادت التفتيح مرافق الحياة فيه ، اهابت
بتلك القبائل والشعوب والام الى المسموحات رايضا . وما ان وطئت
اقدام الامم تلك البروق واحتكت جموعها بشعوبها حتى وجدوا انفسهم وجها
لوجه امام ثقافة بهرت منهم العيون وادخلت منهم العقول فهزت مذاهبهم
المشاعر وصقلت منهم النفوس .

وقد يكون الموضوع بحد ذاته يكررا بالانانة اليناء ، أسسا
الذين وقد استفادوا كل جهد في الانكباب على مراجعهم وتبين حقيقة
امرهم فعبثوا لنا التاريخ بما اعدوه من مؤلفات اعتمدوا فيها على
الاراجم الاسمية من شرقية وخرية ودللوا انما المصالح فيما جمعوه ونقحوه من
تلك المضللات . فلا يسمع الواحد منا اذا ما يتقدم عليه في هذا الحقل
من مصادر رويت ونسقت ونولا جهود الامم وعنايتهم لانتها يد التلويح ولاضامها
الحبل والاممال اقول لا يسمع الواحد منا اذا كان لا ان يكون لهم
من الشائرين فيها حقة من الرجالين ، وهناك فئة من الكتبة والمؤلفين
شاد نهار في كثرة ما خلفوا لنا وتنتبه . أناخذ ما عند الالمان كما
احسن ما عملوا في سبيل الشرق ودرامشه درسا عييفا شظيا ام تكفي بما
خلفه التوسيم وما اكثره واغزوه وابست جهود الانايز لقتل كثيرا من
جهود هؤلاء واولئك ثم افند اليها جميعا ما راج الايركيون والمتأركون
يزيدون على تلك الترو الضخمة .

غير ان وقوفك على هذه المراجع المختلفة المتعددة يشعت
امامك سلاسل مختلفة فانك بين رأيين اعدما مثله الكتبة الالمان
واشباعهم وهو يرى في الشرق عالما خيرا وفي " معونه اما راقبة جاء
الغرب اليه يذهب من مناعله العذبة في ارتي فساد وقد تبدل ^{جهد} ~~هنا~~

بعضهم ^{مأضياً} ~~وكانا~~ ^{يقتسم} حياة قائمة باخرى مشرفة فكانت تلك النهضة الجبارة في مطلع القرون الحديثة . اما الرأي ^{الآخر} ~~الثاني~~ ويمثله الفرنسيون ومن لف لفهم ف يرى في الآخر غلوا ومبالغات ويأتي ان يقرر للشرق بكل الحق وللغرب بجميع الفضل فتطارد عندئذ لان تبذل الجهود الجبارة للتوفيق بين مسن الفكرين والخلوص منهما بما بشئ السبيل ووضع الحق في نصابه .

ولا بد هنا من الاقرار بجهلي للالمانية التي لو كنت احسنها
اذن لو كنت اذ الاضطلاع على ما يبدو لي فيها وبهذا ولكن
وما لاحظته ان ما بين الاوروبيين من الشرقيين منهم
والغربيين من نزاع وتنافس اليم اما يرجع الى الاصل التي تفسحهم مختلفين
ولا يعود كما قد يتوهم البعض الى الحوار فحسب او الى الثورة الصناعية
ما نشأ عنها من تطور وتنافس . وتحاسد بل يعود الى نشأتهم الاولى
ولما الحروب السليبية كانت اول مطبوعه .

تلك ملاحظات ثبتت لي أحب ان اسجلها للتاريخ
وكملاحظة استنتجتها بعد قليل الحمد في عملي هذا المسمى / ٥٧ / فمسي ان
يكون فيها معنى النسيب من يتعدى للموتى من بعدي .
وبعد فمن ان انير اخيرا الى ان مهمل هذه الدراسات
انما تذكر في النفس اثرها في المشرق عامة والشرق من اهلها
خامة من فضل في تطور العرب والعربيين وما باستطاعتنا ان نقدم غدا بعد
ان ظهرت اليوم بشائر النهضة وبدت آيات النهضة عندنا واضحة واضحة
فمسي ان يكون الامس حافزا لليوم واليوم دليلا على
ما سيكون الغد .

مصادر الكتاب

١ - العربية

- (١) أبو الفدا (اسماعيل صاحب حماء)
- (٢) الأثير (الطلب بنز الدين بن)
- (٣) أحمد حسن (محمد)
- (٤) الأدرسي (الشريف)
- (٥) الأرماني (نجيب)
- (٦) باركر (ارنست)
- (٧) بطوطه (أحمد)
- (٨) بهاء الدين (المعروف بابي شداد)
- (٩) البلاذري
- (١٠) بيلي (أحمد)
- (١١) جبير (محمدي)
- (١٢) حتي (يوليوس)
- (١٣) زبدان (جرجي)
- (١٤) سرور (محمد جمال)
- (١٥) شهاب الدين (المنديسي)
- (١٦) شيخو (لويس)
- (١٧) صالح بن يحيى
- (١٨) طرزي (نيلوب)
- (١٩) العمري (أبو)
- (٢٠) علي (عبدالله)
- المختصر في أخبار البشر ١٢١٥ هـ مصر
- تاريخه الكامل ١٢٠١ هـ مصر
- اسامه بن منذر صفة من تاريخ الحروب الدليبية ١٩٤٦ مصر
- نزدة المشاق ٠٠٠٠ ١٥٩٢ هـ برومية
- الشرع الدولي في الاسلام ١٢٤٩ هـ - ١٩٣٠ م بدمشق
- الحروب الصليبية في تراث الاسلام ١٩٢٩ م مصر
- رحلته ١٢٨٢ هـ مصر
- سيرة صلاح الدين الايوبي ١٢١٢ مصر
- فتح البلدان ١٢١٩ هـ ١٩٠١ مصر
- حياة صلاح الدين الايوبي مصر
- رحلته مصر
- (١) تحفة الشرق للغرب - في الكتاب الذهبي ليويل المنطق الخمسيني ١٩٢٦ مصر
- (٢) كتاب الاعتبار ١٩٣٠ برنستون
- تاريخ المدن الاسلامي مصر
- الظاهر بيبرس وحفارة مصر في عصره ١٩٢٨ مصر
- كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ١٢٨٢ مصر
- بيروت تاريخها وآثارها ١٩٢٥ م بيروت
- تاريخ بيروت ١٨٩٨ م بيروت
- عصر السريان الذهبي ١٩٤٦ بيروت
- مختصر تاريخ الدول ١٨٩٠ بيروت
- المرأة العربية في جاهليتها و اسلامها ١٢٠٠ هـ ١٩٢٢ م بنصر

- تاريخ البيمارستانات في الاسلام ١٢٥٧ هـ ١٩٢٩
بدمشق .
- مقدمة العرب في العلم والفلسفة بدمشق
- كتاب معالم الفرية في احكام الحسبة ١٩٢٧ بكمبريدج
- ذيل للتاريخ دمشق ١٩٠٨ بيروت
- (١) خطط الشام ١٢٤٢ هـ ١٢٤٧ هـ دمشق
- (٢) الاسلام والحضارة العربية ١٩٢٤ - ١٩٢٦ بمصر
- تسريح الامصار فيما يحتوى لبنان من الآثار ١١٢ بيروت
- حضارة العرب - نقله زعيمتر ١٢٦٤ هـ بمصر
- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري نقله ابو زيد
١٢٥٩ هـ - ١٩٤٠ م بمصر
- احسن التباسم في معرفة الاناليم ١٨٧٧ م لندن
- كتاب لفظ السلوك لمعركة الملوك ١٩٢٤ بمصر
- كتاب الاعتبار - حرره حتى ١٩٢٠ برنستون
- سريانه - نقله يحيى الخشاب ١٢٦٤ هـ ١٩٤٥ م
بمصر .
- ساية الارباب في سون الادب بمصر
- طرح الكروب في اخبار بني ايوب (مخطوطه بمكتبة
الجامعة المصرية)

(٢١) عيسى بك (احمد)

(٢٢) نروغ (عمر)

(٢٣) اللزني (محمد)

(٢٤) اللانسي

(٢٥) كرد علي (محمد)

(٢٦) لامس (هنري)

(٢٧) لويون (غستاف)

(٢٨) متر (آدم)

(٢٩) المندسي

(٣٠) المنري (ثني الدين احمد بي علي)

(٣١) منذ (اسامة بن)

(٣٢) ناصر خسرو (علوي)

(٣٣) المويري

(٣٤) واصل (ابن)

ج - الوجيز

1) The anonyme author

2) Barker Ernest

3) Bercovic, K.

4) Blackmar, Franker

5) Blochet

6) Collin, H.G.

Beste Francorn

The Crusades Oxford 1936

The Crusades, N.Y. Cosmopolitain
book corporation 1929.

History of Humor Society, Boston

Relations diplomatiques des
Hohenstaufen avec les sultans d'E-
gypte 1902.

Chronicles of the Crusades, London
1943

7) Bréhier, Louis

8) Bongars

9) Bridrey, E.

10) Byrne, D.

11) Byrne; E.H.

12) Caffarus

13) Cahun; L.

14) Cambridge Medaeaval hist.

15) Chalaudon

16) Cheikho, L.

17) Conder, C.R.

18) Coulson, Georges

19) Coy, Sir Georges W.

20) Delisle, L.

21) Ferencbourg

22) De Vogue

23) Dodu, G.

24) Douglass, Amanda H.

25) Encyclopedea of Islam.

26) Eulart, G.

27)

27) Faris, N.A.

1) L'Eglise et l'Orient au Moyen Age .
2) Histoire de la 1ere Croisade 1924

Gestader per François

La Condition juridique des Croisés et
le privilège de la Croix Paris 1900

Crusades, London 1928

Genoese Colonies in Syria 1882

~~Annales Genuenses~~
Annales Genuenses

Introduction à l'histoire de l'Asie 1896

Vol. IV.

Jean II, Comène. Manuel Comène 1912.

~~Un dernier écho des Croisa-~~
des (MFOB)

The Latin Kingdom of Jerusalem ~~xxxx~~
1099-1111, London 1897.

Crusades, Commerce et ~~A~~ventures, London
1930.

The Crusades, London 1884

Opérations financières des Templiers
Paris 1889.

Osamaibn Mounquith 1889.

Les Eglises de Terre Sainte. Paris 1860

Hist. des Inst. monarchiques dans le
royaume latin de Jerusalem.

The heroes of the Crusades, Boston 189

a) Les monuments des Croisés dans le
royaume de Jerusalem. - Architectur
religieuse et civile Paris 1925-26.
b) La Cathédrale St; Jean de Beyrou
dans le bulletin soc. des antiqua'
de France, 1904.

The Arab Heritage Princeton, 1944

~~xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx~~

28) Foulcher de Chartres

29) Grousset, R.

30) Gruhn,

31) Hamp, Karl.

32) Hatim, A.

33) Heyd, W.

34) Henn-am Rhyn

35) Nitti, Phil.K.

36) L'Inst. de France

37) Jewdal, R.B.

38) Jewdale ^{Sine} ~~date~~

39) Kugler

40) King

41) Kugler

42) Lamens, H.

43)

43) Lane Pool, Stanley

44) Le Strange, G.

45) Marago Bernarhus

46) Martin, E.J.

~~xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx~~

Histoire Hierosolymitane

Hist. des Croisades et du Roy. Fran.
de Jerusalem Paris - 1934.

Der Kreuzzuge Richards I Berlin 1922

Das Hochmittelalter Geschichte des
Abendlands Von 900 bis 1250.

Les Chansons Epiques au temps des
Croisades, Paris 1930.

Hist. du Commerce d' Levant au Moyen
Age Leipzig 1925.

Allgemeine Kulturgeschichte

Hist. of the Arabs, London 1937.

La Collect. de l'Hist. des Croisades

- a) Hist. occidentaux.
- b) Hist. arabes.
- c) Hist. grecs
- d) Hist. arméniens.

Bohemond, Prince of Antioch.

Empires of the Crusade France, 1095-1271
Franck Argiels.

Geschichte der Kreuzzuge

The Knights Hospitallers in the Holy
Land.

Studien zur Geschichte des Zweiten
Kreuzzuge, Stuttgart 1866

- a) La Syrie Précis Historique, Bey-
routh 1924.
- b) La description du Liban d'après
Idrisi.

- a) The edin and the Wall of the
dom of Jerusalem London 1926/
- b) A hist. of Egypt in the M. Age

Palestine under Muslims.

Annales Pissai.

The trials of the Templars, London

47) Mayer, L.A.

48) Michaud

49) Michel le Syrien

50) Muir Sir W.

51) Mullar, W.

52) Morgate, K.

53) Oman, Sir Charles G.

54) Pirenne, H.

55) Prutz

56) Raoul of Caen

57) Raymond of Agiles

58) Rey, E.

59)

59) Risbhueber

60) Robinson, J. Harvey.

61) Roehricht, L.

62) Ruville, A.

63) Schaube

64) Schumberger

65) Société de l'Orient

66) Stevenson, W.G.

Larace. Herarldry Oxford.

a) Hist. des Croisades 3 vol. 19.

b) Bib. coll. *Étude des Croisades*
Chroniques *l'année 1113 et 1114*
par l'abbé Chebot 1900.

The Hameluks or Slave Dynasty of X
Egypt.

The Latin Orient London 1920.

Richard the Lion Heart, London 1924.

Hist. of the art of War in the
Middle Ages 1898.

Mahomet et Charlemagne 2^e ed. Paris 1938

Kulturgeschichte der Kruzzege

Gesta Tanenidi

Hist. Francorum qui ceperunt Les Jeru-
salem.

a) Colonies Franques en Syrie aux XII
et XIII siècles Paris 1903.

b) Etudes sur les monuments de l'ar-
chitecture des Croisés en Syrie et en
Chypre.

Les traditions françaises au Liban.

Int. to the Hist. of *Liban* 190 110

a) Geschichte der ersten Kruzzege
1901

Die Kruzzege 1920.

Handelsgeschichte der romanschen
volker des Mittelmeergebiets.

a) Numismatique de l'Orient Latin
Paris 1878.

b) Renaud de Châtillon prince d'An-
tioche, seigneur de la terre d'Ou-
Jourdain Paris 1923.

Archives de l'Orient Latin.

The Crusades in the East Cambri
1907.

67) Sybel;H.V.

Über den Zweitein Kreuzzuge in
"Kleine Schriften Bd.I.München 18

68) Weil

Geschichte der Califen 4.und. 5.Bd

69) Wells,H.G.

The outline of history London 1921.

70) Woodhouse,F.C.

The military religious orders London
1879.

71) Von Lybel

Geschichte der Ersten Kreuzzuge.

العلاقات الاجتماعية والثقافية

بين العرب والفرنس

خلال الحروب العليبية

بحسن بنا قبل ان نتصدى الى الموضوع الاساسى وهى العلاقات الاجتماعية والثقافية بين العرب والفرنس ان نلقى نظرة عبرى على تلك الحروب التى استمرت قرنين كاملين من الزمن لتبين اسبابها وظروفها وبعض نتائجها المباشرة من تآسير ملك واقامة حكومات حتى تكون على بينة من امر ما سنقف عليه بعد ذلك من النتائج فى حقل الاجتماع والثقافة .

يتوهم البعض ان تلك الحروب انما حدثت بفعل الدافع الدينى فقط وانه لولا البابوية لما كان قتال ولما تصادم الشرق والغرب آنذاك . والحقيقة انها لم تكن سوى نتيجة لحركات سبقها ورد فعل للموجة العربية الاسلامية التى بدأت فى منتصف القرن السابع الميلادى تطرق ابواب اوروى من الشرق تارة ومن الغرب اخرى حتى نجحت بعض النجاح من الجهة الغربية وفشلت كل الفشل من الجهة الشرقية .

ثم ما فتئت بين سد وجزر حتى كانت الفرصة فى القرن الحادى عشر للميلاد سانحة امام البابا ليجمع قوى اوروى المبعثرة ويعيد الكرة على الشرق فيستعيد ماكان العرب قد سبقوا واستولوا عليه ويهيض سلطانة على بلاد الشرق فيضم اليه كنيسته لاسيما وقد استطاع من قبل ان يجعل الغرب بممالكه وشعوبه ان تعنو جميعها الى سلطانة .

هذا فضلا عما كان فى الاطراف اذ ذاك من شفا وعنا اهابا بمجموع الفلاحين الى ان يستجيبوا دعوة البابا ويحققوا رغبة ساداتهم الامراء فى الفرض والفتح . وان تنس قلن تنس التجار وما كان لهم فى ذلك من اثر ورغبة اذ كان الكثير بينهم من اهل امثالية وحنوى فرنسة قد تعرف الى الشرق وما فيه من تجارات رابحة واسواق لها رائحة وثروات فيه متسخره كان لهم فيها مطمع . ولذاكر انه كان فى جانب هذا وذاك ظهور النورمان (الشماليين) والبروفنسيين من اهالى حنوى فرنسة بحال تميزهم بحب الاقتحام والفتح ومناجزة العرب فى سبيل الانبيلاء على البلاد وطردهم منها .

عندها تضافرت تلك الاسباب مع ما كان فى الشرقيين العربى والاسلامى من نداع فى اركان الملك وتفكك فى اسباب الوحدة وسعف ووهن عند السلطان فكان لا بد ازا هذا وذاك من قيام

مثل تلك الحروب سواء ادعت اليها البابوية ام الملوك الزنبيين والارماة الإنطاعيون او التجار الطامعون .
فما ان دوت كلمات اوربان الثاني في ناعه كلرمون سنة ١٠١٥ م حتى انتشرت وفعلت في نفوس
القوم فعلها فاستجاب الناس اليها وراحوا ينضون تحت راية امرأه تحرك فيهم حب القتال والنزال
فقادهم الى الشرق من جهة اسيه الصغرى . فما ان تلقاهم الكسيوس فيصر الروم حتى ظهرت بوادر
الخلاف والتفرقة

ثم كانت معاركة بينهم وبين السلاجقة في الاعرج ومن هناك انفضوا على الشام حيث كانت
حكومات عديدة متنازعة متناصرة فاستطاعوا بعننا غير كبير ان يفتحوا طريقهم خلال انطاكية الى
طرابلس فصيدا ثم الى حيفا فالقدس حيث التقوا حامية للفاطمييين لم تصمد في وجههم الا قليلا
فخذعوا افرادها والناس بالخلب من المواعيد فاستسلموا لهم وكان ما كان من اعمالهم المصيف في
رقاب العشرات من الآلاف بوحشية سبق لهم ان باسروها في المعركة وانطاكية من قبل .
على هذه الصورة استطاع الفرنج خلال بضع سنين ان يؤسروا مملكة لهم في القدس وان
يلحقوا بها كونتية طرابلس وامارة انطاكية ومقاطعة الرها . فكانت هذه نتائج الحملة الصليبية
الاولى المباشرة . الا انهم ما كادوا يتبادلون الهجمات بالكرات مع المسلمين حتى كان عماد الدين
زنكي قد صوب لهم ضربة قاضية من الرها سنة ١١٤٤ م وجعلهم يخلون المقاطعة كلها دون
ان يلبوا على شيء ويوفنون ان ايامهم في الديار الشاميه قد لا تطول كثيرا .
فكان على اثر ذلك ان قامت دعوة سان برنار واستجاب لها رجال الحملة الثانية بقيادة
امبراطور وملك ولكنها هي ايضا تكسرت على صخور المرة عند النيرب من دمشق وكانت نميا منصبا
بفضل لعبة سياسية قام معين الدين انسر بعمل فيها دوره ببراعة لا تقل طراقة عن حذى
زنكى في القتال .

بيد ان هذا لم يفت في عند الغربيين بل قاموا بلبون دعوة صليبية ثالثة فكان على راس
جيوشها ريشار وفيليب اوغست وفردريك بربروسا لكن هذا لم يكتب له سوى الموت العاجل في
اسيه الصغرى وحملة سوى التعثر والتلاشى في السهول الساحلية من الديار الشاميه .
وكان قد نبع في الديار الشاميه نبيل ذلك الشهيد محمود زنكى ثم تولى على يديه وبنى
شبركوه العظيم صلاح الدين بطل حطين . وما كادت تمل الحملة الثالثة ببعض جيوشها سوسوس
الخلاف ينخر في جوفها — حتى كانت الظروف المواتية قد هياأت لصلاح الدين ان يؤسس ملكا
ويجمع كافة المسلمين في مصر واليمن والشام وراح يعد العدة وينتظر الفرصة لينتصر على فرسخته التي
جعلها بين فكي الكفاشة وكان قد ابى احد امرأه الفرنج ارباط الكرك الا ان يفتح باب الشر بينه

وبين صلاح الدين وذلك بتعدياته التي لا مبرر لها مع قيام الهدنة بينهم وبين المماليك السلطان ولما لم يعد السلطان يستطيع صبرا جمع رجاله وانقض على جيوش الفرنج في سهل حطين سنة ١١٨٧ م حيث التي عليهم درسا بليغا في وجوب المحافظة على المعهود فكانت ضربة موجعة حقا اذ انزلت في جيوشهم وغرق الداوية السبارية منهم ما جعلهم صرعى الى زمن ولما استفاقوا لم يستطيعوا معها كبير شيء .

ولم تكن ضربات زنكي و انصر صلاح الدين لتعمل وحدها في اهلاكهم بل كان هناك ايضا ما بينهم من خلاف ونزاع وتدهور في الاخلاق . كل ذلك كان يزيد في طينهم بلة حتى هوت ملكهم وملحقاتها عند اقدام بيبرس وقلاوون والشراف خليل سنة ١٢٩٢ م .

هذا ما كان للحروب الصليبية من نتائج مباشرة بين المتحاربين خلال قرنين من الزمن فلنسر الآن ما نتج عنها بينهم من علاقات اجتماعية وصلات ثقافية وهي في الحقيقة اهم واجدر بالدراسة والتفهم . ان ما كان من النتائج السلبية للحروب الصليبية كخريب للمدن في الشام ومصر ونقص في الانفس بين المسلمين والنصارى من اهل القرب لا يقاس بالفوائد الجمة التي اصابها اوربة الفريية في حقل الاجتماع والثقافة بل وفي الاقتصاد ايضا .

اما في المجتمع فقد تبدلوا بحياتهم التبعة الخشنة حياة نعيم وترف ان في بيوتهم وقصورهم او في ملابسهم وما كلهم . هذا فضلا عن خشونة في اخلاقهم خلعوها وتحلوا بدماة اقتبسوها من اهل البلاد ط يفتوب بفضل المعاشرة . فما ان انقض على اقامتهم في البلاد ما يقرب من ربع قرن من الزمن حتى شعروا وكا* نهم اصبحوا شرقيين بلديين وقد نسوا مواطنهم الاولى وعلقوا بحب مواطنهم الجديدة فقلدوا اهلها بكل شيء حتى في لغاتهم واعيادهم وحفلاتهم ومبارياتهم الرياضية وخاصة الصيد منها . وان نفس شيئا فلنمنا بناسين الحمامات الماء ونمضها عليهم فقد اقبلوا عليها انبالاعظيما حقا حتى تجاوز بعضهم — كالراهبات — حد انظمة حياتهم وقوانينها (هذا ما نقله راي ص ٦٢ من كتابه " المستعمرات الفرنجية " من جاك دي فنتري) .

هذا وان المرأة الفرنجية ببقائها بعيدة عن احسن ما كان يوسعها ان تكسبه من الاخلاق والعادات ظلت بغحشتها ومجونها سببا من اسباب الفشل عندهم في مشروعهم . اذا كانت النبيلة منهم لا يهتمها على الاغلب الا لتحقيق رقائبها الجنسية ونزواتها النفسية ولو كان في ذلك خراب القوم والملكة ولم تكن المرأة المتوسطة من بينهم خيرا من زبيلتها النبيلة اذا انغمست هي ايضا في حماة من الفحش والمجون ما جاء وبالا على اخلاق الرجال وبالتالي دمارا للملكة وملحقاتها .

بهذا يحدثنا سان برنارد انظر ص ٢٥ - ٢٦ من حياة صلاح الدين لمؤلفه احمد بيلو وانظر غروسيه ج ٢ ص ٣٢٦ .

اما من حيث الغروسيه فبالرغم مما يدعيه بعض الغربيين كغروسيه فانه لم يظهر منها في الديار الشاميه في حياة اكثر كبرائهم الا الناحية الجسمانية وذلك في القوة وتحمل مشاق القتال اما من حيث الناحية الخلفية التي تتمثل في العروة وكبر النفس والعطف على الضعيف فقد اقتبسوا من ذلك جله من الفرسان العرب كما برز ذلك في كتاباتهم الادبية فيما بعد .
ولو اتينا الآن الى الحكومة وما افاد القوم منها لرأينا انهم قد اصابوا في هذا الحقل ايضا خيرا كثيرا . اما في الاطاع فقد تعلموا ان يقصروه على الارض واما الانسان فيبقى مالكا لحريته فلا يسم في سبيل ذلك سوى المذاب ولا يحرم من حسن المعاملة .

هذا فضلا عما دونوه فيما بعد من القوانين واذا بعثت الشريعة الرومانية عندهم فانما حصل ذلك بعد رجوعهم من الشرق . وما اقتبسوه الفرنج من العرب منصب " المحتسب " للنظر في امور الرعية والكف عن احوالهم ومعالجهم .

هذا في الاطاع والادارة اما في القضاء فقد اخذوا منه التشريع التجاري بفرعيه البري والبحري كما اقتبسوا ايضا اصول المحاكمات القانونية .

وكذلك فقد افاد الفرنج كثيرا من طرق الحروب واساليبها الفنية ومن الاسلحة والآلات الحصار وما شاكل فراحوا اولا يجندون من اهل البلاد فرقا من الخيالة الخفيفة وما لبثوا ان اتخذوا ايضا الدروع الزردية ومن الخوذ الشاميه يتقون بها ضربات السيوف ملقين جانبيا بدروعهم وخوذهم الخشنة الثقيلة . ولم يتورعوا عن تقليد العرب في استعمال المنجنية وزرع الانعام المتفجرة وصنع مركبات البلرود والمواد المفرقة واعداد النفط المتفد في الماء . ليس هذا فقط بل اقتبسوا ايضا شيئا كثيرا من فن الهندسة العربية كما حسنوا كثيرا من وسائل الدفاع . ثم ما لبث بعض النبلاء من بينهم ان اخذوا انفسهم بالملمم الدقيقة والفنون الآلية حتى اتقنوها .

وما اقتبسوه اهل غربي اوروبا خلال الحروب الصليبية من العرب النار كوسيلة للمخابرة السرية المستعملة ليلا وحمام البطاق نهارا . انظر صالح بن يحيى ص ٦١ وكذلك فلتهم فقد قلدوا اهل البلاد الشاميه في اتخاذ الرنوك والشعارات واستعمال علامات خاصة لتمييز الاساب .

هذا وكان لاخلاق الشرقيين فضلا عن كل ما ذكر اثرها البين في المتبلدين من الافرنج فنشأت صداقات بينهم وبين الشرقيين من عرب وترك واكراد جعلتهم يشبهون بهم في كثير من العادات الحميدة والاخلاق الفاضلة كالاستراف بالجميل والتسامح الديني والدفاع عن الصديق وحفظ الجار ورعاية الطفل وحماية الضعيف .

ولعله من الخير ان نذكر ما قام بين العرب والفرنج من تفاهم ثقافى كان له اثره البين في تقدم القوم في هذه الناحية ايضا .

ولو رحنا نعدد ما افاده القوم في ناحية الاقتصاديات لكان لنا منيع للقول وسجال فسيح للاشادة . ومن ذلك ما كان يتعلق بالزراعة فما كاد الفرنج يتعرفون الى السكر وحلاته حتى بادروا الى نقل زراعته فصبه الى بلادهم . وكذلك فقد نقلوا ايضا اللبون والبطيخ والشمش والخبخ والاجاص وقد بقى المشمش لمدة طويلة يعرف عندهم باسم " تمر دمشق " .

ومن جملة ما نقلوه من الديار الشامية " التمر الهندى " وان كان من محاصيل الهند هو والاوية والطبوب والبهارات ونخص بالذكر منها القرفة . واما القطنى فقد نقلوا منها الذرة البيضاء الشامية . واستطاعنا ان نقرر انهم نقلوا زراعة المسم والخروب والارز والقمح وما علينا الا ان نذكر اسما تلك المزروعات بلفاتهم ونقابلها بما هي في اللغات الشرقية وخاصة العربية منها فنعلم صدق ما نقول . وما له علاقة بالزراعة ايضا النواخير والدواب الهوائية التى لم تظهر في نورمانديا من فرنسا الا في سنة ١١٨٠ م .

وفي هذا كفاية فلنتنقل الى الصناعة التى يظهر انها انتقلت الى لويوة اوروپ باكثرية فروعها كالخزف والزجاج والحلى والنسيج على انواعه والقيشانى هذا عدا عن صناعة الجعة والسكر التى بسببها احتفظوا بالاسم العربى للمصرة (*Masra*)

اما العابون فقد عم استعماله في القرن الثالث عشر واصبحت صناعته في المستعمرات الفرنجية على شئ كبير من الاهمية ومنها يجب ان يكون قد انتقل الى غربى اوروپ .

ولعل مقتبسات القوم في التجارة قد فافت مكتسباتهم من الزراعة والصناعة ولا عجب فان التجار من الإيطاليين والفرنسيين الجنوبيين كانوا اول المشتركين في تلك الحروب رغبة الكسب والا ثرا . ولا غرابة ان يكونوا قد اهابوا بالفرنسيين الى توسيع نطاق ترفهم وتعيمهم بما جلبوه اليهم من منتجات الشرقيين الزراعية والصناعية فنمت بذلك مدن كبيرة وفتحت طرق جديدة ما قرب الشقة بين آسية واوروپ وورط بين شعوبها روابط اقتصادية زادت في دفع القوم الى القام في سبيل التقدم والرفى . اصف الى ذلك الشركات التجارية الكبرى والنظام الجمركى ورسومه وغيرها من الضرائب التى فرضت ايام الحروب الصليبية . وما قللوا العرب به ضرب العملة وسك النقود وتاسيس المصارف واصول ادارتها والبورصة واعداد الإثنية الخاصة بها .

وما كاد القيم يتمرقون الى علوم العرب وفنونهم حتى سارعوا الى اخذ ببعضها فتعددت
عندهم اللغات ولا عجب اذا علمنا ان دراسة اللغات الشرقية قد بدأت في اوروبا مع البعثات
التبشيرية التي ارسلت الى الشرق وفنذاك .

هذا وقد كان للآداب الشرقية علة والفربية فيها خاصة ثابتهها على بعضهم حتى
استوحاها بعض شعرائهم وكتابهم فنقلوا بعض عناصرها الف ليلة و ليلة وكليلة ودمنة الى
اسطورة " الكاوس المقدسة " وغيرها من الروايات الخيالية الخالدة .

وكم من قصيدة جديدة نظمت في اثنا تلك الحروب كقصيدة الشاعر الانكليزي

Ambrois

ونصيدة انطاكية (Ghanson d'Antioche) .

وكذلك فقد زادت ثروة القيم في التاريخ والجغرافية كما ازدادت عنايتهم بالفنون الجميلة
كالموسيقى والزخرفة والحفر والعلوم الدقيقة كالرياضيات والطب والتاريخ الطبيعي .
ولعل في هذا القدر ما يرينا ما كان للعرب من اثر في اعداد الفرنج الى نهضتهم
 وخروجهم من ظلمات القرون الوسطى الى انوار العصر الحديث .

زكى النفاش